جامعة مولود معمري– تيزي وزو
مخبر الممارسات اللغوية

مجلة

الممارسات اللغوية

العدد الثالث والعشرون (23)
2014

ISSN : 2170-0583

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

الجزائر

الهاتف: 00 14 41 026

الناسوخ: 00 14 41 026

البريد الإلكتروني: laboling@yahoo.fr

الهيكل الإداري للمجلة

ـ المدير الشرفي: أ د ناصر الدين حناشي؛

ـ مدير المختبر: أ د صالح بلعيد؛

ـ رئيسة التحرير: الجوهر مودر؛

ـ هيأة التحرير: ميدني بن حويلي، فتيحة حدّاد، حياة خليفاتي، علجية أيت بوجمعة، عيني بطوش، ريش بوثلجة، علجية أوطالب.

ـ الهيأة الاستشارية:

ـ محمد العربي ولد خليفة: رئيس البرلمان الجزائري؛

ـ أبو عمران الشيخ: رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر؛

ـ عبد الرحمان الحاج صالح: رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري؛

ـ محمود فهمي حجازي: رئيس جامعة نور مبارك في طشقند؛

ـ محمود أحمد السيد: نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق؛

ـ سالم شاكر: باحث في المازيغيات في inalco بفرنسا؛

ـ وفاء كامل فايد: أستاذة اللغويات في جامعة القاهرة؛

ـ علي القاسمي: خبير في الأسيسكو وباحث في المصطلحات والمعاجم؛

ـ عبد السلام المسدي: أستاذ كرسي في جامعة تونس؛

-Valérie Orlando, Professor,University of Maryland, U.S.A.
- Kathryn Lafever,Professor, University of Miami,U.S.A.
-Zerar Sabrina, Maitre de conférences, University of Tizi-ouzou, Algiers.

ـ المدير الفنّي: أ د صلاح يوسف عبد القادر.

مجلة الممارسات اللغوية

مجلة الممارسات اللغوية مجلة علمية عالمية محكّمة

قواعد النشر في المجلة

1 ــ مجلة **(الممارسات اللغوية)** لسانُ حال المختبر، فتستقبل كلّ الأبحاث/ المقالات/ التحقيقات/ سبر الآراء/ بيانات التسائيل/ حصائل الاستبانات... ذات العلاقة بالممارسات اللغوية؛

2 ــ ترحّب المجلة بكلّ من يرغب نشر بحثه الذي يدخل في إطار اختصاص المجلة (الممارسات اللغوية)؛

3 ــ تنشر المجلة في طيّ أوراقها ملفات خاصة حول موضوع واحد، كما تنشر موضوعات متخصّصة في عنوان مستقل عن المجلة، يصدر في شكل كتاب متخصّص؛

4 ــ تَنْشر مجلةُ **(الممارسات اللغوية)** البحوثَ المكتبية والدراساتِ الميدانيةَ، والنّصوصَ المحقّقةَ أو المترجمةَ أو مراجعاتِ الكتب المتعلّقةِ بالعربية وآدابها؛

5 ــ يقدّم البحث في صورة ورقية، يذكر الباحث: اسمه ولقبه ودرجته العلمية والمؤسّسة التي ينتمي إليها، أو المهنة التي يمتهنها؛

6 ــ تُرسَل البحوثُ إلى رئيس تحريرِ مجلة **(الممارسات اللغوية)** بجامعة مولود معمري بتيزي وزو في نسخة ورقة بريدية مصحوبة بنسخة قُرصية، أو تُرسَل عن طريق بريد المخبر الإلكتروني وهو laboling@yahoo.fr

7 ــ تَنْشر المجلّةُ البحوثَ الأصيلة المعدّة أصلاً باللغة العربية، كما تَنْشُر البحوثَ المحرّرةَ باللغاتِ: المازيغية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية، شرط أن يتصدّرها ملخصٌ باللغة العربية؛

8 ــ تنشر المجلةُ البحوثَ ذات اختصاصِ المجلةِ في بُعدها العام؛ بعد أن تخضعَ للتحكيم ولا تردّ إلى أصحابها سواءٌ قُبلت أم لم تُقْبل؛

9 ــ يتولّى تحكيم البحث محكّمان أو أكثر حسب هيأة التحرير؛

10 ــ يُشترَط في البحث المقدّم للنشر ألاّ يكون قد نُشِر سلفاً، إلاّ إذا كان البحثُ قد أضيف فيه نسخة مزيدة ومُنقّحة أو من الأبحاث التي تستحقّ النشرَ مرّة ثانية؛ على أن يشيرَ صاحبُه إلى مكان وتاريخ صدوره؛

11 ــ كلّ بحثٍ منشورٍ في مجلة **(الممارسات اللغوية)** لا يُنشر في قناة أخرى إلاّ بالإشارة إلى أسبقية صدوره في هذه المجلة، ويشير إلى ذلك في صدر القناة التي ظهر فيها؛

12 ــ يُكافأ صاحبُ البحثِ المنشور بخمسِ (5) نُسَخٍ من المجلة التي نُشِر فيها بحثُه؛

13 ــ على صاحبِ البحث التقيّد بشروط استقبال البحث وهي:

ــ التقيّد بالمعايير العلمية والأكاديمية المُتعارف عليها من توثيق واستخدام للمصادر والرسوم، والتفريق بين التهميش للكتب والتهميش للمجلات، واستعمال علامات الوقف، وكلّ متعلّقات المنهجية...

ــ كتابة البحث بخط simplifiedArabic ببنط 13؛

ــ طول الكتابة 24 بعرض 12؛

ــ توضع الرسوم والبيانات ضمن إطار 12 x 24؛

ــ المسافة بين السطور 1.0؛

ــ الهوامش في آخر البحث متسلسلة ومكتوبة آلياً، ببنط 12؛

14ــ يلتزم صاحبُ البحث بالتعديل حالةَ ما أقرّ المحكّمون نشرَه بشرط التعديل؛

15ــ الأبحاثُ المنشورة في مجلة **(الممارسات اللغوية)** تعبّر عن أصحابها، ولا تعكس توجّهاتِ المختبر أو جامعة مولود معمري، أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الدولة الجزائرية؛

16ــ ترسل الأبحاث عن طريق البريد على العنوان التالي: السيد رئيس تحرير مجلة الممارسات اللغوية/ مخبر الممارسات اللغــوية. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. الجمهورية الجزائرية.

روابط الاتّصال:

ــ البريد الالكتروني: laboling@yahoo.fr

ــ الهاتف الثابت: 026213291

ــ الناسوخ: 026411400

كلمة العدد

يسرّ مخبر الممارسات اللّغوية أن يقدّم إلى قرّائه الأوفياء العدد الثّالث والعشرين من مجلّة "الممارسات اللّغوية. ويحتوي هذا العدد؛ على غرار سابقيه؛ أبحاثا ودراسات حول قضايا اللّغة العربية منها ما يتّصل بجوانبها التعليمية، وكيفية تمكين المتعلم من لغته الوطنية وإكسابه المعارف والمهارات والقيم التي تؤهله إلى الاندماج في بيئته، .

كما تناول هذا العدد إشكالية الضاد والظاء عند اللغويين العرب، وأهم ما ألف في هذا الموضوع للبيان الفرق بين الحرفين. ووقفت دراسة أخرى على أثر أُصُول الفقه في توجيه أُصُول النَّحو، يتجلى ذلك في استعانة علماء أصول النّحو بمنهج علماء أصول الفقه في يضبط المفاهيم الاصطلاحية لعلم أصول النحو، كما امتدت فكرة الأصل والفرع التي نشأت في ظلّ الدرس الفقهي إلى مجالات البحث اللغوي.

إضافة إلى مواضيع أخرى أراد أصحابها إثراء صفحات المجلة بمضامينها، وإفادة القارئ بما تطرحها من أفكار ورؤى.

نأمل أن ينال هذا العدد إعجاب القرّاء الكرام، وأن يفيدونا بآرائهم لمزيد من التّحسين والتّعمّق في القضايا الّتي تهمّ انشغالات المجلّة.

هيئة التّحرير

الفهرس

كلمة العدد	7
الأنشطة المستخدمة في العملية التعليمية التعلمية ودورها في تحقيق الأهداف التربوية الأنشطة اللغوية للسنة الثانية ابتدائي أنموذجا ***د.عبد الحفيظ تحريشي، ج / بشار***	11
اللغة العربية بين التحدي والواقع ***أ. محمد بوعلي/ ج. تلمسان.***	33
الظاهرة الإعرابية السقيمة وأسبابها في المدرسة الجزائرية – مرحلة التعليم المتوسط أنموذجا– ***أ. سميرة جداين، ج/تلمسان***	39
مقاييس النقد اللغوي في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي "علي بن عبد العزيز الجرجاني" ***أ. شهيرة بربار، ج/ بسكرة***	63
المنحى التداولي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ت (684هـ) ***أ.خديجة كلاتمة، ج/بسكرة***	91
إشكاليّة الضّاد والظّاء عند اللّغويّين العرب ***أ. محمّد بن محمّد حرّاث، ج/ تيزي وزو***	105
أثر أُصُول الفقه في توجيه أُصُول النَّحو ***أ. طارق بومود، ج/ تيزي وزو***	123
الحرف بين المفاهيم اللغوية والفاعلية النصية. ***أ. سليمان بوراس، ج/ المسيلة***	147

هل النحو العربي أصعب أم النحو الألماني؟ ***أ. الخثيـــر داودي، المركز الجامعي ميلة***	167
العلامة اللغوية واشتغال الدلالة من السيميائية إلى التفكيكية ***أ. أحمد العزري، ج/ تيزي وزو***	185
حضور الصورة في الكتاب المدرسي، كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط نموذجا ***أ. عبد الله بوقص، ج / الشلف***	201
La marque comme référent ultime de la publicité ***Atmane Seghir, l'Université de Bejaia***	15
L'influence culturelle sur la traduction de la poésie populaire: traduire une langue ou un dialecte? ***Moussaoui Yamina Leila, Université Tlemcen***	1

الأنشطة المستخدمة في العملية التعليمية التعلمية ودورها في تحقيق الأهداف التربوية الأنشطة اللغوية للسنة الثانية ابتدائي أنموذجا

د.عبد الحفيظ تحريشي
جامعة جامعة بشار

الملخص: يهدف التعليم الأساسي إلى تنمية شاملة للمتعلم في المجال الوجداني والحس الحركي والمعرفي وإلى تمكينه من لغته الوطنية وإكسابه المعارف والمهارات والقيم التي تؤهله إلى الاندماج في بيئته، وتسمح له أيضا بمواصلة التعليم أو الانخراط في الحياة المهنية، وللأنشطة المنهجية أهمية كبيرة في تعليم وتعلّم التلميذ وفي تكوينه السليم والمتكامل وفي دفعه للمشاركة الفعالة والإيجابية في العلمية التعليمية التعلّمية لأنشطة المنهجية أهمية كبيرة في تعليم وتعلّم التلميذ وفي تكوينه السليم والمتكامل وفي دفعه للمشاركة الفعالة والإيجابية في العلمية التعليمية والتعلّمية

1-الأنشطة: هي مجموعة الأعمال التي يقوم بها المتعلمون داخل الصف الدراسي أو خارجه من أجل تحقيق أهداف منشودة ويعرفها اللقاني: «على أنها الجهد العقلي أو البدني الذي يبذله المتعلم أو المعلم من أجل بلوغ الأهداف المرجوة» (أحمد اللقاني، 1995، ص: 6.)، والأنشطة المستخدمة في العملية التعليمية التعلّمية كثيرة وتصنف إلى:

أ- الأنشطة التعليمية التعلّمية الصفية: وتشمل الفعاليات التعلمية داخل قاعة الدرس.

ب- الأنشطة المنهجية غير الصفية: وتخص كل الفعاليات غير الصفية التي يقوم بها المتعلم خارج المدرسة.

1-1- شروط اختيار الأنشطة: يقوم التخطيط للأنشطة على مجموعة من الشروط تحدد عملية الاختيار (انظر: سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، ص: 90.) مثل:

- ارتباط الأنشطة بفلسفة المجتمع وأهدافه واحتياجاته ومشكلاته من جهة وارتباطها بالفلسفة التربوية من جهة أخرى.
- الأخذ في الحسبان قدرات المتعلمين على العمل والإنتاج ومراعاة الفروق الفردية بينهم.
- طبيعة المحتوى التعليمي والموضوع الدراسي.
- ضرورة تحضير الإمكانات البشرية والمادية للقيام بالأنشطة.
- التنويع في اختيار الأنشطة وجعلها مصدرا للتعلم.
- قدرة المعلم على التخطيط للمنهاج ومتابعة تنفيذه.

1-2- تصنيفات الأنشطة التعليمية التعلمية: إن نشاطات التعليم والتعلم تصنف بكيفيات عديدة ومختلفة تبعا للمعيار أو الأساس الذي يتم من أجله التصنيف، ومن هذه التصنيفات ما يوضحه الجدول الآتي:

معيار التصنيف	النشاطات	التمثيل
الواقع والمجرد	واقعية	الرحلات – الزراعة- تربية الحيوانات
	مجردة	الرموز اللفظية
المشاركة	فردية	رسوم- إعداد التقارير- تلخيص كتاب
	مجموعات صغيرة	الاشتراك في مشروع – جمع مقالات
	مجموعات كبيرة	المناقشات الصفية – الاستماع لشرح المعلم

المكان	داخل الصف	شرح- قراءة- مناقشة- حوار
	خارج الصف	تربية الحيوان- زارعة بعض النباتات
	خارج المدرسة	رحلة تعليمية- زيارة معرض
الموقع	تمهيدية	عرض الصور والشرائح في بداية الحصة
	بنائية	الشرح- المناقشة - طرح الأسئلة -القراءة
	ختامية	الملخص- كتابة التقارير- عمل الواجبات
الحواس	سمعية	الاستماع إلى تسجيل صوتي أو لفقرة أو لقصة
	بصرية	مشاهدة عرض لفيلم تعليمي
	حركية	إجراء تجارب- رسم خرائط
	بصرية سمعية	مسرحية- مشاهدة فيلم متحرك
الهدف	الحصول على معلومات	قراءة- سماع محاضرة- لقاء متخصص
	تنمية المهارات	صنع نماذج- إجراء التجارب
	تحقيق أهداف وجدانية	قراءة عن كثب-الاشتراك في تمثيلية عن عالم

الجدول(1): تصنيف الأنشطة المنهجية.

1-3- النشاط المنهجي: هو المجهود أو الممارسات العملية التي يقوم بها التلميذ داخل الصف أو خارجه وفق برنامج معين من أجل تحقيق لأهداف تؤدي إلى تنمية خبرات التلميذ وهواياته وقدراته حيث يعرفه أحمد حسين اللقاني(1991) بأنه الجهد العقلي أو البدني الذي يبذله المتعلم في سبيل إنجاز هدف وتحقيقه ويعرفه أحمد ماهر عبد الله(1988) بأنه أنماط في السلوك والتفكير يقوم بها التلميذ ويوجّهها القائمون على العملية التربوية بما يساعد على تنمية خبراتهم[1]، ويتميز

النشاط بهدف يتوقع تحقيقه كما أن له محتوى وخطة ويحضر بتوجيه من الساهرين على العملية التربوية.

أ.أهمية الأنشطة المنهجية: لأنشطة المنهجية أهمية كبيرة في تعليم وتعلّم التلميذ وفي تكوينه السليم والمتكامل وفي دفعه للمشاركة الفعالة والإيجابية في العلمية التعليمية والتعلّمية، ويمكن حصر أهمية هذه الأنشطة فيما يأتي:

- يسهل على المتعلمين استيعاب الخبرات التعليمية.
- يساهم في تطوير القدرات العقلية والمهارية للتلاميذ.
- اكتساب القيم والصفات الحسنة.
- تثبت المفاهيم وتيسر إدراكها أثناء التعلم.
- إتاحة إمكانات عديدة وبأساليب حديثة لتعلم الخبرات التربوية.
- خلق مواقف مماثلة لمواقف الحياة تساعد على الفهم وتنمية الخبرات المتعلّمَة.
- إيجاد فرصة للتعاون بين المعلم والمتعلم في التخطيط للنشاط.

ب.الأسس التربوية للأنشطة المنهجية: ترتكز الأنشطة المنهجية إلى مجموعة من المبادئ والأسس حصرها صلاح الدين عرفة محمود في صلاح الدين عرفة محمود، ص: 419):

- الشمول
- مراعاة الحاجات
- التوازن
- الوقت
- الخبرية
- الاستمرارية
- التخطيط
- التنفيذ

جـــ.تصميم الأنشطة المنهجية: يخضع تصميم النشاط المنهجي إلى سلسلة من الخطوات المرتبة توضح بالشكل الآتي:

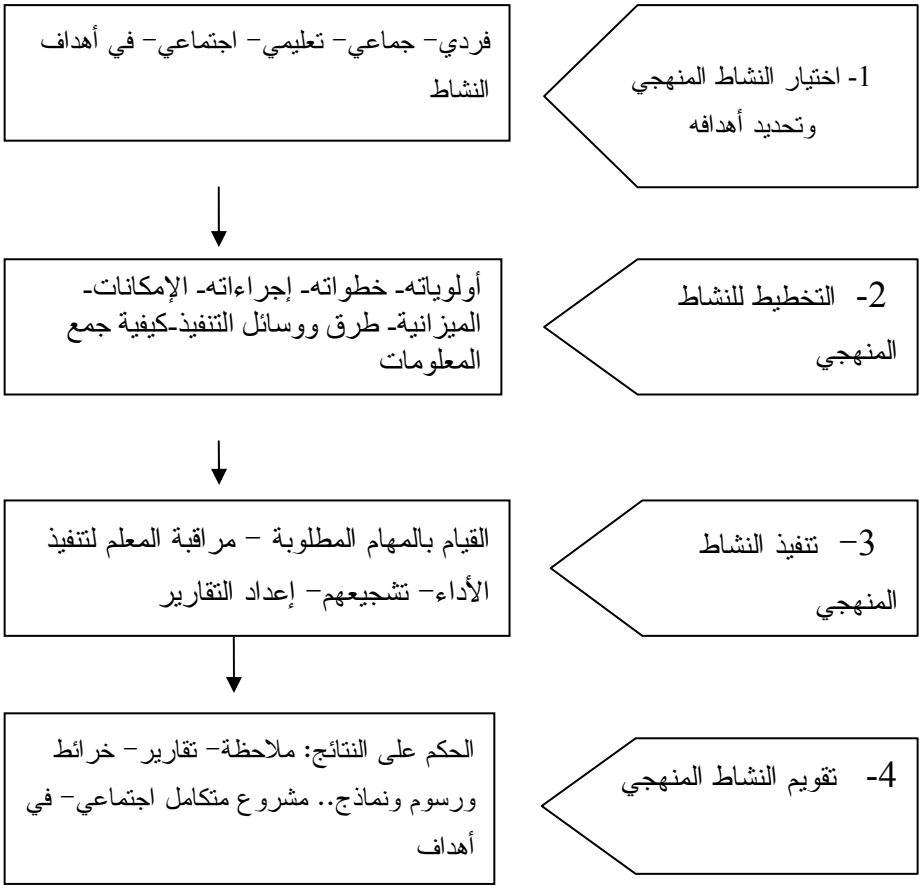

الشكل(1): خطوات سير الأنشطة المنهجية

د.الأنشطة الصفية: هي الأنشطة أو الخبرات التعليمية التعلمية التي يقوم بها المتعلمون داخل الصف الدراسي، وتخص الأنشطة العقلية كطرح الأسئلة التعليمية والاستنتاجات وغيرها مع الحرص على تنويع الأنشطة الذهنية لتحقيق الأهداف التربوية، كما يفضل استخدام بعض هذه الأنشطة في جميع مواقف عمليتي التعليم

والتعلّم[2]، والأنشطة البدنية حيث يبذل المتعلم جهد عضلي أو حركي عن طريق العمل أو التجريب أو الممارسة أو التطبيق والأنشطة أو الخبرات التطبيقية التي هي بمثابة إجراءات تستلزم أنشطة عقلية ومعرفة نظرية، فهذه الأنشطة تعمل على تنمية القدرات العقلية والوجدانية والمهارية للمتعلمين وتيسر عليهم اكتساب الخبرات وتوظيفها في حياتهم اليومية، وتأخذ هذه الأنشطة الصفية أو الخبرات التعليمية صورا مختلفة تبعا للمعايير التي تحدد أنواعها، إذ يمكن توظيفها بالشكل الآتي:

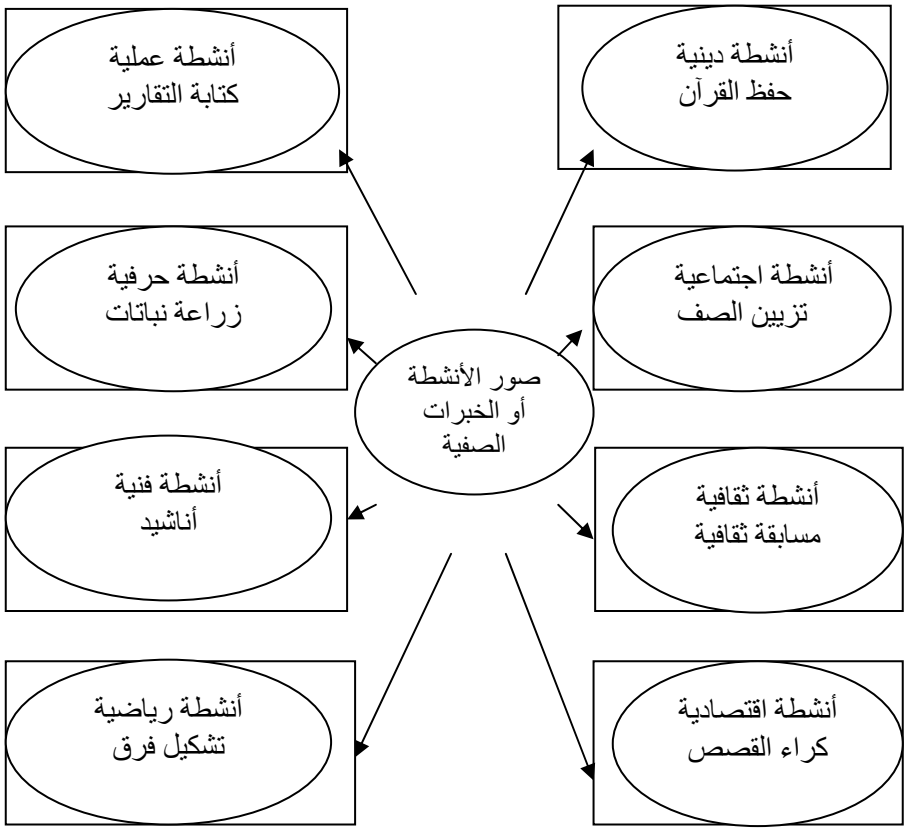

- الشكل(2): صور الأنشطة أو الخبرات الصفية

أنواع الأنشطة أو الخبرات الصفية: توجد أنواع كثيرة من الأنشطة الصفية التي يراعيها المعلم عند تخطيطه اليومي لعملية التدريس آخذا في الحسبان تنويع

جانب الخبرات أو أنماطها بما يتلاءم وحاجات المتعلمين والظروف الفردية بينهم حيث تتمثل أهم أنواع هذه الخبرات أو الأنشطة في الآتي:

- **الأنشطة التعلمية الأولية:** هي خبرات تعلمية أولية تهدف إلى إثارة اهتمام المتعلم أو لفتح باب المناقشة وطرح الأسئلة، ومن بين هذه الأنشطة قراءة قصة من كتاب أو عرض الصور والشرائح أو استخدام أية وسيلة تعليمية لها علاقة بالدرس.

- **الأنشطة التعلمية التطويرية:** تهدف هذه الخبرات التطويرية أو البنائية إلى تحقيق أهداف الوحدة التدريسية في المعرفة والمهارات والاتجاهات والقيم ومن هذه الأنشطة: البحث، الإلقاء أو التقديم أو العرض أو الخبرات الإبداعية أو التقدير أو الملاحظة أو الإصغاء أو تعاون المجموعة أو التجريب العلمي.

- **الأنشطة أو خبرات المناقشة:** تساهم هذه الخبرات بأخذ المعلومات وإعطائها وإتاحة الفرصة للتلاميذ للتقويم وتحديد الحاجات واكتشاف الاحتمالات وتوفير الوقت للمعلم للقيام بالتقويم ومن أمثلته: القيام بعمليات المقارنة والموازنة.

- **الأنشطة أو الخبرات الفنية أو الحرفية:** تشمل أنشطة فنية أو حرفية عديدة منها: صنع نماذج أو مجسمات أو جمع عدد من الصور أو الرسوم أو الأشكال التي تتعلق بموضوع ما.

- **الأنشطة الختامية:** تثير هذه الخبرات مجموعة من الأسئلة مثلا: من أين بدأنا ؟ أين أصبحنا؟ ثم ما الخطوة التالية؟ وتستخدم هذه الأنشطة في التقويم وتعد المنافسة الصفية وإعداد التقارير والأشكال التوضيحية من بين الأنشطة الختامية.

هـ. الأنشطة اللاصفية: تقوم الأنشطة اللاصفية بدور كبير في تحقيق العملية التعليمية لأهدافها التربوية إذ تعمل على ترقية مستوى المتعلمين وعلى صقل مواهبهم وتفتق قدراتهم من خلال قيامهم بالأنشطة خارج حجرة الدرس وانغماسهم في البحث والتحليل باندفاعية لإثبات قدراتهم ومهاراتهم، وترى حدام أن

النشاط اللاصفي يمثل الفعاليات والأنشطة التي يقوم بها التلاميذ بشكل تلقائي ويمارسونها برغبة خارج الجدول المدرسي وتكون هذه الممارسة منظمة وتحت إشراف وتوجيه المدرس (حدام عثمان يوسف، 1995، ص: 82) إذ نلمح من خلال تأمل هذا الرأي أم المعلم يحتل مكانة مهمة في توجيه الأنشطة اللاصفية خارج المدرسة حسب منهج منظم، ويؤكد رافع بأن الأنشطة اللاصفية يمارسها التلاميذ في مجالات متعددة بهدف استغلال طاقاتهم وتوجيهها إلى ما يخدم احتياجاتهم وميولهم وقدراتهم من جهة وإلى ما هو نافع للحياة المدرسية والعملية التعليمية والأهداف التربوية من جهة أخرى (محمد سماح، 1986، ص: 84). إنّ الأنشطة اللاصفية التي يقوم بها المتعلمون خارج المدرسة تعمل على ترقية وتنمية قدراتهم ومهارتهم التعليمية والمعرفية بإشراف المعلم وتوجيهه بما يضمن الكشف عن إبداعاتهم وقدراتهم وميولهم.

- أقسام الأنشطة اللاصفية:

يميز الباحثون في التربية بين أنشطة لا صفية عديدة منها:

- إنجاز البحوث.
- الزيارات العلمية.
- المناظرات العلمية والثقافية والأدبية.
- المطالعة.
- الانضمام إلى فرق المسرح و الإنشاد والرياضة.
- المشاركة في الرحلات المدرسية.
- المشاركة في المسابقات والأنشطة اللاصفية مثل الرسم.
- المشاركة في مجلة المدرسة أو إنجاز مجلة جدارية خاصة بالقسم.
- جمع المادة العلمية الخاصة بحقل معرفي معين مثل: جمع الأحاديث جمع النوادر،...

قواعد استخدام الأنشطة اللاصفية: يجب توفر أسس وقواعد معينة حتى تحقق الأنشطة اللاصفية أهدافها منها:

- أن تتصف هذه الأنشطة بالتنوع مع مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ.
- أن تكون مكملة للمادة الدراسية أو مرتبطة بها.
- أن تنسجم هذه الأنشطة مع حاجات المتعلم وقدراته لدفعه للعمل بها والتعبير عنها.
- أن يكون المعلم موجها للأنشطة اللاصفية مع ترك مجال من الحرية للمتعلم في اختيار النشاط الذي يرغب في إنجازه.
- يستحسن أن تراعي هذه الأنشطة هوايات المتعلمين وتعمل على تنميتها.

يربط النشاط اللاصفي التعلم باللعب، ولقد استخدم سقراط هذا الأسلوب قديما في تعليم التلاميذ (عبد الحليم فتح الباب وإبراهيم حفظ الله، 1968، ص: 86.) فربط التعلم باللعب يحرر المتعلم من ضوابط قاعة الدرس، والطبيعة توفر له مجالا واسعا للاطلاع والخبرة من خلال إدراك ما يدور حوله عن طريق الحواس حيث يستطيع مشاهدة الحقائق على الطبيعة، فترسخ في ذهنه بأسرع وقت وبأقل جهد.

أهداف الأنشطة اللاصفية: يسعى التربويون من خلال التركيز على الأنشطة اللاصفية على تحقيق ما يأتي:

- أن دور النشاط «قد يكون أقوى وأثره أكثر فعالية على تعلم التلاميذ من النشاط الصفي، وذلك لأن للتلميذ دورا كبيرا في اختيار نوع النشاط اللاصفي مما يدفعه إلى التميز في هذا النشاط» (ردينه عثمان يوسف، وحدام عثمان يوسف ص: 153.).
- تنمي هذه الأنشطة شخصية المتعلم وتوسع مدركاته.
- ربط الأنشطة اللاصفية بالمنهاج الدراسي فيعزز العملية التعليمية التعلمية.

- فسح المجال للعمل الجماعي من خلال إنجاز الأنشطة اللاصفية المتنوعة مثل: التمثيل-الرحلات.

- التعرف على القدرات الإبداعية للمتعلمين والكشف عن مواهبهم قصد تنميتها.

- تلبية احتياجاتهم وإشباع ميولهم بالسماح لهم باختيار الأنشطة التي يرغبون في القيام بها.

- إثبات قدرات المتعلم ومستواه المعرفي ومهاراته.

- توفير قسط من الحرية في تعليم التلاميذ من خلال القيام بالزيارات والرحلات واللعب واستغلال الطبيعة فتنمي حواسه ومعارفه.

2- الأنشطة اللغوية للسنة الثانية ابتدائي:

2-1- سير الأنشطة في المواد التعليمية. قامت بتطبيق هذه الدراسة معلمة من مدرسة شيخاوي بلخير ببلدية القنادسة ولاية بشار، متحصلة على شهادة البكالوريا، وهي الآن تواصل دراستها الجامعية، وكانت قد خضعت لتكوين متخصص بالمعهد التكنولوجي للتربية، ولها أقدميه 18 سنة من الخدمة الفعلية ضمت العينة التلاميذ الذين تتولى الإشراف على تدريسهم، ويمكن عرض هرم أعمارهم في الجدول الآتي:

السنة / الجنس	1998	1999	2000	2001	2002	2003	المجموع
الذكور	7	0	1	2	3	2	9
الإناث	0	1	0	0	8	2	11

الجدول(2): أعمار التلاميذ.

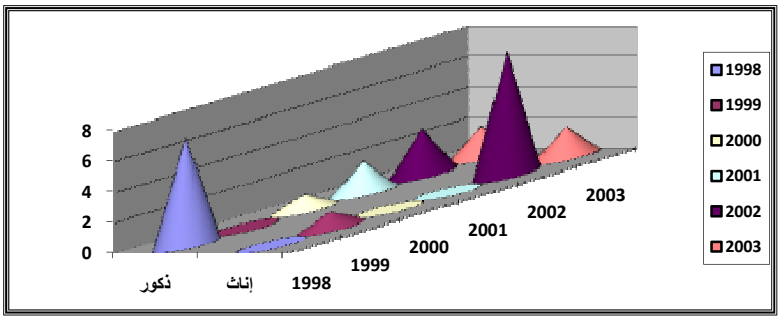

الرسم البياني(1): هرم أعمار التلاميذ.

استعانت المعلمة لإنجاز الوحدة التعليمية التعلمية بمجموعة من الوثائق هي:

- منهاج السنة الثانية ابتدائي.
- الوثيقة المرافقة للمنهاج.
- كتاب التلميذ.
- كراس التمارين.
- دليل المعلم. اعتمدت المدرّسة في تناول أنشطة اللغة العربية على استعمال الزمن الذي تعمل به، وهو كالآتي: مدرسة شيخاوي بلخير الابتدائية

المعلمة:

قسم: السنة الثانية ابتدائي السنة الدراسية: 2009-2010.

استعمال الزمن

التوقيت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	المواد	المدة	الحصة
8 سا 15د						لغة عربية معالجة ع	13سا 30د 45د	18 ح 1ح
من 8 سا 15د	قراءة 45د	قراءة 45د	قراءة 45د	قراءة 45د	قراءة 45د			
إلى 9سا 45د	تعبير شفهي 45د	أقرأ وأميز 45د	محفوظات 45د	تعبير شفهي 45د	أقرأ وأميز 45د			
استراحة								

من 10سا					
إلى11سا 30د					
الفترة المسائية					
من 13سا	**قراءة 45د**	**قراءة 45د**		**قراءة 45د**	**تطبيقات إدماجية 45د**
إلى14سا 30د	**أستخرج وأستعمل 45د**	**كتابة 45د**		**أستخرج وأستعمل 45د**	
استراحة					
14سا 45د					
إلى16سا 15د		**معالجة ع 45د**			

الجدول(3): استعمال الزمن السنة الثانية ابتدائي.

اختارت المدرّسة لإنجاز هذه الدراسة محور المدرسة ووحدة (غدا نعود إلى المدرسة– تحية العلم) والصفحة 8 من كتاب التلميذ (وزارة التربية الوطنية كتابي في اللغة العربية، السنة الثانية من التعليم الابتدائي، 2009–2010 ص:8) والصفحات من 1 إلى 6 من كراس التمارين ويمكن توضيح هذه الوحدة بالجدول الآتي (وزارة التربية الوطنية، وثيقة تخفيف مناهج التعليم الابتدائي، جوان 2008 ص:13.):

الفصل	الشهر	المحور	الوحدة	المشروع	محفوظات
الأول	سبتمبر	المدرسة	– غدا نعود إلى المدرسة – تحية العلم	أكتب مفتاحا	المدرسة

الجدول(4): الوحدة التعليمية رقم:1.

أما توزيع التعلمات المتعلقة بهذه الوحدة، فيمكن تمثيلها بالجدول الآتي (وزارة التربية الوطنية، التدرج السنوي في مرحلة التعليم الابتدائي، أوت 2009 ص:10.):

الأسبوع	محور القراءة	الصيغ والتراكيب	كتابة – خط	إملاء	تعبير كتابي ومشاريع
2	المدرسة	الضمائر المنفصلة: نحن–أنتم–هم – هما–أنتما	حرفا: م – ب	رسم الحروف المتشابهة	كتابة حكاية قصيرة مصورة

الجدول(5): توزيع التعلمات المتعلقة بالوحدة.

اعتمدت المدرسة في إنجاز الحصص التعليمية المتعلقة باللغة العربية والتي تترجم مضامين الوحدة 1 على مجموعة من المذكرات، هي:

- مذكرات القراءة.
- مذكرات التعبير.
- مذكرة الكتابة.
- مذكرة أقيم تعلماتي.
- مذكرة المحفوظات.
- مذكرةالمطالعة.
- مذكرة إنجاز المشروع.

2–2– تقويم بعض الأنشطة: عرضت المعلمة لتقييم تعلمات التلاميذ أربع تطبيقات لغوية في صفحة خاصة معدة لهذا الغرض (على شكل استمارة)، وقد تم

ذلك في حصة الإدماج للوقوف على مدى استيعاب التلاميذ لمختلف الأنشطة اللغوية. ولتقييم هذه التطبيقات من خلال النتائج المتحصل عليها، والتي يمكن تتبعها عبر ما يلي:

أ.التطبيق الأول: أكمل بـــ(ـــه) أو (ها) أو (هو) أو (هي)(وزارة التربية الوطنية، كراس التمارين، السنة الثانية من التعليم الابتدائي، 2009-2010 ص:6.):

- ذهبت سلمى مع أختـــ..... إلى المدرسة.
- ..... يحمل المحفظة.
- ..... تمشي على الرصيف.
- ..... فرح بمحفظتـــ..... الجديدة.
- ..... سعيدة بالعودة إلى مدرستـــ.....

فكانت النتائج المتحصل عليها كما بينه الجدول الآتي:

المقياس / الجنس	جيد	حسن	متوسط	رديء	المجموع
الذكور	4	4	1	0	9
الإناث	5	3	0	3	11

الجدول (6) نتائج تقييم التلاميذ

يمكن تمثيل هذه النتائج بالرسم البياني الآتي:

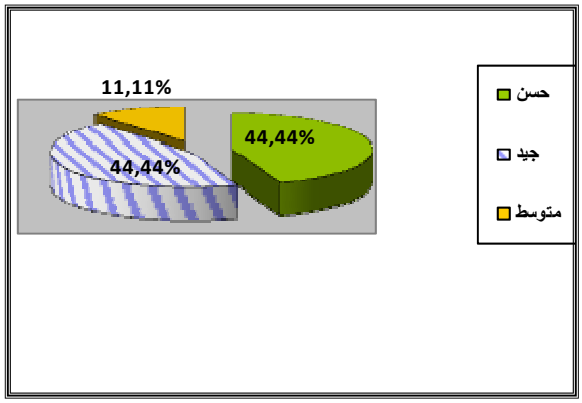

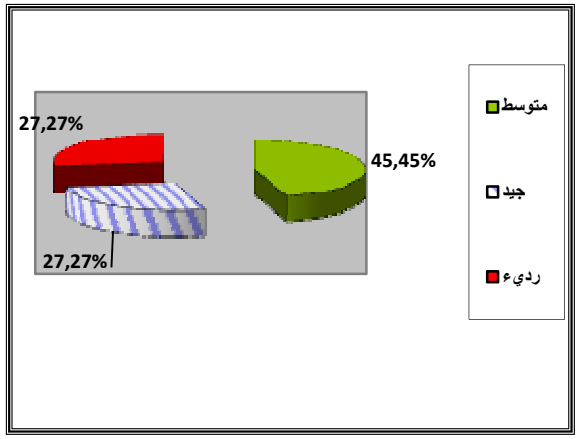

الرسم البياني(2) النسب المئوية لتقييم الذكور و الرسم البياني(3) النسب المئوية لتقييم الإناث.

نلاحظ من خلال مقارنة النسبة المئوية بين نتائج الذكور والإناث أن الذكور حققوا نسبة 100 % في تحصلهم على تقدير متوسط أو فوق المتوسط بينما حققت الفتيات نسبة 72.72% في التقدير ذاته. عموما نجد أن معظم التلاميذ أي ما نسبته 85% (أي 17 تلميذا من بين 20) حققوا التقدير ذاته، وهذا ما يبين تمكن التلاميذ واستيعابهم لهذا التطبيق، في حين أن نسبة 15% من التلاميذ تحصلوا على تقدير (رديء) وهذه نسبة معقولة يمكن معالجتها في الحصة المعدة لهذا الغرض.

ب.التطبيق الثاني: أصنف الكلمات في أربع مجموعات (وزارة التربية الوطنية كراس التمارين، السنة الثانية من التعليم الابتدائي، ص: 6.):

أزهار- فراشات- طويل- لوز- مطر- مزمر- سقف- تلميذ- تراب- سور.

[س]	[ز]	[ت]	[ط]
.....	.....	.....	.....
.....	.....	.....	.....
.....	.....	.....	.....

وقد تحصلنا من هذا التطبيق على النتائج الآتية:

المقياس / الجنس	جيد	حسن	متوسط	رديء	المجموع
الذكور	9	0	0	0	9
الإناث	9	0	0	2	11

الجدول (7) نتائج تقييم التلاميذ

يمكن تمثيل هذه النتائج بالرسميين البيانيين الآتيين:

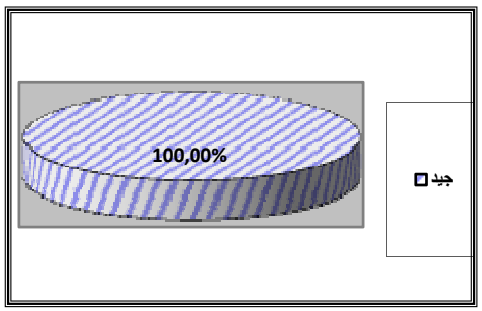

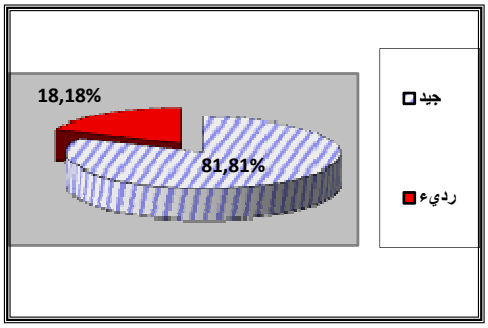

الرسم البياني(4) النسب المئوية لتقييم الذكور و الرسم البياني(5) النسب المئوية لتقييم الإناث.

ونخلص من النتائج المتوصل إليها من خلال إنجاز هذا التطبيق أن كل الذكور أي 100% وأن معظم الإناث أي 81.81% قد تحصلن على تقدير جيد وهدا يمثل نسبة إجمالية تقدر بـــ90% وهي نسبة ممتازة تعكس جهد المعلمة والمتعلمين ومدى استيعابهم للدرس، في حين نجد نسبة 10% من التلاميذ تحصلوا على تقدير رديء (أي تلميذتين من بين 20 تلميذا).

جـــ. التطبيق الثالث: أزيد الناقص وأقرأ(وزارة التربية الوطنية، كراس التمارين، السنة الثانية من التعليم الابتدائي، ص:7.):

- ..هرة قـــ..
- ..مساح كرا..
- .. وق بنـــ..

قام التلاميذ بحل هذا التطبيق. فكانت نتائج تقييمهم كالآتي:

المقياس / الجنس	جيد	حسن	متوسط	رديء	المجموع
الذكور	6	3	0	0	9
الإناث	6	0	3	2	11

الجدول(8) نتائج تقييم التلاميذ

يمكن تمثيل هذه النتائج بالرسميين البيانيين الآتيين:

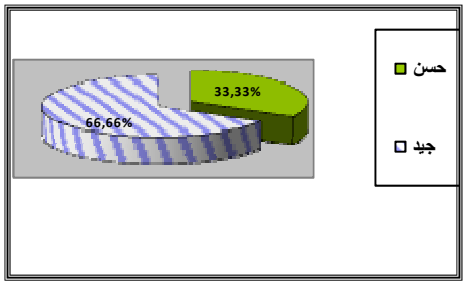

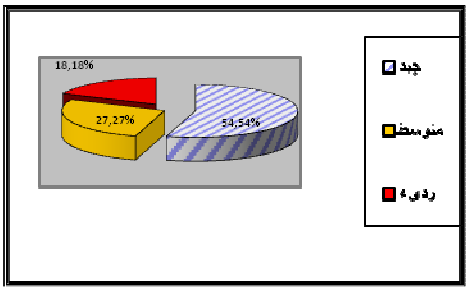

الرسم البياني(6) النسب المئوية لتقييم الذكور و الرسم البياني(7) النسب المئوية لتقييم الإناث.

تظهر النتائج المتحصل عليها والنسب الممثلة لها مدى تمكن التلاميذ من استيعاب الدرس الأمر الذي سهل عليهم حل هذا التطبيق حيث نجد أن كل الذكور(أي نسبة 100%) تحصلوا على تقدير جيد أو حسن أي أن نسبة 81.81% من الإناث تحصلن على تقدير جيد أو متوسط بينما 18.18% منهن كان تقديرهن رديء أي ما يمثل 10% من مجموع كل التلاميذ وهي نسبة معقولة، ستقوم

المعلمة بتقويم تعلماتهما في حصة المعالجة اللغوية وبتكليفهما بإنجاز بعض التمارين المماثلة في المنزل.

د. التطبيق الرابع: الكتابة

أكتب

سطـــر

زيـــت

تحصلنا بعد تصحيح هذا التطبيق على النتائج الآتية:

المقياس / الجنس	جيد	حسن	متوسط	رديء	المجموع
الذكور	0	1	8	0	9
الإناث	0	3	4	4	11

الجدول (9) نتائج تقييم التلاميذ.

يمكن تمثيل هذه نتائج هذا التقييم بالرسميين البيانيين الآتيين:

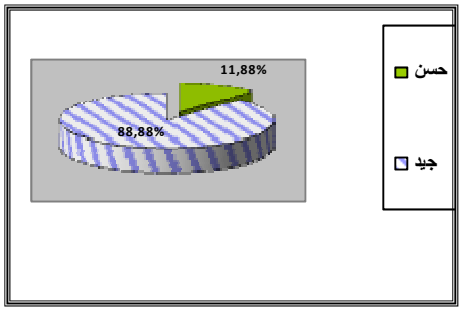

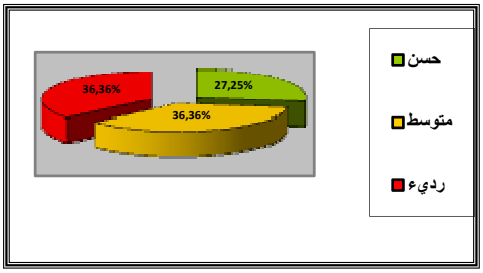

الرسم البياني(8) النسب المئوية لتقييم الذكور و الرسم البياني(9) النسب المئوية لتقييم الإناث.

يتضح من النتائج المتحصل عليها والنسب الممثلة لها أن أعلى نسبة سواء عند الذكور أو الإناث كانت تخص المتحصلين على تقدير متوسط (الذكور 88.88% والإناث 36.36%)، وكان تقدير كل الذكور متوسط أو فوق المتوسط بينما كانت نسبة تقدير الإناث (متوسط أو فوق المتوسط) هي63.63% في حين تحصلت 4 تلميذات من بين 11 تلميذة على تقدير رديء أن ما نسبته 36.36% والحقيقة أن هذه النسبة مقبولة إلى حد ما كون هذا التطبيق هو من الأنشطة الخاصة بالوحدة الأولى(المدرسة) المبرمجة في شهر سبتمبر أي بعد عودة التلاميذ إلى مقاعد الدراسة، والأكيد أن التلاميذ سيظهرون تحسنا أكبر بتقدمهم في التعلمات، فنسبة 80% من مجموع التلاميذ (أي 16 من20) تحصلوا على تقدير متوسط أو فوق المتوسط هي نسبة مشجعة تساعد المعلمة والتلاميذ على تحسين مستواهم في الكتابة شيئا فشيئا.

هـــ. الصعوبات والاقتراحات:

عددت المعلمة المكلفة بهذه المهنة بعض الصعوبات التي تعترض العملية التعليمية، وذكرت منها ما يأتي:

- غياب الألوان في طبع الصور، والمشاهد في كراس التمارين (لغتي الوظيفة).
- عدم وضوح بعض الصور، الأمر الذي يصعب على المعلم والمتعلم على السواء في التقدم في التعلمات.
- حذف بعض الدروس لغرض تخفيف المناهج في هذه السنة نجَم عنه خلل في توازن التعلمات الأساسية، ومن هذه المواضيع: الضمائر المنفصلة والمتصلة، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة.

وقدمت المعلمة بعض الاقتراحات كـــ :

- تغيير طريقة طبع الكتب وإعطاء أهمية أكثر للألوان وطريقة عرض النصوص فيها.
- تعويض النقص الناتج عن حذف بعض الدروس لخلق توازن في توزيع الحصص.
- إعادة النظر في حذف بعض المواضيع.
- تخصيص كراسات للخط والإملاء.

الهوامش:

1. أحمد اللقاني، تطوير مناهج التعليم، عالم الكتب، القاهرة، 1995.
2. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي وأحمد هلالي، المنهاج التعليمي والتوجه الإيديولوجي، ص: 91.
3. حدام عثمان يوسف، أثر النشاطات اللاصفية بتدريس التاريخ في تحصيل طالبات الصف الثاني المتوسط وتنمية اتجاهاتهن نحو المادة، رسالة دكتوراه، كلية التربية بغداد، 1995.
4. ردينة عثمان يوسف وحدام عثمان يوسف، طرائق التدريس، منهج- أسلوب- وسيلة، دار المناهج، عمان، الأردن، ط: 1، 2005.
5. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، المنهاج التعليمي والتدريس الفعال، المرجع السابق.

6. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي وأحمد هلالي، المنهاج التعليمي والتوجيه الإيديولوجي- النظرية والتطبيق، دار الشروق، عمان، الأردن، ط: 1، 2006.
7. صلاح الدين عرفة محمود، مفهومات المنهج الدراسي والتنمية المتكاملة في مجتمع المعرفة، سلسلة المنهج الدراسي، الكتاب الأول، عالم الكتب، القاهرة، ط1: 2006.
8. عبد الحليم فتح الباب وإبراهيم حفظ الله، وسائل التعليم والإعلام، عالم الكتب مطبعة القاهرة، 1968.
9. محمد سماح رافع، تدريس المواد الفلسفية في التعليم الثانوي في مصر والدول العربية، دار المعارف، مصر، 1986.
10. وزارة التربية الوطنية، لغتي الوظيفية، كتابي في اللغة العربية، السنة الثانية من التعليم الابتدائي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2009 – 2010.
11. وزارة التربية الوطنية، مديرية التعليم الأساسي، وثيقة تخفيف مناهج التعليم الابتدائي الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، جوان 2008..
12. وزارة التربية الوطنية، مديرية التعليم الأساسي، التدرج السنوي في مرحلة التعليم الابتدائي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، أوت 2009.
13. وزارة التربية الوطنية، لغتي الوظيفية، كراس التمارين، السنة الثانية من التعليم الابتدائي الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2009-2010.

اللغة العربية بين التحدي والواقع

أ. محمد بوعلي
جامعة تلمسان

1- تمهيد: تتطور الحياة العلمية اليوم بسرعة جارفة وتتطور معها الأبحاث اللغوية مستندة إلى الثورة التقنية والحاسوبية، وصار اللحاق بركب هذا التّطور ضرورة ماسة، وليس ترفا ثقافيا، بل لا بد لكل أمة تريد لنفسها مكانا بين الأمم المتقدمة أن تواكب هذا التطور لئلا تجد نفسها في طور التخلف.

والسؤال المطروح أين هي لغتنا من هذا التقدم، أهي في مستوى هذا التطوّر؟ وكيف يمكن اللحاق بمن سبوقنا؟.

في هذه المقالة سأحاول الإجابة عن هذا التساؤل.

2- واقع اللغة العربية: مما لا شك فيه أن هناك رغبة عارمة لدى أبناء الأمة في استخدام لغتهم الخالدة، والعودة إليها في كل المجالات على الرغم من الأوضاع المتردية التي وصلت إليها في بعض مناحي الحياة، ذلك أن حال اللغة العربية في مدارسنا وجامعاتنا يندى له الجبين، وقد أصبح استخدام اللغة العربية كلغة علمية وتقنية موضع تساؤل وأخذ ورد بينما جميع الأمم الأخرى لا ترضى بغير لغاتها القومية بديلا. إن مشكلة اللغة العربية تكمن في تراجع أبنائها عنها خصوصا الذين بيدهم الحل والعقد، ولن نفيق مما نحن فيه إلا بالكفاح والجهد الممزوج بالعرق والسهر والجدية واقتحام الحصون العلمية والتقنية التي غدت منيعة على اللغة العربية.

إننا نرى بريق الأمل في الجهود التي يبذلها المخلصون من أبناء الأمة العربية فقد وقفتُ على العديد من الصيحات التي أطلقها رجال الفكر والعلم من هذه الأمة نذكر منهم الكاتب المعروف فهمي الهويدي الذي أطلق الصيف الماضي صيحة تحذيرية مدوية في العديد من مقالاته الأسبوعية، يقول الأستاذ فهمي

هويدي: «وقعت هذا الأسبوع على عدة شهادات أدركت منها أن تخلّفنا العلمي وصل إلى حدّ الفضيحة وإننا ما لم نشمر عن سواعد العزم ونتحرك بكل جدّية وإصرار فإن مستقبلنا بل وجودنا كله سوف يصبح في مهب الريح»[1].

3- ما تواجهه اللغة العربية: من المشاكل التي تواجهها اللغة العربية وتقف أمام استخدامها في الحياة العلمية نجد:

أولا: غزارة غزو المصطلح الأجنبي: الذي صار يغزو الأسواق العربية على تنوعها واكتسح الميدان التقني بسرعة مذهلة، وطرح نفسه في الاستعمال مشحونًا بثقافة بلد المنشأ ومرجعيتها الفكرية، ولم يتمكن العقل العربي من الإسراع في إيجاد البديل عن طريق الوضع والترجمة أو التعريب "مما جعل القارئ العربي يعيش متاهات تعدد المصطلحات الوافدة من جانب، وعسر استعمالها وفهمها لأنها مخالفة للذوق اللغوي الأصيل من جانب آخر وحتى في حالة تعريبه فإننا نجد تعدد التعريب وتعدد الترجمة يحدث فوضى في الاستعمال ومن هنا ينبغي أن نبحث عن طرق علمية تمكننا من التغلب على هذا المشكل، ومن أجل ذلك سأسوق بعضًا من الآراء علّها تكون أرضية قد يبنى عليها الغيورون على العربية، وبدءً أُطمئن الذين يدعوننا إلى اعتناق اللغة الأجنبية بديلا عن العربية، إن اللغة العربية في بلادنا كالماء والهواء ومن يطلب منا التّخلي عنها فهو كمن يطلب منا أن نتوقف عن التّنفس ولا أدخل في الجواب وإنما أترك الأمر للمرحوم علال الفاسي يجيب بقوله:

إلى مَتَى لُغَةُ القُرآنِ تُضطَهدُ ويُبِيحُ حَمَاهَا الأَهلُ والوَلَدُ[2]

ثانيا: أدعو القراء والباحثين إلى حمل المصطلح العربي والدفاع عنه وتكراره واستخدامه، وفي هذا الطرح أذكر ما أورده المهندس السوري فداء ياسر الجندي[3] يقول: «عندما وصل الاختراع الذي نسميه "سيارة" إلى البلاد العربية أواخر القرن قبل الماضي، ولم تكن المجامع اللغوية العربية أُسِست بعد (تأسيس المجمع العلمي الأول في دمشق عام 1919) اضطر الناس لاستخدام اللفظ الأجنبي "أتوموبيل" كاسم هذا الاختراع أخذاً من الكلمة الإنجليزية Automobile وانتشر هذا اللفظ وشاع، حتّى قيَّظ الله له أحدَ الغيورين على لغة الضاد هو الدكتور أحمد

زكي عميد كلية اللغة العربية في جامعة القاهرة أنذاك، فوضع كلمة "السيّارة" كبديل عن كلمة "أتوموبيل" وراحت الكلمتان تصطرعان على ألسنة الناس، حتى اندثرت الكلمة الدخيلة وبادت، وانتشرت الكلمة العربية وسادت»[4].

وتأسيًا بهذه الوقيعة التاريخية فقد آن الأوان أن يشمر حماة العربية على سواعدهم ويدخلوا معترك هذا الصراع بين ما هو أصيل يطابق لغتنا نطقا وتركيبا وما هو أجنبي تنفر منه الآذان والطباع.

ومثال هذه الوقيعة اليوم نجد مصطلح Ordinateur ومصطلح Internet تتداولهما الألسنة كثيرا في حين أوجد اللغويون مصطلح حاسوب وهو مصطلح عربي على وزن فاعول للدلالة على المبالغة وهو من أوزان اسم الآلة المطابق لطبيعة اللغة العربية الصرفية. ويبدو أن مصطلح حاسوب بدأ يسود ويشيع في مدارسنا وجامعاتنا وأسواقنا، وليس هناك أدنى شكّ في أن الغلبة في هذا الصراع ستكون للمصطلح العربي والحال نفسه مع مصطلح أنترنيت الذي أوجد له العلماء بالعربية مصطلح الشابك على وزن فاعل لأنه يقوم بعملية تشبيك المعلومات وهي ترجمة صحيحة توافق كلمة Internet الأجنبية في الدلالة.

والواضح أن المصطلح العربي يطاوع اللّسان فتسهل نسبته واشتقاقه فنقول: الشابكية، التشابك، شابكه...، بينما يعسر قولنا أنترننة اللغة، والأنترناتية الخ... ونقول حوسبة اللغة، واللسانيات الحاسوبية، وبذلك نجد المصطلح العربي أدق وأليق.

4- الغيرة على العربية عامل آخر يحافظ عليها: إن العديد من شعوب العالم الحية تتمتع بالغيرة على لغاتها فالقانون الفرنسي صارم جدّاً ويعاقب كل من يستخدم كلمة غير فرنسية، وأسس الألمان نادي الحفاظ على اللغة الألمانية برئاسة الأستاذ دولتر كرايمر الذي قال: «إن ظاهرة تطعيم الكلام بعبارات أو كلمات إنجليزية هي ظاهرة استعمارية تمس كرامة اللغة الألمانية»[5]. فماذا نقول نحن أبناء العربية المجيدة، وهل لنا عذر، وقد أصبحنا ندعي أنّ من يريد ولوج البحث العلمي عليه أن يدخله معتمداً على الإنجليزية لأنها لغة العلم، وكأن العربية ليست لغة علم «إن الأمة التي تهمل لغتها أمة تحتقر نفسها وتفرض التبعية الثقافية على نفسها»[6].

5- لا تقطعوا رأس العربية في التعليم العالي: إن الطريقة التي يتعامل بها القائمون على التعليم العالي وصناع السّياسات التّعليمية في بلدنا فيها من العجب ما يجعل المرء يحتار في طريقة تسيير المسار العلمي للطالب الجزائري، فطلابنا الناجحون في البكالوريا يجبرون على تعلم المواد العلمية والتقنية باللغة الفرنسية علمًا أن تكوينهم تم بالعربية، وبذلك تحدث لهم القطيعة بلغة آبائهم ودينهم، وقطعوا صلة العلم باللغة العربية، كان عليهم أن يعربوا العلوم الحديثة وهو أمر ليس بالعسير فالعديد من الدول العربية قامت بذلك وهي تدرس الطب بالعربية والعلوم التقنية بالعربية وما قدمته المجامع اللغوية العربية في مجال ترجمة المصطلح العلمي وتعريبه كفيل بغلق هذا الادعاء الذي يتستر وراءه البعض، وإن الشيء الذي ينقص في هذه العملية هو الإرادة الصادقة وصدق العزيمة.

إن شعوب العالم لا تسلك هذا المسلك القائم في بلدنا فأمم الأرض أدركت هذه الوضعية وراحت تنقل العلوم إلى لغاتها القومية فدولة السويد على قلة عدد سكانها فرضت تعليم جميع العلوم بلغتها وما سمعنا أن الصين أو الهند أو إيران أو كوريا أو إسبانيا أو اليابان أو غيرها من جامعات العالم تعلم طلابها بغير لغاتها ولم نجد هذا السلوك الغريب والبدعة العجيبة إلا في العالم العربي وقد أكدت الأبحاث الاجتماعية والنفسية أن المعرفة لا يتم استيعابها جيداً إلا إن قدمت باللغة الأم، ولا يمكن إحداث بحث علمي ناجح إلا إذا تم باللغة الأصلية، ذلك أن الصلة وثيقة بين الثقافة الأصلية وتحقيق أي نمو اقتصادي أو اجتماعي أو علمي.

6- تطوير مناهج وطرائق تعليمية العربية: إن الطريق الطبيعي في تعليم اللغة العربية تتقاسمه العديد من الجهات تتقدمها المدرسة بجميع أطوارها بالإضافة إلى الأسرة والمحيط الإعلامي بجميع أنواعه، وتبذل الأمم الحية جهودا كبيرة في تعليم لغاتها لأبنائها ولغير أبنائها فتلجأ إلى استخدام شتّى الأساليب والطرائق الحديثة أفلاما وجرائد وإذاعات ومخابر لغوية وسلاسل كتب ميَّسرة للطالب وإرشادات وتوجيهات للمعلمين وتنفق أموالا في ذلك، كل ذلك حتى تمدَّ من الرقعة الجغرافية

للغاتها ومن جهة أخرى يدل هذا الاهتمام باللغة على حرص هذه الأمم لنشر ثقافاتها وتعريف العالم بحضاراتها لأن في ذلك تحقيق لمكاسب معنوية ومادية.

ويمثل التعليم بجميع أطواره ركيزة تعليم العربية لذلك غدا من المؤكد الاهتمام أكثر بتطوير مناهج تعليمها وطرائق تلقينها للناشئة، فلا بد من تنظيم حال المدرسة معلمين، وكتبا وطرائق وتقييمًا وتسييرًا «فعندما يعمد مدرسو جميع المواد إلى التحدث باللغة الفصحى والشرح بها، وعندما ينشرون في أجواء المدرسة المناشط اللغوية من جرائد ومجلات ومسرح وقصص باللغة الفصحى، وعندما يتم إقامة اللقاءات والمنافسات الأدبية بالفصحى فإن ذلك يشكل عاملا مساهماً في النهوض باللغة»[7]. ولكي يقوم معلمو العربية بهذه المهمة على أكمل وجه عليهم أن يتقنوا العربية ومن هنا وجب إجراء تكوين لهم حتى تتحقق لديهم ملكة اللغة، وملكة تعليم اللغة واكتساب القدر الكافي من المعارف الخاصة بمضمون المناهج التربوية.

إن تبنّي المناهج الغيرية كلية دون مراعاة لقيم المجتمع الجزائري وعادته وتقاليده وأعرافه وقناعات شعبه الثقافية من شأنه أن ينفر أبناءنا من طرائق التعليم ومن المعارف التي يراد تقديمها لهم، ولنا في تصرفات أبنائنا ما يؤكد ذلك ولننظر إلى دفاتر الطلبة الممزقة في الشوارع بعد انتهاء الامتحان آخر السنة، لقد أنشأت المنظومة التعليمية جيلا يتوخّى السّهولة ويهرب إلى الأبسط وينفر من كل ما فيه جهد ويتفرغ لتضييع وقته في التفاهات.

7- **أخطار التراكم الثقافي:** لقد غدا التراكم الثقافي وكثافة المعارف من ميزة منظوماتنا التربوية وأصبح حشو أذهان أبنائنا بالمعلومات القديمة والحديثة والمحلية والأجنبية صفتنا المميزة نقول لأبنائنا أشياء كثيرة ولا نضيف شيئا جديدا إليهم وجعلناهم يجترون ويمضغون ويلوكون وفي النهاية لم نحصل على المواطن الجزائري المثقف السّوي الذي ينشد القيم الخلقية ويقدس العمل ويعرف حدوده ويقدر حريات الغير.

إن منظومتنا أنتجت جيلا يتباهى بالألقاب ويحمل شهادات تلمع عليها الأسماء ويكدس الكتب المجلدة في الخزائن تتزين بها الدُّور والجدران.

وعليه فإذا أردنا ولوج عالم التقدم والتحضر وفهم الحياة علينا أن ننتقل إلى دائرة الوعي بما يجري في الحياة من حولنا وما يحدث في بيئتنا البشرية وحياتنا الإنسانية.

8- الخلاصة: إن ثمة جهودا ينبغي أن تبذل في مختلف جوانب الحياة اليومية للغة العربية حتى نتمكن من ترقية استعمالها وحتى تكون قادرة على أداء وظيفتها؛ فهي وسيلة الفرد لقضاء حاجاته وللتفاهم مع بني جنسه وللتعبير عن عواطفه ومشاعره وأفكاره، ونقل تجربته إلى الآخرين والاستفادة من تجارب الآخرين وهي الوسيلة التي تنقل التراث من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل وإن النهوض بها هي مسؤولية جماعية تتولاها الأمة بجميع مكوناتها وعلى الجميع أن يسلك السبل الناجعة في معالجة جوانب الضعف الذي تعاني منه اللغة العربية. ونأمل أن يكون غدنا أفضل من يومنا والله من وراء القصد.

الهوامش:

1- علال الفاسي، الديوان، ص48.

2- فداء ياسر الجندي من مواليد دمشق 1959 له إجازة في الهندسة المدنية من جامعة دمشق 1982، وإجازة في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية 1996، ودبلوم في الترجمة من الجامعة الأمريكية بالشارقة 1999، له اجتهادات مثمرة في حوسبة اللغة العربية. المرجع: كتابه العرب والعربية في عصر الثورة الحاسوبية، دار الفكر، دمشق، ص (الغلاف من الداخل).

3- فداء ياسر الجندي، العرب والعربية في عصر الثورة الحاسوبية، دار الفكر، دمشق، ط1 ص 114.

4- نفسه، ص 122.

5- مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، ص 71.

6- صحيفة الأهرام القاهرية، 2012/06/28.

7- محمد السيد، في قضايا اللغة التربوية، وكالة المطبوعات الجامعية، الكويت ص 61.

الظاهرة الإعرابية السقيمة وأسبابها في المدرسة الجزائرية
– مرحلة التعليم المتوسط أنموذجا–

أ. سميرة جداين
جامعة تلمسان

لا شك أنّ الإعراب من الموضوعات التي يُشغل بها الطالب بصورة أو بأخرى في مراحل دراسته المختلفة، الابتدائية والإعدادية والثانوية، ولا يكاد يخلص منه في دراسته اللاّحقة سواء على مستوى الجامعة أو مستوى كليات المجتمع. ويقترن الإعراب عادة بدراسة النحو خاصة، ولكنّه يدخل في دراسة العربية بصفة عامة، فهو يدخل في درس القراءة كما يدخل في درس الإنشاء، وفي كلّ موقع يحسّ فيه المدرّس أنّه قد يؤدّي فيه فائدة للطالب.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، يبقى الإعراب من الموضوعات التي يضيق بها الطالب ذرعا، ويسيء بها ظنا لسبب بسيط هو أنّه لا يفهم للإعراب كنها ولا يتبيّن له غاية ولا يعرف له فائدة، وإن هي إلاّ ألفاظ يردّدها وعبارات يكرّرها وأقوال يستظهرها دون أن يعلم الغاية من ذلك كلّه، ولا شكّ أنّ هذا هو سرّ شقاء الطلبة بالإعراب وتذمّرهم منه وإعراضهم عنه ممارسة.

وأكيد أنّ الأسباب التي جعلت الطلبة يتذمّرون من الإعراب ويبتعدون عنه كثيرة، ولعلّ أهمّها هو جهلهم لفائدته، فلو عرف الطالب معنى الإعراب وعلاقته بعلم النحو والأهداف المتوخاة منه والفوائد المرتجاة من ممارسته، لما واجه كلّ هذه العقبات التي يواجهها، ولما شكا من الصعوبات التي تعترض طريقه في متابعته له وإقباله عليه، وهنا يجب أن نطرح سؤالا مهما جدا وهو: ما الإعراب ؟

لقد عرّف النحاة الإعراب من ناحيتين: أي لغة واصطلاحا وسأقتصر على نموذج من هذه التعريفات حتى لا أطيل.

1)- <u>تعريف الإعراب:</u> أ) <u>لغة:</u> قال الأزهري هو التعريب، وهو الإبانة يُقال: أعرب عنه لسانه وعرب أي أبان وأفصح وأعرب عن الرجل بيَّن عنه وعرب عنه تكلّم بحجته.[1] ويقال أعرب عما في ضميرك أي أبن، ومن هذا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام: أعرب.[2]

<u>ب) اصطلاحا:</u> الإعراب عند النحويين هو اختلاف آخر الكلمة لاختلاف العامل فيها لفظا أو تقديرا ويدخل في هذا الإعراب الاسم الصحيح والمعتل فالمقصور يقدر على ألفه الإعراب كاللفظ وليس كذلك آخر المبني فإنّ آخره إذا كان ألفا لا تقدر عليه حركة إلا أن يكون مما يستحق البناء على الحركة. [3]

وقال ابن هشام: الإعراب أثر ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل في آخر الكلمة وأنواعه أربعة: رفع ونصب في اسم وفعل، نحو: «زيد يقوم، وإنّ زيدا لن يقوم،» وجرٌّ في اسم نحو: «لزيدٍ» وجزمٌ في فعل نحو: «لم يقمْ»، ولهذه الأنواع الأربعة علاماتٌ أصولٌ وهي الضمة للرفع، والفتحة للنصب، والكسرة للجر، وحذف الحركة للجزم، وعلامات فروع عن هذه العلامات.[4]

2)- <u>وظيفة الإعراب ودوره في المنطوق والمكتوب</u>: من المؤكد أنّ للإعراب وظائفا هامة يؤديها في اللغة العربية وقد ذكر النحاة القدامى بعض هذه الوظائف ومنها ما يأتي:

أ)- إنّ الإعراب فارق بين المعاني العارضة كالفاعلية والمفعولية والتعجب والنفي والاستفهام[5] نحو: ما أحسنَ زيدا ! وما أحسن زيدٌ وما أحسنُ زيدٍ ؟ فتغير الحركات هنا هو الذي أدى إلى وجود فارق بين المعاني؛ وإذا ثبت أنّ الإعراب هو فارق بين المعاني فالفرق الحاصل عن الفارق يعرف تارة بالعقل كمعرفة أنّ الاثنين أكثر من الواحد **وأقلّ من** الثلاثة هذا معلوم بالعقل من غير لفظ يدلّ عليه وتارة يعرف بالحس من السمع والبصر واللمس والذوق والشم فأنت تفرق بين زيدٍ

وعمرو في التسمية بما تسمعه من اللفظين، وتفرّق بين الأحمر والأبيض بحاسة البصر وبين الحار والبارد والناعم والخشن باللمس وبين الحلو والمر بالذوق وبين الريح الطيبة والخبيثة بالشم والإعراب من قبيل ما يعرف بحاسة السمع ألا ترى أنّك إذا قلت لإنسانٍ فرِّق بين الفاعل والمفعول والمضاف إليه في نحو قولك: "ضرب زيدٌ غلامَ عمرو "فإنّه إذا ضم أولا وفتح ثانيا وكسر ثالثا حصل لك الفرق بألفاظه لا من طريق المعنى فإنّك أنت قد تدرك هذا المعنى بغير لفظ فدل أنّ الإعراب هو لفظ الحركة[6]، ويرى أبو القاسم الزجاجي (377هـ) أنّ الحركات الإعرابية دوال على معانيها)، حيث «أنّ الأسماء لمّا كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلا ومفعولا ومضافا ومضافة إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه المعاني بل كانت مشتركة، جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني»[7]، ويرى الزجاجي أنّنا إذا قلنا: ضرب زيدٌ عمرًا، دللنا برفع زيد على أنّ الفعل له، ودللنا بنصب عمرو على أنّ الفعل واقع به، وإذا قلنا ضُرِبَ زيدٌ بالبناء للمجهول دللنا بتغيير أول الفعل من النصب إلى الضم، وبكسر عينه بدل فتحها على أنّ الفعل ما لم يسم فاعله، وأنّ المفعول قد ناب منابه....[8]، وما نستنتجه من كلام الزجاجي **أنّ الإعراب** لا يدخل عبثا على العربية ؛ فحركاته تدخل لأداء وظيفة أساسية في اللغة إذ بها يتضح المعنى ويظهر وعن طريقها نعرف الصلة النحوية بين الكلمة والكلمة في الجملة الواحدة بحسب المعنى المراد.

ب)- قال ابن جني: الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنّك إذا سمعت: "أكرم سعيد أباه"، و"شكر سعيدا أبوه "علمتَ برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجا واحدا لأُستبهم أحدهما من صاحبه. فإن قلت: فقد تقول: "ضرب يحيى بشرى"، فلا تجد هناك إعرابا فاصلا وكذلك نحوه.[9]

ج)- اختصار الدلالة على المعاني الإعرابية المختلفة بأصغر رمز، وأوضح صورة وذلك باستخدام علامات الإعراب، فلو أردنا أن ندلّ من دون رموز

الإعراب على معنى الفاعلية ومعنى المفعولية في قولنا: أكرم الوالدُ ولدَهُ لاستعملنا ألفاظا كثيرة، كأن نقول: إنّ الوالد هو: فاعل الإكرام، وإنّ الولد هو الذي وقع عليه فعل الإكرام، وهذا الأسلوب فيه إسراف كلامي وزماني ينافي اللغة العربية التي تعتمد على الحذف والتقدير والاختصار والاختزال، وهنا تأتينا الرموز الصغيرة الرائعة (علامات الإعراب) لتقدّم لنا خدمة جليلة، عظيمة الأثر، قليلة الكلفة، فيكفي أن تضع ضمّة على كلمة الولد لتأخذ معنى الفاعلية، ويكفي أن تضع الفتحة على كلمة الولد لتأخذ معنى المفعولية، وهذا هو الإيجاز الكثير في الدلالة الواسعة. [10]

وبما أنّ الواجب يحتّم على كلّ مسلم أن يتعلّم اللسان الذي أنزل الله به القرآن حتى يفهم كتاب الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، إذ لا سبيل لفهمهما دون معرفة الإعراب وتمييز الخطأ من الصواب ؛ لأنّ الإعراب إنّما وُضع للفرق بين المعاني في نحو قولك :ما أحسن زيدا ! إذا تعجبت من حسنه وما أحسن زيدٌ. إذا نفيت إحسانه، وما أحسنُ زيدٍ؟ إذا استفهمت عن أحسن شيء ومنه.[11]

فلو ذهب **الإعراب** لاختلطت المعاني ولم يتميز بعضها من بعض، وتعذّر على المخاطب فهم ما أريد منه، فوجب لذلك فهم هذا العلم إذ هو أوكد أسباب الفهم، لذلك على كلّ مهتمّ باللغة العربية أن يعرفه ولا يجد غنىً عنه، فإنّه علم السلف الذي استنبطوا به الأحكام، وعرفوا به الحلال والحرام، لذلك لا يجوز أن يُفتيَ الناس في الفقه من كان عاريا من النحو، ومتى فعل ذلك أخطأ وأَثِمَ[12]، ويذكر ابن السراج الشنتريني في كتابه "تلقيح الألباب على فضائل الإعراب "أنّه رأى جماعة من الفقهاء المتقدّمين، الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين، قد تكلّموا في مسائل الفقه، فأخطأوا فيها وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولا لقلة محفوظاتهم، ولكن لضَعْفِهِم في هذا العلم، وعدم استقلالهم به.[13] وهذا القاضي أبو يوسف رحمه الله على جلالته وبراعته في العلم، قد روي عنه أنّه دخل على الرشيد ذات يوم والكسائي عنده يمازحه، ويطارحه المسائل، فقال له أبو يوسف: هذا الكوفي قد استفرغك

وغلب عليك !، فقال الرشيد: يا أبا يوسف، إنّه ليأتيني بأشياء يستميل إليها قلبي فأقبل الكسائي على أبي يوسف، فقال يا أبا يوسف، هل لك في مسألة؟ قال فقه أو نحو؟ فقال فقه. فضحك الرشيد حتى فحص برجله، فقال: تلقي على أبي يوسف فقها؟ قال: نعم، قال: يا أبا يوسف، ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ قال إن دخلت الدار طَلَقَتْ، قال أخطأت يا أبا يوسف، فضحك الرشيد ثمّ قال كيف؟ قال إذا قال (أَنْ) فقد وجب الفعل وإذا قال(إِنْ) لم يجب، ولم يقع طلاق. قال: فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي[14].

وبالضد من هذا ما روي عن القاضي أبي عبيدة بن حربويه أنّ رجلا ادّعى مالا على رجلٍ بحضرته، فقال المدّعى عليه: مَالُهُ علَيَّ حَقٌّ (بضمّ اللام) فقال له القاضي أبو عبيدة: أتعرف الإعراب ؟ قال: نعم. قال: قم، قد ألزمت نفسك المال.

وقال ابن الأنباري: سمعت أحمد بن يحيا ثعلبا يقول: كان أحد الأئمة[15] يعيب النحو، ويقول :أوّل تعلّمه شغل وآخره بغي، والعالم به من يزدري الناس فقرأ يوما: إنّما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ، (بنصب العلماءَ)، فقيل له: كفرت من حيث تجعل اللهَ يخشى العلماءَ، فقال: والله لا طُعِنْتُ على علم يؤدي إلى معرفة هذا أبدا.

وقد ألّف المتأدّبون من الفقهاء مسائل يكثر تعدادها من هذا الفن، وأفتوا فيها على مقدار مبلغهم من هذا العلم، وكثير منها يحتاج إلى تنقيح وتصحيح، وأكثر الخلافات في الأديان إنّما منشأها من تفاوت الدّرجات في علم اللسان. [16]

3)- العلاقة بين الإعراب والمعنى: لقد أجمع النحاة على أنّ الإعراب فرع المعنى وأنّ الصلة بينهما وثيقة من جهة القراءات القرآنية إذ أنّ تعدّدها ليس إرهاقا لكاهل طالب العلم وإنّما لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وتَعَدُّدُها تعدّد للأحكام المستنبطة حسب الوقائع والنوازل وهذا مثال عن ذلك:[17] أ)- قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [18] قرئ بالرفع والنصب والجر، فمن **جرّ** وهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على (بأكواب) وهو محمول على المعنى لأنّ

المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور، قاله الزجاج وجاز أن يكون معطوفا على (جنات) أي هم في جنات النعيم وفي (حور) على تقدير حذف المضاف كأنّه قال وفي معاشرة حور.

قال الفراء: الجر على الاتباع في اللفظ وإن اختلفا في المعنى لأنّ (الحور) لا يُطاف بهنّ قال الشاعر:

إذَا ما الغانيا تُ برزَنَ يومًا وَزَجَّجْنَ الحَوَاجبَ والعيُونَا

والعين لا تُزجج وإنّما تُكحّل، وقال قطرب: وهو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى قال: ولا يُنكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذّة.

– ومن **نصب** وهو الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر الثقفي وكذلك هو في مصحف أبيّ بن كعب فهو على تقدير إضمار فعل كأنّه قال: ويزوجون حورا عينا والحمل في النصب على المعنى أيضا حسن لأنّ معنى يُطاف عليهم به يعطونه.

– ومَنْ رَفَعَ وهم الجمهور وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم فعلى معنى (وعندهم حور عين) لأنّه لا يُطاف عليهم بالحور، وقال الكسائي: ومن قال (وحور عين) بالرفع وعلّل بأنّه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك في فاكهة ولحم لأنّ ذلك لا يُطاف به وليس يُطاف إلاّ بالخمر وحدها [19].

وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولا على المعنى لأنّ المعنى لهم أكواب ولهم حور عين، وجاز أن يكون معطوفا على (ثلة) و(ثلة)، ابتداء وخبره (على سرر موضونة)، وكذلك (حور عين) وابتداء بالنكرة لتخصيصها بالصفة كأمثال أي مثل: **(أمثالِ اللؤلؤ المكنونِ)** أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤا[20].

– وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللهُ فيَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويُعذِّبُ مَن يشاءُ[21]﴾ البقرة 284، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي (فيغفر ويعذب) بالجزم عطف على الجواب وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع فيهما على القطع أي: فهو يغفر ويعذب. ورُوي عن ابن عباس والأعرج وأبي العالية وعاصم الجحدري بالنصب فيهما على إضمار (أن)وحقيقته أنّه عطف على المعنى كما في قوله، (فَيُضاعِفَهُ لَهُ)–البقرة 245– والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة [22]، ونظرا لضيق المجال سأكتفي بما ذكرت ومن أراد الزيادة فسيجد ضالته في كتب القراءات وكتب التفسير التي تحتوي على فيض من الأسرار التي تبين لنا سبب تعدّد القراءات.

4–) العلاقة بين الإعراب والنحو: إنّ الإعراب ما هو إلاّ فصل من فصول النحو العربي وليس هو النحو العربي كلّه ؛ والإعراب هو الحجر الأساس الذي ينبني عليه النحو العربي، وكلا العلمين أساسي في لغتنا العربية فإذا كانت الفائدة المرجوة من النحو هي: إقامة المعاني على حقيقتها، فإنّ ذلك لا يتأتى إلاّ بتوفية تلك المعاني حقّها من الإعراب، ونطقها نطقا سليما غير مُحرّف ولا مغيّر.

5–): أسباب الظاهرة الإعرابية السقيمة لدى تلاميذ التعليم المتوسط:

الواقع أنّ هناك العديد من العوامل التي قد تكون وراء الضعف الذي يعاني منه التلاميذ في مادة النحو وخاصة **الإعراب**، ومن هذه العوامل ما يرجع إلى المتعلّم نفسه، ومنها ما يرجع إلى المادة العلمية، ومنها ما يرجع إلى المعلّم، فبعض المدرسين يبالغون في الاهتمام بتفاصيل الإعراب والإثقال بذلك على تلاميذهم وهذا خطأ فادح، وهم يظنون أنّهم بهذا يساعدون تلاميذهم على التمكن من لغتهم والدَّفْعِ بهم إلى إجادة البيان والتعبير[23]، بالإضافة إلى قصور آداء بعض المدرسين وعدم جديتهم في تيسير مادة النحو، فقد يبدأ المعلم في درسه دون تمهيد أو مقدمة مناسبة، ولا أمثلة من عنده لتُستنتَج منها القاعدة، ولا تنظيم للسبورة ولا تشويق في

حديثه وأسلوب تدريسه، ولا يكترث بتصحيح أخطاء التلاميذ، إضافة إلى عدم تمكن كثير من الأساتذة من قواعد النحو والصرف مما يجعلهم يُدَرِّسون الخطأ للتلاميذ بدلا من الصواب.

– الفكرة التي أصبحت تلازم عقل التلميذ والتي تقول بأنّ الإعراب صعب وفي نفس الوقت لا نفع منه فلماذا يتعب نفسه في فهمه وهذا ما أدى إلى عزوف الكثير من التلاميذ عن دراسته. [24]

– إبعاد دراسة القواعد النحوية عن النصوص الأدبية، واعتمادها على أمثلة مبتورة وجمل مفتعلة، مما أدى إلى إحساس المتعلّمين بأنّ النحو عامة والإعراب بصفة خاصة لا يُنتفَعُ به في الحياة، ولا يُستخدم في اللغة المتداولة، بل هو مجرّد علم يُدرس لذاته، أو مجرّد ظاهرة تهمّ فقط النحو دون ربطه ببقية فروع اللغة العربية، وهنا يحسّ التلميذ أنّ دراسته لهذا العلم لا توصله إلى أي هدف كما تفعل المواد الأخرى.[25]

– فقدان الدافع القوي لدى التلميذ لتعلم النحو حيث يقضي الفرد مآربه ويتحدّث إلى الناس ويتحدّثون إليه ويفهمهم دون الحاجة إلى دراسة هذا العلم.

– كثرة القواعد النحوية والصرفية وتشعبها وكثرة تفصيلاتها بصورة لا تساعد على تثبيت هذه المفاهيم في أذهان الطلبة بل تجعلهم يضيقون بها.

– المقررات الدراسية التي لا تُعنى بتتابع أبواب النحو وقواعده وتعميق مفاهيمه تعميقا متدرّجا، بل إنّ الكثير منها لا يهتمّ بالتفصيلات المهمة التي توضح القاعدة وتساعد على فهمها. [26]

– يرى بعض الأساتذة والباحثين أنّ صعوبة قواعد اللغة العربية لا تكمن في القواعد نفسها، وإنّما تعود إلى عدم مقدرة المعلّم والطرق التقليدية التي يعتمدها في تدريس القواعد، ففي معظم حالات نفور التلاميذ من الإعراب يكون السبب عدم مهارة المعلم في اتباع الطريقة الناجحة لتوصيل تلك القواعد إلى أذهان التلاميذ.[27]

– إنّ أكثر المعربين من التلاميذ، بل من المدرّسيين أيضا لا يعرفون لماذا يعربون، ولا يكادون يتبيّنون المقاصد ولا الفوائد من هذه العملية اللغوية التي يطلق عليها اسم الإعراب، فهم يتناقلون عبارات مكرّرة في إعراب ما يواجههم من نصوص، دون إيلاء هذه العبارات شيئا من التأمل أو إمعان النظر. ولذلك لا بدع أن يرتكبوا الخطأ والوَهْمَ، ويخالفون قواعد العربية، وكأنّ الإعراب بالنسبة لهم مجرد وظيفة عابرة لا تستحق منهم أكثر من حفظ ما يلقى عليهم من العبارات المضطربة والأقاويل المتهافتة والتعريفات القاصرة، وكيف لا يكون الأمر كذلك ومعظم الطلبة في مختلف مستوياتهم الدراسية من الابتدائي حتى الجامعي لم يعرِّفهم مدرسوهم بالمعنى الدقيق للإعراب ولم يحددوا لهم علاقته بعلم النحو، ولم يرسموا لهم أهدافه كما فاتهم أن يبنوا مقاصده وفوائده، فبدون كلّ هذا لا يستطيع أحد من مدرّسي العربية أن يزعم أنّه يؤدي رسالة العربية، أو أنّه يقدّمها سهلة سائغة لأجيالنا الطالعة[28]، وخير دليل على خطورة مشكلة الإعراب في مدارسنا هو ما يظهر على طلبتنا عندما يصلون إلى المرحلة الجامعية ويتخصّصون في علوم اللغة العربية فتجد معظمهم لا يستطيعون تفسير معنى "جملة لا محلّ لها من الإعراب" لأنّها ابتدائية، أو جملة لا محلّ لها من الإعراب لأنّها صلة الموصول[29]. فهم يردّدون هاتين العبارتين بطريقة أو بأخرى، ولكنّهم إذا سُئلوا عن تفسير ذلك غلب عليهم الحرج، وسيطرت عليهم الحيرة.[30] وما يتضح جليا هو أنّ التلاميذ والطلبة الذين يتحصّلون على علامات عالية في الإعراب، يحفظون عبارات الإعراب حفظا لفظيا ببغاويا خاليا من الفهم أو التحليل أو التعليل.

– صعوبة النحو فهو يحتاج إلى جهد عقلي شاق وتعلّمه يقوم على الموازنة والتعليل المنطقي للغة وأيضا التركيز والتحليل ودقة الملاحظة، **فمثلا:** (عندما كُلِّفَ قسم للسنة الأولى من التعليم المتوسط بإعراب الجملة الآتية: "**أُنجزَ الدرسُ**" أعربها بعض التلاميذ هكذا: أُنجزَ: فعل مضارع مرفوع بالضمة، الدرسُ: مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره، علما أنني شكلت لهم الجملة ومع ذلك

يقول التلميذ عن الفتحة أنّها ضمَّة، وعن الضمة أنّها فتحة، وفي درس **القراءة** يظهر للأستاذ من خلال الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها التلاميذ أثناء قراءتهم للنصوص تجاهلهم للحركات الإعرابية وهذا ما يوقعهم في الإعراب الخاطئ فبعض التلاميذ مثلا: قرأ الفعل **(يُظَنُّ)**، هكذا **(يَظُنُّ)**، و(إِقْتَسَمُوا ما **في الكيسَ)** بالفتح بَدَلَ الكسر، (ما كدت **أن أصلُ)**، (لم يكد يتناول **إفطارُه)**، (جاء ليقترض منه بعضَ **المالَ)**، (قال ر**سولَ** الله) بدل (رسولُ الله)، وكذلك قلة ثروة التلميذ اللفظية ممّا يسبّب لديه عجزا عن استيعاب بعض المصطلحات النحوية (الإعرابية) **(فمثلا** في درس الفعل المضارع المنصوب المقرّر في برنامج السنة الأولى متوسط عندما يصل الأستاذ إلى الحالات التي يُنصب فيها الفعل بـــ"**أن المضمرة**"، فإنّ هذا المصطلح (مضمرة) يدهش التلاميذ كثيرا وحتى النجباء منهم، **فمثلا:** إحدى التلميذات الممتازات اقترحت علي أثناء الدرس أن نقول عند إعراب الفعل المضارع المنصوب بـــ"أن" المضمرة بعد لام التعليل("**أن**" **الموجودة أو المخفية بدلا من** أن نقول المضمرة ليستطيع زملاؤها تذكرها جيدا بعد أن يفهموا معناها) كما يحتاج الإعراب إلى أساليب دقيقة في التعبير يعجز عن إدراكها الطالب ولاسيما في مراحله التعلمية الأولى، (الابتدائي والمتوسط).

– الممارسات التدريسية الخاطئة في تدريس مادة النحو ككلّ ومنها الإعراب ومن ذلك اللجوء إلى طرق التدريس القديمة، وتكريس الجهود على استظهار وحفظ القواعد من قبل الطلاب، وربما الاكتفاء بقراءة مادة الكتاب قراءة صورية من قبل المدرس أو التلميذ؛ (فتجد بعض الأساتذة يكتفون بالقاعدة المقترحة في كتاب القراءة فلا يكلّفون أنفسهم عناء البحث عن أي معلومة أخرى تسهل عليهم شرح الدرس وفي نفس الوقت تجعل التلميذ يستوعب المعلومة دون خوف منها).

– تركيز الأستاذ على التلاميذ النجباء سواء في حصة القواعد أو في الحصة التطبيقية **مع إغفاله باقي التلاميذ.**

6)- <u>أساليب علاج الظاهرة الإعرابية السقيمة لدى التلاميذ</u>: لا يخفى على أحد أنّ التلميذ إذا لم يكن ملما بقواعد العربية التي يحتاجها في مستواه الدراسي فهو سيخطئ لا محالة في **الإعراب** المقرّر عليه في السنة التي يدرس فيها، وكما نعلم فالإعراب هو عبارة عن قواعد على وجه العموم اُستنبطت من كلام العرب وفق نصوص موثوقة، لذلك أصبح من اللازم أن يُختار من القواعد النحوية ماله أهمية وظيفية وفائدة عملية في الكلام مما ينتفع به التلاميذ في تأليف الجمل وضبط مفرداتها ضبطا صحيحا، والبعد عن التفصيلات التي لا فائدة منها، وقد أثبتت الدراسات بعد استقصاء الموضوعات والأساليب النحوية التي يتكرّر استخدامها في الكتب والمؤلفات والصحف اليومية أنّ هناك موضوعات يتكرّر استخدامها بكثرة منها: حروف الجر والضمائر والمعرب والمبني من الأسماء والأفعال وموضوعات يندر استخدامها مثل: التعجب وحروف العرض والتحضيض، والمشبهات بليس وموضوعات لم ترد أصلا ومنها (إعمال المشتقات والمصادر، وحذف المبتدأ أو الخبر وجوبا وجوازا، والأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل. ..)[31]

- التسلسل في تناول موضوعات هذه القواعد النحوية بما فيها الإعراب بحيث يتم البدأ بالموضوعات السهلة، مع بناء بعضها على ما سبق للطالب تعلّمه.

- البدأ بالموضوعات الأكثر أهمية، وهي الموضوعات التي يكثر استخدامها في لغة التلميذ.

- الابتعاد بالتلميذ عن حفظ القواعد النحوية حفظا شكليا غير واع (مثلما رأينا مع أنْ المضمرة)، وأن تتاح للطالب فرص التطبيق الكثيرة عليها حتى يصل إلى درجة الإتقان.

- أن يُوجَّه التلميذ إلى توظيف ما تعلَّمه من قواعد في لغته داخل المدرسة وخارجها.

– التأكيد على ضرورة اتّباع أسلوب مشاركة التلميذ في درس القواعد حيث أنّ أسلوب التلقين أو الإلقاء مرفوض تماما في هذا الدرس، لأنّ ما يصل إليه التلميذ بنفسه أدعى إلى البقاء في ذاكرته مما يقدّمه له المدرس.

– كما نوصي المدرّس أن يُدخل بعض المرح والدعابة على دروس القواعد حتى يُخفّف من جفاف هذه المادة فمثلا: (يستطيع المدرس وهو يشرح درس الفعل المضارع المجزوم المعتل الآخر(الناقص) أن يخبر التلاميذ أنّ حروف الجزم عدوة لدودة لحروف العلة، فبمجرد أن تدخل حروف الجزم تفر حروف العلة من الفعل وهذا الشرح حسب تجربتي الشخصية مع التلاميذ ينال إعجابهم بحيث يضحكون وفي الوقت نفسه يستوعبون القاعدة بسرعة، وتَشْبيهُ العلامة المقدرة بالشخص الموجود في القسم ولكنّه مختبئ ولا يظهر. ..) والأمثلة كثيرة وثبتت فاعليتها مع التلاميذ.

– توجيه المدرسين إلى العناية بأسلوب الكلام في التدريس وسلامته من الأخطاء اللغوية والنحوية لِما لمحاكاة التلاميذ لهم من أثر كبير في تقويم ألسنتهم مع ضرورة التحدث مع التلميذ ببطىء والنزول إلى مستواه كي لا تبقى في نفسه رهبة ولا نفرة من القواعد النحوية التي يقوم على أساسها الإعراب.

– توظيف التقنيات الحديثة في تدريس المهارات اللغوية في هذه المرحلة ولا سيما الحاسب الآلي والبرامج الإلكترونية التي تتضمّن ألعابا لغوية متنوعة وذلك لخلق مواقف تعليمية وتعلمية محبّبة وجذابة.

– الانتقاء فيما يُقدَّم للمتعلم من قواعد اللغة بحيث يتلاءم مع قدرته ومستواه الإدراكي.

– التركيز على تصحيح الأخطاء التي يقع فيها التلاميذ في تركيب الجمل أو في ضبط الكلمات بالشكل المناسب وخاصة تلك التي تؤثر في المعنى.

– تدريب التلاميذ على الاستعمال الصحيح للغة في مواقف تعلّمية حيوية لا افتعال فيها ولا تصنع، كاستثمار الإذاعة المدرسية والحفلات الطلابية أو المناسبات العامة والمواقف الاجتماعية المتنوعة.

– تحديد القَدر الذي يحتاج التلاميذ إلى تعلّمه من قواعد اللغة العربية ويمكن أن يتم ذلك من خلال تتبع الأخطاء اللغوية التي يقعون فيها، والصعوبات التي يواجهونها في ذلك، وتقرير القواعد النحوية على هذا الأساس من ناحيتي النوع والكم أو بالاعتماد على تحليل الإنتاج اللغوي للتلاميذ، وتحديد القواعد النحوية التي يكثر شيوعها في أساليبهم، هذا إلى جانب تحديد أساسيات المادة واختيار ما يساعد منها التلاميذ على الاستعمال اللغوي الصحيح[32].

– ربط المادة اللغوية التي تُدرس من خلالها الظواهر النحوية بحاجات التلاميذ وميولهم واتجاهاتهم لجذبهم وإثارة دافعيتهم نحو تعلّم المادة بدلا من العبارات المبتورة والأمثلة المتناثرة.

– الاهتمام بالتدريبات اللغوية كمًا ونوعا لأنها أساس تكوين المهارات اللغوية.

– تهيئة البيئة المناسبة لنجاح تدريس النحو من خلال التزام المعلّم التحدث بلغة سليمة في دروس القواعد، وفي غيرها، وحثّ التلاميذ على الحديث بها ليغدوَ استخدام قواعد اللغة العربية عادات لسانية متأصلة لا تحتاج إلى معاناة في التذكر ولا تكون عاملا في اضطراب الكلام والتعثر.

– إنّ التلميذ يأتي من البيت بلغة مستعملة قد اكتسب نمطها واعتاد على طرق التعبير بها، ولا يمكن أن ننقله إلى نمط لغوي جديد له طرقه وأساليبه الخاصة إلاّ من خلال المواقف التي يُتاح له فيها فرص المحاكاة والاستعمال الشفهي والتحريري.

– ضرورة تسهيل بعض المسائل الإعرابية في مرحلة التعليم المتوسط: فإذا أخذنا على سبيل المثال السنة الأولى من التعليم المتوسط سنجد ضمن الدروس

المبرمجة لهم في قواعد اللغة العربية: **الفعل المضارع المرفوع**، وفي هذا الدرس يجب على الأستاذ أن يساعد التلاميذ على معرفة علامات رفع المضارع وهذه العلامات هي: **الضمة:** وتكون ظاهرة على آخره إذا كان فعلا صحيحا وفي هذه الحالة يكون الإعراب سهلا تقريبا لمعظم التلاميذ ولا يجدون مشكلة فيه، أما الحالة الثانية والتي تكون فيها الضمة مقدرة إذا كان الفعل معتل الآخر نحو، "يشكو" "يقضي"، فهنا يعاني التلميذ كثيرا حتى يستوعب هذا الإعراب فإذا قلنا **مثلا:** يشكو: فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدّرة على الواو لأنّه فعل معتل الآخر، ويقضي: فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء لأنّه معتل الآخر. فبهذا الإعراب يمكن للتلاميذ أن يفهموا المقصود بسرعة وبالتالي لا يجدون صعوبة في تذكره، أما إذا أردنا أن نعلّم التلميذ هذا الإعراب: يشكو: فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة منع من ظهورها الثقل، ويَهْوَى: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة منع من ظهورها التعذر، فهنا يبدأ التلميذ في الخلط بين الحالة التي يُمْنَعُ فيها ظهور الحركة للتعذر والحالة التي يمنع فيها ظهور الحركة للثقل، حتى مع التلاميذ الممتازين نجد مشكلا كبيرا، لذلك وجدنا أنّ الحلّ هو أن يكتفيَ التلميذ بقوله: المقدرة على آخره لأنّه فعل معتلّ الآخر، وهذا الإعراب أدخل الفرحة على قلوب التلاميذ وأسعدهم وبدا لهم أسهل وأبسط.

وأيضا في درس الفعل المضارع المنصوب: فإنّ ما يُرعب التلاميذ كما سبق وذكرت هو: "**أن المضمرة**": وعلينا كأساتذة ومعنيين بالأمر أن نقف عند رغبة التلاميذ ونتساهل معهم مبدئيا في هذا الإعراب حتى يصلوا إلى مستويات عليا تسمح لهم باستيعابه، وقد سبق وذكرت ما هو الإعراب الذي اقترحه بعض التلاميذ، فمثلا في الامتحان عندما أعطيت هذا الإعراب لقسمين "تُفتح النوافذ ليتجددَ الهواء" وطلبت منهم أن يعربوا "ليتجدَّدَ" فقسم متكون من خمسة وثلاثين تلميذا استطاع أربعة تلاميذ فقط أن يعربوا الفعل إعرابا صحيحا، أما قسم آخر متكون من سبعة وثلاثين تلميذا فلم يُوفّق ولا تلميذ في إعراب الكلمة.

7- <u>ملحقات العمل الميداني</u>: تقديم نموذج لبعض التطبيقات التي أعطيت للتلاميذ في القسم حول الإعراب (السنة الأولى والسنة الثانية) وكانت الأسئلة تقول أعرب ما تحته خط، وفيما يلي **بعض النماذج من أجوبة التلاميذ وقد حاولت أن أنقل الأجوبة كما هي دون زيادة أو نقصان:**

<u>السنة الأولى من التعليم المتوسط</u>: ــ <u>أُنجزَ الدرسُ</u>: <u>أُنْجِزَ</u>: فعل ماضي مبني للمجهول مبني على الفتح /فعل مضارع منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره وهو مبني للمجهول / فعل مضارع منصوب بالفتحة الظاهرة/فعل ماضي منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره / فعل ماضي منصوب /فعل مضارع مرفوع بالضمة / فعل ماضي مبني للمجهول وعلامة رفعه الفتحة الظاهرة على آخره / فعل ماضي مبني على الفتح.....

ــ <u>الدرسُ</u>: نائب فاعل مرفوع بالضمـــة /فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره/مفعول به مبني للمجهول وعلامة رفعه الفتحـــة ظ ع آ في محلّ رفع فاعل. / مفعول به مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره/مبتدأ مرفوع بالضمة / فعل مضارع مرفوع بالضمة /مفعول به منصوب بالضمة ظ ع آ / مفعول به منصوب وعلامة نصبه الضمة لأنّه نائب فاعل.....

ــ <u>يُتقَنُ العملُ</u>: <u>يُتقَنُ</u>: فعل مضارع مرفوع مبني للمجهول وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره./ فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره/ فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره/ فعل مضارع مبني للمجهول/فعل ماضي مبني للمجهول وهو مبني على الفتح /فعل مضارع مبني للمجهول وعلامة رفعه ؟؟/فاعل مرفوع بالضمة. ....

ــ <u>يَحْمِلُ المظليون بنَادقَهُمْ</u> على أكتافهم: **<u>المظليون</u>:** فاعل مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة / فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة /

فاعل مرفوع بالواو والنون لأنه من الأسماء الخمسة /فاعل مرفوع بالواو والنون لأنه جمع المذكر السالم وعلامة رفعه واو الجماعة/ فعل منصوب وعلامة نصبه الفتحة وهو جمع مذكر السالم / فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره /فعل مضارع مرفوع بالضمة، / فاعل منصـــوب وعلامة نصبه الفتحة ظ ع آ، لأنه جمع المذكر السالم /فاعل مرفوع وعلامة رفعه؟؟ لأنه جمع المذكر السالم /فعل مضارع منصوب وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة/ فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر السالم/فعل مضارع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة وواو الجماعة ضمير متصل في محل رفع فاعل /.....

ـــ **بنادقَهُمْ**: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره /مفعول به منصوب بالضمة الظاهرة /حرف جر// مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره و(هم) ضمير متصل في محل نصب مفعول به/. فاعل مرفوع وعلامة رفعه الفتحة المقدرة لأنه جمع المذكر السالم. / مفعول به مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، // بنادقَ: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف وهم: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه // فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره /مفعول به مجزوم/ بنادقَ: مفعـــول بـــه منصـــوب بالفتحة/هم: ضمير منفصل في محل نصب صفة/. .....

ـــ نَجَحَ التلميذانِ: التلميذانِ: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه فاعل مرفوع وعلامة رفعه الواو والنون لأنه جمع المذكر السالم / فعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره / فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى /فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف والنون /فاعل مرفوع وعلامة رفعه النون / فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف والنون لأنه جمع المذكر السالم / فاعل منصوب بالألف والنون /المفعول به

منصوب بالألف والنون لأنه من الأفعال الخمسة / فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة /فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره وهو مثنى /.....

ــ دَشَّنَ الوَالِي المشروعَ: الوالي: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة لأنّ حرفه الأخير حرف علة / فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الياء /فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الياء لأنه اسم منقوص/ فاعل مرفوع بالضمة المقدرة لأنه معتل الآخر / فاعل مرفوع بالألف المقدرة على آخره / فاعل مرفوع بالضمة المقدرة /مفعول به منصوب /فاعل مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره / فاعل مجرور /فاعل مرفوع بالضمة //فاعل مرفوع وعلامة رفعه الكسرة لأنه جمع المذكر السالم /فاعــل مرفوع وعلامة رفعه الياء وهو معتل الآخر / فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على آخره لأنه على الياء /فعل أمر /فاعل مرفوع وعلامة رفعه الياء لأنه من الأسماء الخمسة / فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره /فاعل مرفوع بالضمة /وبعض التلاميذ لم يجيبوا نهائيا.....

ــ نَشَأَ مُوسَى في قصرِ فرعون: مُوسَى: اسم منصوب بالفتح /فاعل مرفوع وعلامة رفعه الياء لأنه من الأسماء الخمسة / فعل منصوب وعلامة نصبه الفتحة ولأنه فعل ناقص / فعل ماضي مبني على الفتح /فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء فاعل مرفوع بالضمة المقدرة/فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف المقصورة لأنه معتل الآخر /فاعل مرفوع بالألف المقصورة وهو معتل الآخر/ فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة /مبتدأ منصوب وعلامة نصبه الألف المقصورة /فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف المقدرة على آخره /فاعل

منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره/ فاعل مرفوع بالضمة المقدرة لأنه اسم مقصور/فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الألف المقصورة. .....

ــ حَرَثَ الفَلاَّحُ أَرْضَهُ: أرضَه: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة /مفعول به منصوب بالفتحة/ مفعول به مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره // مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به // مفعول به مرفوع //صفة مرفوع بالضمة // أرضَ: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة على آخره وهو مضاف، والهاء ضمير متصل مبني على الرفع في محل جر مضاف إليه //مفعول به منصوب والهاء ضمير متصل في محل رفع فاعل /أرضَ: مفعول به منصوب بالفتحة والهاء ضمير متصل في محل نصب صفة/أرضَ: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف والهاء ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه.

السنة الثانية: لم يشقَ الناس هذا الشقاء: يشقَ: اسم مجزوم بلم وعلامة جزمه الفتحة الظاهرة على آخره/فعل مضارع مجزوم بـــ"لم "وعلامة جزمه الفتحة الظاهرة على آخره /فعل ماضي منصوب وعلامة نصبه حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر /فعل مضارع مجزوم بـــ "لم" وعلامة جزمه حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر "ناقص"/فعل مضارع منصوب وعلامة نصبه الفتحة /اسم مجزوم /فعل مضارع مجزوم بـــ "لم" وعلامة جزمه حذف حرف العلة / نائب مفعول مطلق منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره / خبر لم "منصوب وعلامة نصبه الفتحة ظ ع آ/اسم مجرور بـــ "لم" وعلامة جرّه الفتحة النائبة عن الكسرة / فعل مضارع مجزوم بـــ "لم" وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره /فعل مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون. ....

ــ أَطَلَّ شبحُ الجوعِ حاملاً، حاملاً: حال منصوب/مفعول لأجله منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة /مفعول به ثاني /مفعول به/مفعول لأجله /تمييز منصوب/مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره /فعل ماضي مبني على الفتح/حال منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره / مفعول مطلق منصوب وعلامة نصبه الفتحة /نائب مفعول مطلق منصوب بالفتحة /صفة منصوبة وعلامة نصبها الفتحة / مفعول به منصوب /.....

ــ عثر الباحثون على خمس عشرة تحفة أثرية: خمسَ عشرة: اسم مجرور بـــ "على" مبني على فتح الجزأين في محل جر /اسم مجرور في محل نصب الجزأين / اسم مجرور مبني على فتح الجزأين في محل جر // اسم مجرور مبني على الفتح // خمسَ: اسم مجرور بعلى وعلامة جره الكسرة / اسم مجرور على فتح الجزأين في محل جر/اسم مجرور بـــ "على" وعلامة جره الكسرة وهو مضاف الجزأين، عشرة: مضاف إليه مجـــرور وعلامـــة جره الكسرة الظاهرة على آخره /اسم مجرور بـــ "على" مبني على الفتح الجزأين في محل جر وعشر جزء من العدد مبني على الفتح /مفعول به مبني على فتح جزأين في محل نصب /اسم مجرور مبني على فتح الجزأين/، عشرة: تمييز منصوب بالفتحة //اسم منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره وهو مبتدأ/عشر: مبتدأ مرفوع / فاعل مبني على فتح الجزأين في محل رفع، عشر: جزء من العدد مبني على الجر/ اسم مجرور على الفتح والجزأين في محل جر /. ...

ــ **اتصلت بعشرينَ شركة: عشرين:** اسم مجرور بـــ(ب) وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره (هذا الإعراب تكرر عند عدّة تلاميذ)/اسم معطوف بالباء لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم / اسم مجرور وعلامة جره الكسرة لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم / اسم معطوف مجرور بالباء لأنّه جمع مؤنث السالم /اسم مجرور

بـــ(ب) وعلامة جره الياء والنون لأنه مؤنث السالم / اسم مرفوع بالياء لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم /اسم مجرور بالباء/اسم مجرور وعلامة جره؟/ اسم معطوف مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم /اسم منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره /اسم معطوف بالواو لأنّه التحق بجمع المذكّر السالم /مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره /فاعل مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم /اسم مجرور بالباء وعلامة جره الياء وهو ملحق بجمع المذكر السالم. ....

والأمثلة كثيرة عن الأخطاء التي يرتكبها التلاميذ أثناء الإعراب وما يُلاحظ أنّ هذه الأخطاء ترجع بالدرجة الأولى إلى عدم تركيز التلميذ على الكلمة التي يعربها فهو لا يُعطي أهمية للحركات الإعرابية وهذا ما يوقعه في الخطأ.

وآخر ما يمكن قوله في هذا البحث هو: على كلّ متخصّص وباحث في اللغة العربية أن يشغل فكره بالبحث عن طرق تساعد التلميذ على استيعاب قواعد اللغة العربية المقررة عليه في كلّ مستوى، ففهمه للقواعد النحوية والصرفية سيُسهّل عليه الإعراب حتما، كما ندعو أساتذة اللغة العربية إلى ضرورة الاستغناء عن إعراب الكلمة التي لا يفيد إعرابها التلاميذ في صحة النطق والكتابة فالإعراب ليس غاية في ذاته بل وسيلة للآداء اللغوي السليم.

<u>قائمة المصادر والمراجع</u> :

- **القرآن الكريم**

1- ابن الأنباري "أسرار العربية"، تحقيق فخر صالح قدارة، بيروت، دار الجيل 1415هـــ، 1995م، ط1

2- ابن منظور "لسان العرب"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان

3- ابن هشام الأنصاري "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" ومعه "مصباح السالك إلى أوضح المسالك"، دار الفكر للطباعة، لبنان، 2000م.

5- أبو الفتح عثمان بن جني "الخصائص"، تحقيق: الشربيني شريدة، دار الحديث القاهرة، (د.ط)، 1428 هـ، 2007 مـ.

6- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي "طبقات النحويين واللغويين"، دار المعارف، مصر،

7- أبو بكرمحمد بن عبد الملك الأندلسي –المعروف بابن السراج الشنتريني– "تلقيح الألباب على فضائل الإعراب"، تحقيق أحمد حسن إسماعيل، عالم الكتب الحديث، ط 1، 2006.

8- أبو مغلي سميح "الأساليب الحديثة لتدريس اللغة العربية"، دار مجدلاوي للنشر عمان، الأردن، ط2،

9- إبراهيم عبد العليم "الموجه لمدرسي اللغة العربية"، دار المعارف، مصر.

10- التواتي بن التواتي "محاضرات في أصول النحو"، دار الرويغي للنشر الأغواط، الجزائر، ط1،

11- توفيق بلطه جي "كيف نتعلّم الإعراب –طريقة ملونة مبتكرة –"، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط9، 1433هـ، 2012م.

12- جميل علوش "الإعراب النموذجي في النظرية والتطبيق"، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1.

13- الزجاجي "الإيضاح في علل النحو"، تحقيق: مازن المبارك، دار العروبة القاهرة.

14- ظافر محمد إسماعيل والحمادي يوسف "التدريس في اللغة العربية"، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية

15- عبد الجليل مرتاض "في رحاب اللغة العربية"، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2004م،

16- عطا إبراهيم محمد "طرق تدريس اللغة العربية والتربية الدينية"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر،

17- مجاور محمد صلاح الدين "تدريس اللغة العربية"، المرحلة الثانوية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

18- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكتب 1387هـ،1967م.

19- محمد فؤادا لحوامدة، راتب قاسم العاشور "أساليب تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيق"، عمان، الأردن، ط1، 2003م، 1424هـ،

الهوامش:

1 – التواتي بن التواتي "محاضـــرات في أصول النحو"، دار الرويغي للنشر، الأغواط، الجزائر ط 1، ص119.

2 – ابن منظور "لسان العرب"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 588/1

3 – ابن الأنباري "أسرار العربية"، تحقيق فخر صالح قدارة، بيروت، دار الجيل، 1415هـ 1995م، ط1، ص43.

4 – ابن هشام الأنصاري "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك "ومعه" مصباح السالك إلى أوضح المسالك "، دار الفكر، لبنان، 2000م، 64/1.

5 – السيوطي "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 1425هـ، 2004م، 262/1"

6 – أبو البقاء العكبري "مسائل خلافية في النحو"، ص109.

7 – الزجاجي "الإيضاح في علل النحو"، تحقيق: مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة، ص69.

8 – عبد الجليل مرتاض "في رحاب اللغة العربية"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004 ص 106

9 – أبو الفتح عثمان بن جني "الخصائص"، 1428هـ، 2007م، 79/1.

10 – توفيق بلطه جي "كيف نتعلّم الإعراب – طريقة ملونة مبتكرة–"، دار الوعي، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط9، 1433هـ، 2012م، ص48.

11– أبو بكر محمد بن عبد الملك الأندلسي –المعروف بابن السراج الشنتريني – "تلقيح الألباب على فضائل الإعراب"، تحقيق أحمد حسن إسماعيل، عالم الكتب الحديث، ط1، 2006، ص60.

12 – ينظر: الشنتريني "المرجع السابق"، ص60.

13 – الشنتريني "المرجع السابق"، ص 62

14 – أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي "طبقات النحويين واللغويين"، دار المعارف مصر، ص127.

15 – الإمام الذي ذكره أحمد بن يحيا هو القاسم بن مخيمرة بن عروة الهمداني الكوفي (ت101هـ) الإمام القدوة الحافظ، نزيل دمشق.

16 – الشنتريني "المرجع السابق"، ص65.

17 – التواتي بن التواتي "محاضرات في أصول النحو"، ص 299.

18 – سورة الواقعة، الآية 22.

19 – التواتي بن التواتي "محاضرا ت في أصول النحو"، دار رويغي للنشر –الأغواط – الجزائر ط1، ص 300.

20 – محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكتب، القاهرة 1387هـ، 1967م، 204/7.

21 – التوتي بن التواتي "المرجع السابق"، ص299.

23– ينظر: إبراهيم عبد العليم "الموجه لمدرسي اللغة العربية"، دار المعارف، مصر، ص203..

24– الهاشمي عابد توفيق: "الموجه العملي لمدرس اللغة العربية"، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1417هـ، ص198–201.

25 – عطا إبراهيم محمد "طرق تدريس اللغة العربية والتربية الدينية"، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، ج2، ص ص75–77.

26– محمد فؤاد الحوامدة، راتب قاسم العاشور "أساليب تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيق"، عمان، الأردن، ط1، 2003م، 1424هـ، ص109

27 – أبو مغلي سميح "الأساليب الحديثة لتدريس اللغة العربية"، دار مجدلاوي للنشر، عمان الأردن، ط2، ص59.

28 – جميل علوش: "الإعراب النموذجي في النظرية والتطبيق"، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن ط1، ص50

29 – ينظر المصدر نفسه: 51.

30 – الجملة الابتدائية لا محلّ لها من الإعراب لأنّها لم يسبقها عامل يؤثر فيها، فهي لم تقع تحت تأثير عامل سابق من فعل أو حرف أو ما يقوم مقامهما. ولذلك لم يكن لها محلّ من الإعراب. أمّا صلة الموصول فإنّ عمل العامل يقع فيها على الاسم الموصول ولا يتجاوزه إلى ما بعده.

31 – مجاور محمد صلاح الدين "تدريس اللغة العربية"، المرحلة الثانوية، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، ص205، 206.

32 – ظافر محمد إسماعيل والحمادي يوسف "التدريس في اللغة العربية"، دار المريخ للنشر الرياض، المملكة العربية السعودية ص286، 291

مقاييس النقد اللغوي في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي"علي بن عبد العزيز الجرجاني"

أ. شهيرة بربار
جامعة بسكرة

ملخص: لقد أولى النقاد العرب القدامى الجانب اللغوي اهتماما كبيرا واتخذوا منه معيارا نقديا في قراءة الشعر والحكم له أو عليه؛ لأنهم اعتنوا بجانب الصحة والصواب؛ والسبب في ذلك أن النص الشعري لا يمكن أن يوصف بالجمال حتى تتحقق فيه الصحة الكاملة، وهو يعنى في الجانبين معا بأصوات النص ومقاطعه وصيغ كلماته، ومعاني مفرداته، وعلاقاتها في السياق، وتركيب الجملة وأسلوب الأداء وتناسب العناصر وملاءمة النص لظروف الاستعمال، وسنتناول في هذه الدراسة المكون اللغوي في دراسة النص الشعري بالتركيز على مقاييسه، كما تجلى في بعض تطبيقات "القاضي الجرجاني" في وساطته.

Résumé : Les critiques arabes donnent l'aspect linguistique un grand intérêt, et les le présumer norme critique en lisant la poésie et en jugeant lui ou pigeonnier; ils pris en charge par la santé et le pépite ; c'est parce que le texte poétique peut être décrite comme une beauté même où pleine santé, cela signifie à la fois le texte et la province a rédigé ses mots et significations du vocabulaire et des relations dans le contexte, de synthèse et de style, de performance, s'adapte, ajuster le texte à utiliser et sera traitée, dans cette étude on prendre la composante linguistique dans l'étude du texte poétique en mettant l'accent sur les normes, comme Dans certaines applications, «d'Elkadhi-Eljerjani» dans sa médiation.

تقديم: كان النقاد منذ القديم، يدركون أن النص الأدبي نسيج لغوي قبل كل شيء لذلك عملوا على تحليله ودراسته على هذا الأساس من جهات مختلفة ؛ فيقف الناقد على الأسرار اللغوية ليكشف ما يرجع منها إلى المفردات أو التراكيب

والغرض من ذلك هو إنارة مواطن الحسن في التعبير الشعري ليؤدي الغاية منه وهي الإثارة والمتعة[1]، وسنحاول فيما يأتي النظر في الجانب اللغوي في قراءة "القاضي الجرجاني" للنصوص الشعرية التي أوردها في الوساطة، والذي ينحصر في المستويات: المعجمي، الصرفي، والنحوي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا التطبيقات النقدية مبنية على زاوية نظر طرفاها(القديم والمحدث) من جهة و(الطبع والصنعة) من جهة ثانية، وانفراج هذه الزاوية أو ضيقها مرتبط بالمادة الشعرية بين هذين الطرفين من جهة، وبين شعر "المتنبي" كنص محوري ووسيط بينهما للاعتذار له من جهة أخرى.

1 – المقياس المعجمي: أول ما يدرس في اللفظة هو تركيبة بنيتها وترتيب حروفها، وتبعا لذلك يبين الجيد منها وفق ما حوته المعاجم العربية، وفي مقدمتها (لسان العرب)، وقد راعى "القاضي الجرجاني" الاستعمال المعجمي للألفاظ من خلال تتبعه لعيوب اللفظ، وحدود هذا الاستعمال داخل النصوص الشعرية والتغييرات التي لحقت أبنية الألفاظ، ومواضع استعمالها، ومميزاتها المختلفة ويمكن تصنيف هذه التطبيقات وفق ما يأتي:

– مما ورد في الوساطة من المسائل المعجميةاستعمال اللفظ في غير موضعه:

- رأيه في قول "المتنبي":

لَوِ الْفَلَكَ الدَّوَّارَ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ * لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ[2]

فهو يعلق على استعمال لفظة (شيء) في هذا البيت: «وهذا البيت من قلائده، إلا أنك تعلم ما في قوله: (شيء) من الضعف الذي يجتنبه الفحول ولا يرضاه النقاد»[3] "فالجرجاني" في هذا المثال يرفض مثل هذا الاستعمال للفظة (شيء) فقد عاب على "أبي الطيب" موضع اللفظ الذي رأى فيه سوء اختيار، كما رأى فيه تأثيرا سلبيا على المعنى، وإنكاره لاستعمال كلمة (شيء) دون غيرها يعود إلى أن هذه اللفظة غير مناسبة لحمل المعنى المراد من قبل الشاعر، الأمر الذي

أحدث عدم انسجام في التركيب، وأدى إلى الحكم عليه بالرداءة، كونها لم تؤد المعنى الدقيق القريب، فحدث تنافر في صلتها بمجاوراتها، ليؤكد "القاضي الجرجاني" بذلك نظرته حول معيار الجزالة، ودور اللفظة في بناء التركيب من خلال حسن التوظيف على أساس المعنى بـــ: «أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني»[4]. وما نلحظه في هذا المثال هو عيب في الاستخدام الموضعي للفظ وليس عيبا معجميا خالصا؛ كأن يكون تغييرا في بنية الكلمة وتميزها بالغرابة، أو خروجها عن حدود المعجم، ولكن سوء الاختيار أثر في المعنى وفي شعرية اللغة التي وصفت بالرداءة، حيث عد هذا الاستعمال ضعفا ومجانبة للفحولة.

- ومثل ذلك ما عابه النقاد على "المتنبي" في قوله:

عَوَابِسَ حَلَّى يَابِسُ المَاءِ حُزْمَهَا * فَهُنَّ عَلَى أَوْسَاطِهَا كَالمَنَاطِقِ[5]

يقول الجرجاني معلقا على البيت: «قالوا: الماء لا يوصف باليبس، وإنما يقال جمد الماء وجمس السمن، ويبس العود والنبت، ونحو ذلك»[6]؛ هو إنكار لاستعمال لفظة (يابس) في غير موضعها الذي يقتضيه الواقع اللغوي المنطقي في وصف الماء، فقد أساء "المتنبي" الاختيار الذي أفسد المعنى في شعره وترك رداءة في التركيب لعدم انسجام اللفظ وتنافره مع ما وضع له من معنى، لأنه يؤدي معنى اليبس والجفاف لا معنى التجمد للماء، فخرج بهذا الاختيار عن اللغة المعيارية لكن "القاضي الجرجاني" يدافع عن هذا الاختيار، ويحتج ببعض الأبيات الشعرية كقوله: « قد جاء عن العرب وصف الماء باليبس، قال "بشر" يصف خيلا:

تَرَاهَا مِنْ يَبِيسِ المَاءِ شُهْبًا * مُخَالِطُ دُرَّةٍ فِيهَا غِرَارُ »[7]

لكن الخصم يعقب على ذلك بقوله: «أما يبس الماء فإن العلماء رووا عن العرب أنها تسمي العرق يبس الماء»[8]؛ وقد جاء في شرح "البرقوقي" لبيت "المتنبي" أنه أراد به الكناية عن العرق في قوله: « وأراد بيابس الماء: ما جف من العرق، وعرق الخيل إذا جف أبيض... يقول: أتتهم الخيل كالحة وقد جف العرق على حزمها فابيض، فصارت الحزم كأنها المناطق المحلاة بالفضة».[9]

لقد حاول القاضي الجرجاني من خلال هذا المثال أن يشير إلى أن حدود الاختيار تتعدى الإطار المعجمي إلى مختلف علاقات اللفظ كالترادف والاشتراك وغيرها من العلاقات التي ترتبط في استعمالاتها بالمعنى ومختلف سياقاته؛ التي تمنح الشاعر شيئا من الحرية في التعامل مع اللغة واستعمالها. ومن مسائل المعجم استعمال ألفاظ من غير لغة العرب: ومن بين المآخذ اللغوية من ناحية المعجم، التي عرض لها "القاضي الجرجاني"، ما عيب على "المتنبي" في استخدامه لألفاظ غريبة عن لغة العرب، فهي إما أعجمية أو مولدة أو عامية. من ذلك ما أخذ على "المتنبي" في قوله:

بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً * وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيكَ الدُّرَ مُخَشْلَبَا[10]

« قالوا: (مخشلبا) ليس من كلام العرب، فقال أبو الطيب: هي كلمة عربية فصيحة، وقد ذكرها العجاج، ولست أعرفها في شعر العجاج ولا أحفظها محكية عن العرب، غير أني أرى استعمالها وأمثالها غير محفوظ، لأني أجد العرب تستعمل الكثير من ألفاظ العجم إذا احتاجت إليه لإقامة الوزن وإتمام القافية، وقد تتجاوز ذلك إلى استعماله مع الاستغناء عنه»[11]؛ يشير "القاضي الجرجاني" في خطابه إلى أن استعمال الشعراء ما ليس في معاجمهم العربية من ألفاظ الأعاجم يعد عيبا، لأنه انحراف عن اللغة المعيارية. كما طعن "الجرجاني" في رأي "المتنبي" الذي أكد بأنها لفظة عربية فصيحة واحتج بذكرها عند "العجاج"، وهذا ما لم يتفق فيه "القاضي الجرجاني" معه، إذ أضاف أن مثل هذا الاستعمال موجود في كلام العرب، فمن الشعراء من لجأ إلى الألفاظ الأعجمية واستعارها في أشعاره لأغراض فنية، لكنها تبقى من سوء الاختيار، لأنها خروج عن اللغة، و"القاضي الجرجاني" بدوره يرى أن هذا التوظيف لأغراض فنية، هي إقامة الوزن وإتمام القافية، أين يدخل ضمن الضرورة الشعرية.وبالعودة إلى البيت الشعري نجد أن الشراح فسروا كلمة (مخشلب): بالخزف أو بقطع الزجاج المتكسر، وأغلب الظن أنهم استقوا هذا المعنى من مقتضى المقابلة بين "الدر" و'المخشلب'، ولم يستقوه من

المظان اللغوية الموثوق بها[12]، لأنه لا وجود لها في اللغة العربية ضمن ما حوته المعاجم(كلسان العرب)* كما أن "المتنبي" استدل على وجودها في اللغة العربية بما ورد عند "العجاج"، لكن ذلك لا يدل على وجود مصدر صحيح لها في اللغة، وقد ورد في شرح "البرقوقي" أن: « المخشلب: خرز أبيض يشبه الدر، والعرب تسميه الخضض، أما المخشلب فهي كلمة نبطية»[13]. أما "القاضي الجرجاني" فيقدم شرحا مغايرا لما ورد في البيت لهذا اللفظ يقول: «المخشلب: من حجر البحر، وليس درا»[14]؛ فهو لم يكتف بإنكار استعمال اللفظ الأعجمي، بل رأى أنه غير مناسب لسياق المعنى، ما تسبب في فساده ورداءته. لكن الغريب في هذا المثال أن "القاضي الجرجاني" لم يعتذر "للمتنبي" في هذا الاستعمال على الرغم من وجود مثله عند شاعر سابق "العجاج" وقد كان في أمثلة أخرى يتخذ من ذلك حجة أولية وهي السماع، وهذا الأمر يؤكد على عدالة الناقد وإنصافه للنص الشعري قبل الشاعر، غير أن هذا الرأي لا ينكر على الشاعر مثل هذا الاستخدام؛ لأنه يتعلق بلغة الشعر وجمالها، والضرورة الشعرية التي تقضي بإتمام الوزن والقافية: «فليس بمحظور على الشاعر الاقتداء بهم في أمثال ذلك إذا احتاج إليه»[15]، ولكنه ينكر التجاوز في ذلك، وهو ما اتسم به الشعر عند المحدثين ما جعل لغتهم تمتاز بالانحراف عن الأصل وإن كان مطلبا فنيا وجماليا، ويظهر ذلك في قوله: «فأما المحدثون فقد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام، وكانت تلك الألفاظ أغلب على أهل زمانهم، وأقرب من أفهام من يقصدون إفهامهم، وقد أفرط 'أبو نواس' حتى استعمل زنمردة وبازبندة، وباريكنده، وغير ذلك»[16]. إن "القاضي الجرجاني" لا ينكر على الشاعر استعمال الألفاظ الأعجمية، بل يرى فيه ضرورة متى دعت حاجة الشاعر إليه لكنه يراه صفة غالبة على المحدثين الذين اتسعوا في هذا الاستعمال وجاوزوا الحدّ ويعلل ذلك بأنها أقرب إلى أهل زمانهم وجزء من مظاهر التطور الحضاري الذي مسّ اللغة، وهذا ما أنكره الخصوم على "المتنبي" ورآه "الجرجاني" أمرا كثير الورود عند الشعراء، وهي لا تعبر عن ضيق اللغة

المعيارية بقدر ما تدل على خصوصية اللغة الشعرية في خطوة لإثرائها وفق ما دعت إليه حاجة الشاعر للإفهام من حيث هي أداة توصيل، وتحت مفهوم الفنية والضرورة من حيث هي حاجة في بناء الشعر، ومطلب فني جمالي، لكنه يشترط في ذلك الاستعمال الألفة والسماع عن العرب، حتى لا يعد من التعقيد والانحراف عن لغتهم كما هو الأمر عند "أبي نواس"، يقول: «فإن كانت اللفظة مسموعة عن العرب على ما حكاه أبو الطيب، فقد زالت الكلفة، وإن لم تكن محفوظة فما رويناه من أمثالها عن العرب والمحدثين يعتذر عنه ويقوم بحجته»[17]؛ فقد أورد أمثلة عن استخدام ألفاظ أعجمية من غير شعر "المتنبي": «كقول الشاعر:

قَدْ عَلِمَتْ فَارِسُ حِمْيَرَ وَالأَعْـــــــ * ــرَابُ بِالدَّشْتِ أَيُّهُمْ نَزَلاَ

أراد الدشت**، وهو فارسي وأسماؤه عند العرب كثيرة، فلم يمنعهم ذلك من الارتفاق به»[18]، والحجة في ذلك إتمام الوزن والقافية. ونخلص من ذلك إلى أن النظرة النقدية "للقاضي الجرجاني "اتسمت بالموضوعية في العرض والمناقشة؛ فهو لم ينف أن يكون استعمال "المتنبي" لكلمة (مخشلب)عيبا، بل أضاف إلى ذلك نقده للمعنى الذي وردت فيه، وفي الوقت نفسه رد على الخصوم؛ فهذا المأخذ لا يخص شعر "المتنبي" وحده، بل هو ميزة لأهل زمانه من الشعراء، وقبلهم صفة لبعض استعمالات الشعراء الأوائل، لأنه أدرجها في إطار الضرورات والأغراض الفنية من جهة، والاتساع في اللغة والاختيار من جهة ثانية، ولخصوصية اللغة الشعرية من جهة ثالثة، وفق ما حدده من معايير الألفة والسماع، والأخذ بأوزان العرب في الكلام ودخول ألفاظ الأعاجم في لغتهم تبعا لذلك، كما لا تفوتنا الإشارة إلى مثل ذلك في بعض ألفاظ القرآن الكريم (كالقسطاس، سرادق، إستبرق... وغيرها من الألفاظ)، وقد دخلت هذه الألفاظ إلى النص القرآني الكريم، معربة، خاضعة لنظام النحو العربي الذي انتظمت قوانينه وفق هذه النصوص. ونجد مثل هذا الرأي في استخدام الألفاظ المولدة والعامية، ونقف عند رأي "القاضي الجرجاني" في بيت "أبي تمام" حين يقول:

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرْمَرُ * وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ[19]

وقد أدرج "القاضي الجرجاني" هذا المثال ضمن ما استحسنه من شعر "أبي تمام" إلا أنه عاب عليه استخدام لفظة (يتكسر) وهي مولدة؛ والمولد لفظ عربي لكنه في حالة مضافة إلى رصيد المعاجم[20]، فرض وجوده التطور اللغوي، وفق مرجعية التطور الزمني، الذي فرض هو الآخر استعمالات وتخريجات جديدة لألفاظ لم تكن متداولة عند القدماء.يقول "الجرجاني" عن بيت "أبي تمام": «على أن لفظة (يتكسر) حضرية مولدة»[21]، ومعيار النقد في ذلك أيضا هو الألفة والسماع فكل المفردات التي لم تسمع عن عرب الجاهلية والقرنين الأول والثاني تعد مولدة لأنها تسربت إلى اللغة في العهد الأخير، وهذا يدل على إثراء اللغة وتطويرها من الداخل، ولذلك ينبغي أن يعد هذا الجانب من أهم ما يخدم اللغة المعيارية الشعرية[22]، وبالمقابل فقد رفع الاستعمال عن عديد الألفاظ المنسوبة إلى الأوائل وأصبحت غريبة عند المحدثين؛ فكانت العودة إليها وتوظيفها من العيوب التي لحقت المحدثين في أشعارهم، ووسمتها بالتعقيد والغرابة، مثلما عاب "الجرجاني" على "أبي تمام" في كثير من أشعاره، وعدها من رديء قوله بسبب سوء اختياره للألفاظ، التي أدت إلى فساد المعنى وتعقيد الكلام، والشواهد على ذلك كثيرة في الوساطة خلاصتها أن الطابع الحضري ينكر على الشاعر العودة إلى لغة الأوائل وتوظيف ألفاظهم كأصل ومرجع، فمثل هذا الاستعمال يتسم بالتعقيد فكان تكلفا وخلطا بين طابعين، لأنه زاوج بين مذهبين في الشعر فلم يبن له طابع وذوق، ولم يعكس تفرده بالأصالة أو الحضارة، التي تنعكس على لغة الشعر. لقد تميز خطاب "القاضي الجرجاني" بوعي نقدي فحواه الإحساس بالخصوصية والتفرد الذي تميزت به لغة الشعر عن غيرها وما تخلقه لنفسها من فسحة واتساع في الاستخدام والاختيار، وهذه الخصوصية وهذا الاتساع مرتبطان بالبيئة وتطور العصر وشخصية المبدع وخصوصية طبعه؛ ما منح اللغة الشعرية شقا من التحرر من قيود المعجم اللغوي لكنه يبقى محدودا، متنافيا مع الانحراف والخروج السلبي عن

اللغة المعيارية، ومع ذلك يحدد علاقته بها؛ كالاتساع في الاختيار باستعمال ألفاظ ليست من لغة العرب أو من خلال الترادف أو الاشتراك اللفظي...، وهذا الاختيار خاضع لمقاييس تؤطر اللغة الشعرية كعلاقتها بالطبع، والاستعمال والسماع وسياق التجربة، كل ذلك وفق ما تمنحه هذه الحرية للشاعر في تطويع لغته ومنحها خصوصية ترتقي بها عن بقية أنماط الكلام، لأنها تعتمد الرؤية الجمالية والسمة الفنية.

2- **المقياس الصرفي:** النقد اللغوي حين يعنى ببناء الكلمة، فإنه ينقدها من الجهة الصرفية، كما يعالجها من جهة الأصوات، وذلك لتغير المعاني تغيرا فرعيا تبعا لتغير الأبنية وما يتبعها من أصوات[23]، كما أنّ كلّ زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى، ونجد إشارة عند "ابن وهب" في هذا المجال يحدثنا فيها عن الزيادة التي تلحق معنى الفعل بسبب زيادة في بنائه، يقول: «لكل زيادة من هذه الزيادات معنى تحدثه...»[24]، وكذلك يعد العدول عن معتاد حال اللفظ وصورته إلى حال أخرى مما يؤدي إلى تغيير المعنى إلى المبالغة مثلا، قال "ابن جني": «ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتدى حاله، وذلك فُعال في معنى فعيل نحو طوال فهو أبلغ من طويل... فلما كانت فعيل هي الباب المطرد، وأريدت المبالغة عدلت إلى فعال، فضارعت فعال بذلك فعّالا والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله، فأما فعّال فبالزيادة وأما فُعال فبالانحراف به عن فعيل»[25] وتبعا لكثرة الصيغ وتعدد معاني الألفاظ على حسب هذه الكثرة والتعدد وجد الشاعر نفسه أمام معجم مفتوح من الاختيارات اللفظية، التي يعد مبناها وما يطرأ عليه من تغيرات محكا فاصلا فيما تؤديه من معان تكسبها جودة أورداءة. وللسبب نفسه اهتمّ النقاد بالجانب الصرفي وأبنية المفردات، ووضعوا لذلك معايير وحدودا وفق ما جاء به علماء اللغة، وألزموا الشعراء بعدم الخروج عنها فتتبعوا بالدراسة والنقد ما وقع فيه الشعراء من أخطاء وعيوب من جهة البنية الصرفية للفظ، ودونوا مآخذهم على أساسها، فأسقطوا شعرا، وطعنوا في آخر وأساءوا إلى

آخر خاصة المحدثين منهم. وكان شعر "المتنبي" ميدانا لمثل هذه المآخذ، التي ناقشها "القاضي الجرجاني" في وساطته، محاولا تقديم نظرة شاملة؛ حيث نقل وعرض آراءه وآراء الخصوم، وقد تعددت الجوانب الصرفية التي طبقت على ما عرض من أبيات شعرية، منها الاشتقاق والجمع وغيرها من النواحي الصرفية.

- ومما روى "القاضي الجرجاني"، ما عابه النقاد على "المتنبي" إنكارهم عليه ما ورد في شعره من أخطاء في الصيغة المصدرية، ومن أمثلة ذلك قوله:

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِن أَرَبِي * وَلاَ القُنُوعُ بِضَنْكِ العَيْشِ مِنْ شِيَمِي[26]

«قالوا: القنوع خطأ وإنما هي القناعة، فأما القنوع فالمسألة، يقال: قنع يقنع قناعة؛ إذا رضي، وقنع يقنع قنوعا؛ إذا سأل، والفاعل فيهما قانع»[27]؛ حيث أحدث هذا الاستعمال الخاطئ تغييرا في المعنى، حين خرج عن معنى الرضا إلى دلالة السؤال، فالمصدر من قنع هو القناعة إن أراد التعبير عن الرضا، ولكن المحتج طعن في نسبة هذا الاستعمال "لأبي الطيب" لأن الرواية المسموعة لهذا البيت هي:

* وَلاَ القَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِي *

وهذا ما ورد في الديوان الذي بين أيدينا.أما "القاضي الجرجاني" فيقف بين الخصمين متوسطا بين الرأيين، بقوله: «وقد سمعت رواة الشاميين يذكرون أنه أنشدهم قديماً القنوع ثم غير الإنشاد، ورجع إلى القناعة، ثم إن القنوعب معنى القناعة محكية عن العرب، وإن لم تكن مشهورة، وقد ذكرها أهل اللغة،وحكوا عن أوس بن الحارث الطائي أنه أوصى ابنه، فقال في بعض وصيته: خير الغنى القنوع، وشر الفقر الخضوع، ولا يحتمل معنى القنوع هنا في هذا الكلام إلا الرضا والقناعة»[28]؛ فهو في هذا النص يفند رواية بيت "المتنبي" بلفظ 'القنوع'، ويدلل على ذلك برأي الشاميين؛ كما أنه غير التركيب اللفظي بتغيير المصدر حتى يستقيم له الوزن، فلا يجوز نقده ومؤاخذته فيما غيّره. كما أن "الجرجاني" رأى في استعمال كلمة 'قنوع' استعمالا صحيحا لأنها تحمل معنى الرضا، بمرجعية السماع؛ فهي محكية عن العرب كما جاء في وصية "أوس بن الحارث الطائي" لابنه. وبالعودة

إلى النص المعجمي نجد ابن منظور مثلا يصادق على ذلك، فيورد اللفظ بالمعنيين يقول: «والقُنُوعُ: السُّؤَالُ وَالتَّذَلُّل لِلْمَسْأَلَة وَقَنَعَ –بالفتح–، يَقْنَعُ قُنُوعًا: ذُلُّ السُّؤَال وقيل: سَأَلَ... قال ابن السكيت: وَمِنَ العَرَب مَنْ يُجِيزُ القُنُوعَ بِمعنى القَنَاعَة وَكَلاَمُ العَرَب الجَيّد هُوَ الأَوَّل... وَقَدْ اسْتُعْمِلَ القُنُوعُ فِي الرِّضَا، وَهِيَ قَلِيلَة حكَاهَا ابن جني، وأنشد:

أَنَرْضَى بِهَذَا مِنْكُمُ لَيْسَ غَيْرَه * وَيُقْنِعُنَا مَا لَيْسَ فِيهِ قُنُوعُ »[29]

وفي القاموس المحيط يورد "الفيروز آبادي" في مادة (قنع) قوله: «القُنُوعُ بالضم: السُّؤَالُ وَالتَّذَلُّل، وَالرِّضَى بِالقِسْمِ، ضِدّ، والفعل كمَنَعَ، ومن دعائهم: نَسْأَلُ اللهَ القَنَاعَةَ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ القُنُوعِ، وفي المثل: "خَيْرُ الغِنَى القُنُوعُ، وَشَرُّ الفَقْرِ الخُضُوعُ"»[30]؛ وهذه دلائل لغوية تفي بالاحتجاج عن استعمال "المتنبي" الصحيح لهذه الصيغة، فكلا الوجهين صحيح بعرضهما على مصدري القياس والسماع. هكذا يتضح مما سبق أن المصدر'قنوع' بمعنى السؤال والتذلل هو الأكثر شيوعاً وروده بمعنى الرضا قليل، «ولكن ذلك لا يجعلنا نخطئ استعمالاتها في ذلك المعنى ففرق بين الخطأ والقليل»[31]؛ هذا القليل الذي عده "ابن السكيت" جيدا، وعلى هذا لا يكون "المتنبي" مخطئا إذا استعمل القنوع بمعنى الرضا، في قوله على رواية الخصم بقوله:

* وَلاَ القُنُوعُ بِضَنْكِ العَيْشِ مِنْ شِيَمِي *.

أو المحتج بقوله: * وَلاَ القَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِي *.

لأنه استعمل المصدرين: 'القنوع' و'القناعة' في المعنى الذي أراده وهو 'الرضا'.

- ومن ذلك ما أخذه "القاضي الجرجاني" على "أبي نواس" في قوله :

وَإِذَا نَزَعْتَ إِلَى الغِوَايَةِ فَلْيَكُنْ * لله ذَاكَ النَّزْعُ لاَ لِلنَّاسِ

علّق عليه قائلا: «وإنّما هو نزع عن الشيء نزوعا»[32]؛ وقد أورد "الجرجاني هذا البيت ضمن ما عدّه لحنا وغلطا في شعر "أبي نواس"؛ وفي هذا

المثال عاب عليه الخطأ في صيغة الجمع 'النزع'؛ التي تدل على أخذ الشيء من مكانه، أما 'النزوع'، فيدل على الاشتياق إلى أمر ما، لأنه أفسد المعنى وخرج عن مواضع اللغة. وعدّ ذلك من الضعف الذي لا تبيحه حتى ضرورة الشعر ولا إقامة الوزن لأن هذا الاستعمال لحن فيه، وعيب أفسد المعنى: «وإن كان باب التأويل يتسع ومذاهب الاحتيال في النحو لا تضيق»[33]؛ لأن هذا الاستعمال مخالف للسماع والقياس في اشتقاقه على غير ما وضع له من معنى. وفي الأصل المعجمي يحتمل المصدر هذه المعاني: فقد ورد في القاموس المحيط: « نَزَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ يَنْزِعُهُ: قَلَعَهُ، كَانْتَزَعَهُ، ويَدَه: أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبِهِ... وَنُزُوعًا بالضم: اشْتَاقَ... وَعن الأمور نُزُوعًا: انْتَهَى عَنْهَا»[34]، وجاء في لسان العرب في مادة 'نزع': «نَزَعَ الشَّيْءَ يَنْزِعُهُ نَزْعًا... وَنَزَعَ: حَوّلَ الشيء عَن مَوْضِعِه... وَنَزَعَ الإِنْسَانُ إِلَى أَهْلِه والبَعِيرُ إِلَى وَطَنِه يَنْزِعُ نِزَاعًا ونُزُوعَا: حَنَّ وَاشْتَاقَ، وهُوَ نُزُوع».[35] ونظرا لذلك يختلف المعنى ويتغير من صيغة إلى أخرى، وإن كان الأصل الاشتقاقي واحدا 'الفعل نزع'، ولا بد من مراعاة ذلك، باعتماد السماع والقياس حتى يستقيم الكلام وتنسجم المعاني مع ما وضع لها من ألفاظ، وهذا ما لم يراعيه "أبو نواس" فوقع في الغلط واللحن، وإن كان يبدو أنه اضطر لاستعمال هذا المصدر على تلك الصيغة حتى يستقيم له الوزن؛ فقد خرج عن حدود الاستقامة بمخالفته لمصادر أخذ اللغة فكان عرضة للنقد والمؤاخذة كما ورد عند "الجرجاني".

- ومما ورد في الوساطة من المسائل الصرفية، التغيير في بنية الكلمة عن طريق الحذف أو الزيادة، وهذه بعض الأمثلة في ذلك، عاب بعض النقاد على "المتنبي" قوله:

فَأَرْحَامُ شِعْرٍ يَتَّصِلْنَ لَدُنَّهُ * وَأَرْحَامُ مَالٍ لاَ تَنِي تَتَقَطَّعُ[36]

«فأنكروا تشديد النون من (لدنّ)، وإنما هو لدُن، ولدْن، وأما تشديد النون فغير معروف في لغة العرب»[37]؛ فالأصل في كلمة 'لدن' التخفيف، لقولـــه تعالى: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

أَجْرًا حَسَنًا﴾[38]، وقوله تعالى ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[39]، أما في النص المعجمي؛ فقد وردت في لسان العـــــرب في مادة 'لدن': «اللَّدْنُ: اللين من كل شيء... ولَدُنْ ولُدْنٌ ولَدْنٌ ولَدِنٌ، ولَدُ محذوفة منها، ولَدَى محولة، كله: ظرف زماني ومكاني معناه عند»[40]، فلم ترد بالنون المشددة إلا ما نجده في قولهم: «اللُّدُنَّةُ، كدُجُنَّة وتفتح اللام: الحاجة»[41]، وهذا ما لم يرد معناه في الاستعمال الذي ورد في بيت "المتنبي"، وتشديد الحرف زيادة في مبناه تؤدي إلى تغيير في المعنى أما لفظة 'لدنّ' أفسدت المعنى لأنها غير معروفة في كلام العرب فخرج الشاعر في لغته عن مصادر العرب من السماع والقياس. وما يدلّ على خطأ "المتنبي" أنه غير هذا اللفظ إلى 'ببابه' لما خوطب في ذلك[42]، وهذا التغيير يوحي بأنه كان يطلب إتمام القافية واستقامة الوزن، ولكن البيت الشعري ورد في الديوان على أصله، كما أنه احتج عن ذلك بقوله: « قد يجوز للشاعر من الكلام ما لا يجوز لغيره لا للاضطرار إليه، ولكن للاتساع فيه واتفاق أهله عليه، فيحذفون ويزيدون. وروى أبياتا منها: قول لبيد:

* دَرَسَ المَنَا بِمُتَالِعٍ فَأَبَان *

يريد المنازل، ومما زاد فيه قول شبيب بن ثعلبة:

وَلَسْبَةُ الحُرْقُــوصِ بِالقَفَنّ * وَدُمَّل فِي الإست مستقرنّ

أحبّ مِنْكَ مَوْضِعَ الوُشْحُنّ * فَذَاكَ مِنْ ذَاكَ إِلَى السنن

* قطنّة مِنْ أَجْوَدِ القُطن *

فزاد هذه النونات... والتشديد في لدن أحسن من هذا كله؛ لأن النون ساكنة مع هاء، والنون تتبين عند حروف الحلق؛ لتباعدها منها، فزاد في تبينها فاجتلب التشديد، وهذه زيادة نون، وقد قال بعض العرب:

* مُذْ لَدُ شَوْلاً فَإِلَى إِتْلاَئِهَا*، فحذف النون من لدن»[43]. ويقف "القاضي الجرجاني" في هذا النص على ما يقع فيه الشعراء من أغاليط على مستوى بنية اللفظ، بتغييرها زيادة أو حذفا من أصل مبناها، ومما أخذ على "المتنبي" في ذلك

زيادته في لفظة 'لدن' بتضعيف النون، التي عدها الخصوم زيادة تسيء للمعنى أكثر مما تؤكده أو تزيد عليه أو تغيره؛ لأنها كلمة غريبة عن لغة العرب، لم ترد في كلامهم سماعا وقياسا. وفي محاولة من "القاضي الجرجاني" للتوسط بين "المتنبي" وخصومه، أورد احتجاج "أبي الطيب" عن نفسه وردود الخصوم عليه في خطاب حواري بين الشاعر والنقاد حول هذا الاستعمال، نخلص منه إلى أن "المتنبي" دافع عن اختياره تبعا لوعيه بخصوصية اللغة الشعرية وتميزها بالاتساع في الاستعمال بفتح باب الضرورة، التي تهدف بالدرجة الأولى إلى استقامة الوزن وإتمامه، كما تمنح الشاعر مساحة من الحرية في الاستعمال اللفظي مراعاة للمعنى أو الفنية في لغة الشعر، فقد يجوز للشاعر من الكلام ما لا يجوز لغيره للاتساع فيه – بتعبير "المتنبي"–، هذا الشاعر الذي اتخذ من تعبيره قاعدة تجعل تشديده لنون 'لدن' أخف من بعض الاستعمالات التي رأى فيها مبالغة في الاتساع عند بعض الشعراء، أدت إلى إفساد المعاني وثقل التراكيب وتعقيدها إن كان بالزيادة أو الحذف؛ يظهر ذلك فيما قدم من أمثلة: في الحذف كقول "لبيد" الذي حذف اللام من 'منازل'، فأفسد المعنى. وفي الزيادة كقول "شبيب بن ثعلبة" الذي اتسم بالتعقيد والثقل؛ فقد أكثر وبالغ في زيادة النون في عدد من الألفاظ المتتابعة (القفنّ مستقرنّ، الوشحنّ، قطنّة)، فعقد الكلام ونفر الأسماع، فإن كان ذلك لإتمام وزن وقافية، فلفظ 'قطنّة' ليس في موضع قافية، ولا هو حرف روي[44] ورأى "المتنبي" في قوله حسنا وأفضلية على ما جاء به هؤلاء الشعراء. وهذا ما أيده بعض المحتجين له، يقول: «قد بين الرجل العلة في حسن هذه الزيادة، وذكر أن النون كما كانت خفيفة وكانت ساكنة، ومن حقها أن تتبين عند حروف الحلق حسن تشديدها لتظهر ظهوراً شافياً، فهذه علة قريبة قد يحتمل للشاعر تغيير الكلام لأجلها ويؤكد ذلك أن النون أقرب الحروف إلى حروف العلة: الياء والواو، وأكثرها شبها بهما ومناسبة لهما؛ لأنها تدغم فيهما، وتزاد حيث يزادان... وحروف العلة أكثر الحروف احتمالاً، وأوسعها متصرفاً؛ ولذلك يحمل عليها في الحذف، ويتجوز فيها

بالزيادة»[45]؛ إن هذا الرأي يؤيد "المتنبي" في استعماله بعلة صوتية؛ حيث تكون النون الساكنة خفيفة خاصة عند التقائها بصوت حلقي كالهاء في هذا المثال، فكان من حقها أن تظهر وتبين والسبيل في ذلك هو تشديدها، وعلة تركيبية؛ هي قربها من حروف العلة ومناسبتها لها، ما يخولها الاتصاف بصفاتها في الاحتمال والتصرف؛ فجازت فيها الزيادة كما جازت في هذه الحروف لإتمام الوزن، كجواز زيادة الياء في قول الشاعر *تنفي يداها الحصى في كل هاجرة * نفيَ الدراهم تنقاد الصياريف*. فقد أجازوا زيادة الياء في 'صياريف' وهي 'صيارف' للإشباع[46].

وعلى مثل ذلك أجازوا حمل الهاء على الياء والألف في التقائها بالنون، في لفظ 'لدنّه' الذي جرى مجرى 'لدنّي' و'لدنّا' في زيادة النون؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾[47]؛ على أن نون 'لدني' و'لدنا' مدغمة مع نون الوقاية التي تخص المتكلم، ولا يجوز ذلك مع الهاء، فلم يرد مثل هذا الاستعمال بهذه العلل عن العرب، ويؤكد ذلك ما حملته المادة المعجمية كما سبقت الإشارة. كما أنه لا يجوز أن ننسب مثل هذا الاستعمال إلى "المتنبي" بوصفه تفردا واختراعا، فقد يكون غير متصل بما تنازعه من ضرورات الشعر، فترخص به وسوغه لنفسه واحتج به لشعره، فأما الألفاظ التي يزعم للشعراء التفرد بها؛ فإنها موجودة عن أئمة اللغة، وعمن ينتهي السند إليهم ويعتمد في اللسان عليهم؛ فإذا سمعنا من العربي الفصيح – الذي يعتدّ حجة – كلمة اتبعناه فيها، ثم إن لم تبلغنا عن غيره، ولم نسمع بها إلا في كلامه، لم نزعم أنه اخترعها.[48] لذلك رأى الخصم أن: «هذا الرجل قد خلط في احتجاجه، وجمع بين أمور مختلفة، ودلنا على بعده عن تحصيل المعاني، وذهابه عن مقاييس النحو وأجرى كلامه إلى غاية توجب قلب اللغة، ونقض مباني العربية؛ لأنه جعل الشعراء بزعمه أمراء الكلام، وأباح لهم التصرف على غير ضرورة، وهذه القضية إن سيقت على اطراد قياسها زال نظام الإعراب، وجاز للشاعر أن يقول ما شاء وأن يتناول ما أراد عن قرب...؛ لأن ذلك لو ساغ واستمر لانقلبت اللغة، وانتقضت

الحقائق، وهم إلى الحذف فيه أميل، وبالتخفيف أول... وهذا باب يتسع فيه القول وتتشعب فيه الوجوه»[49]؛ يبدو أن خصم "المتنبي" متحامل عليه في هذا الاستعمال حيث يؤكد عدم صحته، لأسباب عاد بعضها لمقاييس نحوية، وأخرى لما ورد عند العرب، واتهمه بالتقصير والخلط في أمور اللغة النحوية والصرفية، وما عضد مذهبه هذا أن "أبا الطيب" ليس واثقا تماما بقوة ما احتج به من كلام وما ذكره من شواهد شعرية، بدليل أن "المتنبي" لما خوطب في ذلك جعل مكان (لدنه) ببابه.وخلاصة القول: إن "القاضي الجرجاني" في تطبيقاته النقدية حول القضايا اللغوية من جهة البنية الصرفية لألفاظ الشعر، قد وقف عند ما تتميز به اللغة الشعرية من خصوصية في الاستعمال، مرجعياتها مصادر أخذ اللغة من سماع وقياس، إضافة إلى الضرورات الشعرية واتساع اللغة، وما تمنحه للشاعر دون غيره من حرية في الاستعمال، وإن كان خروجا أو انحرافا عن القاعدة فيعود ذلك إلى مطالب جمالية لكن ذلك لا ينفي وجوب إدراك أن الصواب اللغوي يضفي على التعبير قيمة جمالية لعلها أسمى قيمة ينبغي أن يتحلى بها النص الأدبي الرفيع، هذا وقد تميز "الجرجاني" في خطابه بشمولية النظر في قضايا الصرف وأبنية الألفاظ فقد وقف متوسطا بين اللغوي والشاعر، وبين الخصوم والمحتجين، وبين هؤلاء والمتلقي.

3- **المقياس النّحوي:** لقد درس علماء العربية منذ نحو ثلاثة عشر قرنا أو تزيد نظم الأداء اللغوي في أطرها المتعددة: الصوت، والكلمة، والجملة، والدراسة النحوية في أساسها معيارية؛ أي إن الهدف منها هو بيان الصواب في الاستعمال فالصحة اللغوية هي غاية الدراسة النحوية دون أن يكون لها التزام ببيان الأنماط المتفاوتة في الجودة، مع اتفاقها في الصحة،[50] وترك ذلك لغيرها من العلوم والدراسات كالبلاغة والنقد، الذي جمع بينهما هذا المقياس في دراسته للأداء اللغوي وبلاغته في النصوص الإبداعية خاصة الشعرية منها، فهو يبحث في الشكل من خلال الألفاظ والتراكيب اللغوية وفقا للمعيار اللغوي من نحو وصرف، والأبعاد

الجمالية للشكل في معانيه وأفكاره وفقا للمعيار الجمالي الذي تبحث في حدوده البلاغة بعلومها الثلاثة، وعلم العروض كإطار يعضد هذا البعد ويعمقه. وقد اتخذ "القاضي الجرجاني" من تتبع المآخذ النحوية طريقة وآلية في ممارسته، بنى على أساسها خطابه النقدي، في جملة من الآراء حددت ما للشعر وما عليه بتحكيم عنصري الجودة والرداءة، بالتوافق مع قواعد اللغة النحوية في الأولى، والخروج عنها في الثانية، وتبعا لذلك توسيع النظر والتطبيق على الشعر القديم والمحدث بهدف المقارنة والاحتجاج، والرد على الخصوم من جهة، ولإثبات علاقة اللغة الشعرية بقواعد النحو في الجانب الجمالي من ناحية ثانية، فكيف كان هذا التطبيق وهذه الممارسة؟

ونقف عند حدود نص أورده "الجرجاني" تحت مسمى 'أغاليط الشعراء'؛ يبين فيه موقفه مما ورد عند شعراء المذهب القديم من سمات للأداء اللغوي من الجانب النحوي، وقد أخضعها لمعيار الصواب والخطأ، متتبعا العيوب والأغاليط يقول: «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه، إما في لفظه ونظمه أو ترتيبه وتقسيمه أو معناه أو إعرابه»[51]؛ ليؤكد في هذا النص أن الذين يعيبون على "المتنبي" والمحدثين وقوعهم في أخطاء أخرجتهم عن دائرة اللغة المعيارية لفظا ومعنى وإعرابا، أو نظما وترتيبا وتقسيما، واتخذوا من شعر القدماء حول هذه المآخذ نموذجا ومثالا فإن شعرهم بالمثل لا يخلو من مثل هذه الأخطاء والانحرافات عن الاستعمال اللغوي كما أطّره اللغويون، وأصحاب الاختصاص.وقد اهتم "القاضي الجرجاني" بهذه الأخطاء عند الشعراء القدماء والمحدثين على السواء قبل أن يعرض آراء ضمت دفاعه عن "المتنبي" والرد على خصومه. واستعراض هذه الآراء يبين طريقته في تحكيم المعيار النّحوي، أكان يخالف ما عاب به النحويون الذين يتمحلون المعاذير لنصرة القديم، تلك المعاذير التي يشهد لها القلب لا العقل بأن المحرك لها والباعث عليها إعظام المتقدم والكلف بما ألفته النفس: «فلولا أن أهل

الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة، والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة، ومردودة منفية، لكنّ هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم، ونفى الظّنة عنهم، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام»[52]؛ فقد كانوا يحكمون الإطار المرجعي الذي طابت له نفوسهم؛ ولذلك فهم لا يستسيغون إلا ما وافق ذلك الإطار[53]، ولكن علينا ألا نتجاهل هنا أن النصوص الشعرية القديمة كانت دستور العرب، وحاملة أيامهم وأخبارهم؛ فالشعر الجاهلي ديوان العرب، وبالتالي كان بالنسبة لهم مصدرا لمختلف المعارف بما فيها تلك المتصلة باللغة، فلطالما كانت تلك الأشعار منبعا للاستشهاد النحوي والبلاغي...، فاكتسبت سمة الأصالة والمرجعية، ومن غير الهيّن الطعن في لغتها، فالشعر كما كان عند القدماء هو حامل لغتهم ولسان حالهم في الحرب والسلم، في الخير والشر، في الحل والترحال؛ لذا عدت لغته صافية النبع سليمة الطبع. وأول ما وقف عنده "القاضي الجرجاني" في نقده النحوي للنصوص القديمة هو مناقشة اللفظة المفردة من الناحية الإعرابية التي لها دور في إبانة المعنى، عن طريق الحركات التي تلحق آخرها، وما يحدث عليها من تغييرات حسب موقعها في الجملة، وكان ارتباط الإعراب بالمعنى سببا في تضييق النقاد من النحويين لزاوية الحرية في استعمال اللغة على الشعراء؛ حيث درسوا شعر هؤلاء الشعراء وتتبعوا هفواتهم وأخطائهم اللغوية.

➢ ومما ورد في الوساطة، رأي "القاضي الجرجاني" في قول "امرئ القيس":

*« أَيَا رَاكِبًا بَلِّغَ إِخْوَانَنَا * مَنْ كَانَ مِنْ كِنْدَةَ أَوْ وَائِلِ*

فنصب 'بلغ'»[54]؛ و'بلِّغ' فعل أمر مسند إلى ضمير المخاطب (أنت) العائد على (راكبا)، والأصل في إعرابه السكون، وهذا خروج عن القاعدة النحوية وسلامة الكلام ما أحدث خللا في انسجام الكلمة داخل السياق التركيبي.

➢ كما عاب قول "لبيد":« ترّاك أمكنة إذا لم أرضها* أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

فسكن 'يرتبط'، ولا عمل فيها للمْ»[55]؛ لأنّ أداة الجزم 'لم' جازمة لفعل واحد وحذفها عن الفعل الثاني غير جائز في عرف اللغة.

➢ ومما عدّه من الأغاليط التغيير في أبنية الألفاظ بالحذف على غير قياس نحوي، من ذلك ما أخذه على "طرفة" في قوله: «*قد رفع الفخ فماذا تحذري* فحذف النون»[56]؛ حذف "طرفة" النون في 'تحذري' والأصل فيها الثبوت 'تحذرين' لأنها من الأفعال الخمسة، ولم يرد في التركيب عذر نحوي لهذا الحذف كأدوات أو حروف للنصب أو الجزم. والملاحظ على هذه الأمثلة التي عرضها "الجرجاني" في سياق أغاليط الشعراء وما أنكره عليهم من مآخذ نحوية عدها خروجا عن قواعد اللغة المعيارية، أنه اكتفى فيها ببيان موضع الخطأ والإشارة إليه بتغيير الحركة الإعرابية للكلمة أو تغيير بنيتها بواسطة الحذف الذي لم يراعى فيه قانون الإعراب، ولم يشر إلى خصوصية اللغة الشعرية في تعاملها مع الاستعمالات اللغوية، وضرورات هذا الاستعمال؛ من أغراض بلاغية كالتعجب ولفت الانتباه والتأكيد، أو لأغراض فنية الهدف منها إقامة القافية واستقامة الوزن، أو ما يرتبط بالشاعر من مقاصد ودلالات للحذف أو تغيير الحركة الإعرابية مما يحتمل تسويغ هذه الأخطاء. ففي الوقت الذي عد فيه "الجرجاني" مآخذ النحويين على "المتنبي" نوعا من التضييق على الشاعر، مارس هو هذا التضييق على غيره من الشعراء واتخذ من ذلك سبيلا للدفاع عن "المتنبي" وتسويغ ما أخذ عليه من أغاليط في الجانب النحوي.

➢ ومن أمثلة ذلك: « ما أنكره عليه أهل العلم واستضعفوه في قوله:

جللا كما بي فليك التبريح * أغذاء ذا الرشإ الأغنّ الشيح[57]

فقال أهل الإعراب: حذف النون من 'تكن' إذا استقبلتها اللام خطأ، لأنها تتحرك إلى الكسر، وإنما تحذف استخفافا إذا سكنت»[58]؛ فلا يجوز حذف النون من

'تكن' إذا سبقها حرف الجر 'اللام' فالأصل فيها الجر بالكسرة، والحذف لا يكون إلا في حالة تسكينها وسببه التخفيف كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[59]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[60]؛ ففي هذه الآيات حذفت نون 'يكن' للتخفيف، لأنها جاءت ساكنة مسبوقة بأداة الجزم 'لم'، مع أنها لم تستقبل الألف واللام، وهذا ما ذهب إليه الخصم، والتخفيف رخصة لكنها لا تغني عن الأصل فيها وهو الإثبات كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[61]؛ فقد جاءت في هذه الآية على أصلها لأنها في موضع لم يستدع الحذف لتخفيف الكلام، كما أن أحكام التجويد التي تخص النون الساكنة تعطي فضاء آخر من الرخص كالإدغام والإظهار الذين يقابلان الحذف والثبوت.

أما رد المحتج عن "المتنبي" فقوله: «لعمري إن وجه الكلام ما ذكرتم، لكن ضرورة الشعر تجيز حذف النون مع الألف واللام، وقد حكاه "أبو زيد" عن العرب في كتابه المعروف بكتاب النوادر، وأنشد فيه "لحسين بن عُرفطة":

لم يك الحق سوى أن هاجه * رسم دار قد تعفى بالسرر

وأبو زيد ثقة، والرواية عن العرب حجة»[62]؛ فقد أجاز المحتج مثل هذا الاستعمال بمرجع سماعي حكمت فيه الضرورة بحذف النون لالتقائها بالألف واللام، وهذا ما خطّأه أهل الإعراب كما جاء في خطاب الخصم. وبالعودة إلى النص القرآني نقف عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[63]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا﴾[64]؛ ففي هذه الآيات لم تحذف نون 'يكن' مع استقبالها للام لأنها متحركة إلى الكسر، وهذا ما ذهب إليه خصم "المتنبي" فيما أخذ عليه من قبل.

واللافت للانتباه في هذا النص، الذي أورده "الجرجاني" اتفاق الخصمين في الرأي؛ فإن كان الخصم يقر بجواز حذف نون 'تكن' في حالة تسكينها فحسب من باب التخفيف، فإن المحتج صادق على ذلك بالقسم 'لعمري'، ثم قدم هذا المحتج

حجة سماعية تجيز حذف النون مع الألف واللام فيما يأتي بعدها (التبريح/ الحق) لكن الملاحظ أن الفعل 'يكن' في بيت "حسين بن عرفطة" مسبوق بأداة الجزم 'لمْ' ما جعل الحذف فيه جائزا للتخفيف لأن النون فيه ساكنة، وهذا ما أشار إليه الخصمان بالاتفاق، وهذا طعن في حجة المحتج عن "المتنبي"، بل غدت حجة ضده؛ تؤكد ما أخذ عليه وإن كان من باب الضرورة فإن العلة غير صحيحة، كما أن نون 'تكن' و'يكن' في البيتين تتحرك إلى الكسر إذا استقبلتها الألف واللام، فلا يجوز الحذف في هذه الحالة، وبالتالي تبقى هذه الحجة سماعية، قائمة على الضرورة الشعرية كما وردت عند "أبي زيد" في كتابه.والملاحظ على خطاب "القاضي الجرجاني" أنه اكتفى في دفاعه عن "المتنبي" بذكر رأي المحتج على ما أخذ عليه، هذا الذي اعتمد على الضرورة الشعرية وما ورد في كلام العرب كمثال وحجة لهذا الاستعمال.

- ومما أنكر على "المتنبي" قوله:

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ العُيُونُ بِنَظْرَةٍ * أَثَابَ بِهَا مُعْيِي المَطِيِّ وَرَازِمُه[65]

« فزعموا أن كلام العرب: ثاب جسم فلان: رجع لقوته بعد المرض، وهذا "أبو زيد" يروي عن العرب: أثاب الرجل إذا ثاب إليه جسمه، وقد حكاه عنه "أبو عبيد" في الغريب المصنف، وحكى غيره ثاب وأثاب بمعنى واحد»[66]؛ "فالجرجاني" لا يرى في زيادة "المتنبي" لألف في 'أثاب' عيبا يؤخذ عليه، لأنها لا تخل بالمعنى وهي محكية عن العرب بالصيغتين (ثاب / أثاب) بمعنى صحة الجسم وقوته بعد المرض[67]، وقد استند "الجرجاني" في دفاعه إلى مصدر السماع، الذي يغني عن غيره من المقاييس والمصادر، وهو حجة كافية لا تحتاج إلى المناقشة والاحتجاج بغيرها. وإن كانوا قد عابوا على "أبي الطيب" هذا الاستعمال، فقد ورد عند غيره ما هو أفظع مثل ما أخذه "القاضي الجرجاني" على "ذي الخرق الطُّهوي" في قوله:

« يَقُولُ الخَنَى وَأَبْغَضُ العُجْمِ نَاطِقًا * إِلَى رَبِّنَا صَوْتُ الحِمَارِ اليُجَدَّعُ

فأدخل الألف واللام على الفعل»[68]؛ فما ورد عند "الطهوي" في تعريف الفعل بالألف واللام 'اليجدع' من الاستعمالات المنحرفة عن اللغة المعيارية وخرق لقواعدها النحوية التي تتعلق بالفعل؛ حيث أراد معنى 'الذي يجدع، وحمار مجدع:

مقطوع الأذن'[69]، وكان بإمكانه استعمال صيغة اسم المفعول 'المجدع' فيستقيم له الكلام والوزن، وإن غير حركة الروي فرخصته الضرورة؛ التي يراها "أبو بكر بن السراج" من أقبح الضرورات في قوله –تعليقا على هذا البيت"–: «لما احتاج إلى رفع القافية قلب الاسم فعلا، وهو من أقبح ضرورات الشعر»[70]؛ فتكون بذلك زيادة الألف واللام للفعل 'يجدع'، على غير مصدر صحيح ولا علّة صائبة، أثقل وأسوء من زيادة ألف للفعل 'ثاب' عند "المتنبي" بمرجعية السماع، لأن فيه خروجا عن القاعدة إلى اللاقاعدة بقلب الاسم فعلا عن طريق تغيير بنية اللفظ.وبناء على ذلك عدّ "القاضي الجرجاني" ذلك مبالغة في النقد وتتبع الأخطاء لا تستدعي الوقوف عندها بالمناقشة والرد عليها بالاحتجاج، ومن ناحية أخرى رأى أن مثل هذه الوقفة تعد انشغالا عن منهجه في التوسط؛ الذي أراد من خلاله الوقوف على المشتبهات من الأمور التي تحمل على الالتباس وتستدعي المناقشة والتحليل حتى يبين ما للشاعر مما عليه، تتضح هذه الرؤية في قوله: «ولو عرجنا على كل معترض وأصغينا لكل قائل لامتد بنا القول ولأعجزنا كثرة الخصم عن امتحان الشهادات، وشغلنا باتصال الدعوى عن التوسط، وإنما يقصد بالكشف ما يشتبه ويتوسط في الأمر الذي يشكل ويلتبس، ونصون كتابنا عن سخيف الاعتراض، كما نصونه عن ضعيف الانفصال»[71]؛ فهو يسعى إلى كشف ما هو مشتبه، لذلك استبعد ما وصفه بالاعتراض السخيف من خصوم "المتنبي" الذين يسعون في الطعن في شعره بتتبع أبسط أخطائه وهفواته، بهدف إسقاطه كهدف يغنيهم عن الإحاطة بالأسباب والعلل اللغوية والشعرية، ويكتفون لذلك بالمقارنة مع بعض الآراء والأبيات الشعرية لغيره، ومما جاء في كلام العرب دون اعتماد ما جاء في كلامهم من اختيارات متنوعة لاستعمال واحد قد تكون نتيجة لأسباب التوسع، كالسماع مثلا. كما أن الاهتمام بآراء الخصوم على كثرتهم، مما أدرجه ضمن الاعتراضات السخيفة وإن كان تحريا للشمول والإحاطة بكل ما أخذ وأنكر من شعر "المتنبي"؛ سيشغله عن التوسط ويتغير منهجه وغايته إلى السعي إلى إعجاز هؤلاء، وإغفاله

عن إثبات شعرية "المتنبي" من عدمها والتوسط من خلاله للنص الشعري عن طريق التوسط في مذهبه عند القدماء والمحدثين.

- وكما تعرض "الجرجاني" للأخطاء النحوية التي لحقت الأفعال، عرض لما لحق الأسماء منها.

ومن أمثلة ذلك؛ ما عابه على شاعر أنشد "المفضل" قوله:

« كَانَتْ عَجُوزًا عَمَّرَتْ زَمَانَنَا * وَهِيَ تَرَى سَيِّئَهَا إِحْسَانَا
تَعْرِفُ مِنْهَا الأَنْفَ وَالعَيْنَانَا

ففتح النون من 'العينانا'»[72]، والأصل فيها الكسر، ويقصد بفتح النون التغيير في بنية الكلمة بإضافة الألف الذي استدعى الفتحة، التي لا تعتمد كحركة إعرابية فلفظة'عينان' منصوبة بالياء لأنها مثنى 'عينين'، فالتزم الألف فيها على الرغم من كونها مفعولا به، ويبدو أنه أتى بذلك لضرورة انسجام القافية والروي (إحسانا/عينانا)، وقد استند في تأكيد ذلك على تعليق "ابن هشام" على هذا البيت بقوله: «إنه شعر مصنوع»[73]؛ الغرض منه إتمام القافية دون مراعاة استقامة الكلام وسلامة اللغة فيه. كما عاب على "امرئ القيس" قوله: « كَأَنَّ ثَبِيرًا مِنْ عَرَانِينَ وَبْلَة * كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ، فخفض 'مزملا'، وهو وصف كبير»[74]؛ فالأصل فيها النصب لأنها صفة لكبير. ومما أورده تعقيبا على هذا البيت قوله: «تأول النحاة لخفضه فقالوا: إنه على الجوار مثل قولهم: هذا جحر ضب خرب (بكسر خرب)»[75]؛ لأن الأصل في 'خرب' الرفع لأنها خبر للمبتدأ 'جحر'، لكن النحاة أولوا كسرها بالجوار لاسم مجرور فحملت محمله، وهذا مصدر قياسي أقره النحاة لكن "القاضي الجرجاني" يرى فيه خطأ ينكر حضوره لدى الشاعر، لذا عابه على "امرئ القيس"، ودليل ذلك أنه لم يأخذ بتأويل النحاة في ذلك.

- ومما أخذ على "المتنبي" حول الأسماء ما ورد في قوله:

ليس إلاك يا علي همام * سيفه دون عرضه مسلول[76]

وقوله: لم تر من نادمت إلاكا * لا لسوى ودّك لي ذاك[77]

« فأنكروا اتصال الضمير بإلا، وحق الضمير أن ينفصل عنها، وبذلك جاء القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِيَّاهُ إِلَّا تَدْعُونَ مَن ضَلَّ﴾[78]، وهو الظاهر في قياس النحو والمشهور عن العرب، وقد روى الفراء بيتا عن العرب احتج به أبو الطيب واحتذى عليه:

فَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنْتِ جَارَتَنَا * أَلاّ يُجَاوِرَنَا إِلاّكِ دَيّارُ

وأنا أرى أن لا يطالب الشاعر بأكثر من إسناد قوله إلى شعر عربي منقول عن ثقة وناهيك بالفراء»[79]؛ فبعد إلا يرد الضمير المنفصل، لذا أخذ على "المتنبي" هذا الاستعمال، وقد ورد مجيء الضمير المنفصل بعد إلا في القرآن الكريم في الآية التي عرضها "الجرجاني" كمثال، كما وردت متصلة في الشعر، كالبيت الشعري الذي احتج به "المتنبي" واحتذاه، وعد ذلك من قياس النحو؛ و"الجرجاني" يرى أن هذا المصدر السماعي خير دليل على صحة واستقامة ما جاء في بيت "المتنبي" لأنه منقول عن ثقة من علماء النحو وهو "الفراء"، وهو اعتراف باتباع المصدر الثاني من مصادر أخذ اللغة؛ القياس النحوي؛ فاكتملت الحجة في رأي "القاضي الجرجاني" بعد أن اكتملت لديه آراء الخصوم واحتجاج "المتنبي".

- كما كانت له بعض التطبيقات النحوية حول عيوب الحروف والأدوات:

ونقف من ذلك عند مثال رأينا فيه من الأهمية ما يغني عن غيره؛ فمما أخذه "الجرجاني" على "المتنبي" كثرة استعماله لاسم الإشارة 'ذا': «وهو أكثر الشعراء استعمالا لذا التي هي للإشارة، وهي ضعيفة في صنعة الشعر، دالة على التكلف وربما وافقت موضعا يليق بها، فاكتست قبولا»[80]؛ هو يرى إذن أن اسم الإشارة 'ذا' من الاستعمالات الضعيفة في الشعر، فهي توحي بالتكلف، لكنه ليس حكما مطلقا لأن استحسانها أو إنكارها متعلق بملاءمتها للموضع الذي تشغله.

ومن مواضع إنكارها في شعر "المتنبي" ما أورده "الجرجاني" من أمثلة نذكر منها على سبيل التمثيل قوله:

قَدْ بَلَغتَ الَّذِي أَرَدت مِـنَ البـر * وَمِنْ حَـــقٍّ ذَا الشَّرِيفِعَلَيْكَا

وَإِذَا لَمْ تَسْر إِلَى الدَّارِ فِي وَقْتِـ * ـك ذَا خفت أَنْ تَسِير إِلَيْكَا[81]

وقوله: عَنْ ذَا الَّذِي حَرَّمَ اللُّيوثَ كَمَالُهُ * يُنْسِي الفَرِيسَةَخَوْفَهُ بِجَمَالِهِ[82]

يقول "القاضي الجرجاني" معلقا على هذه الأبيات: « فهو –كما تراه– سخافة وضعفا، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الإشارة، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا، والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن في الفرط والندرة، أو على سبيل الغلط والفلتة»[83]؛ إن "القاضي الجرجاني" في نصه هذا ينكر على "المتنبي" وغيره من الشعراء المحدثين كثرة استعمال اسم الإشارة وعد الإفراط فيه عيبا وضعفا، بل وسخافة تفقد الشعر قوته ورونقه، على خلاف الشعراء الجاهليين الذين يخلو شعرهم من هذا الاستعمال، وإن وجد اسم الإشارة في دواوينهم فهو على سبيل الغلط والفلتة؛ حتى شكل ذلك فرقا بين المذهبين في القوة والضعف، في الطبع والتكلف، وبالعودة إلى شعر "المتنبي" في الأمثلة السابقة؛ يظهر تردد اسم الإشارة 'ذا' بشكل لافت، وقد تكرر في بعضها مرتين في البيت الواحد؛ ما أسهم في قبحه وثقله وتعقيده. وتستوقفنا نظرة "القاضي الجرجاني" في نصه السابق في مقارنته بين النص الشعري القديم والحديث في استعمال اسم الإشارة؛ لتوحي بتميز خطابه بالتوسط للنص الشعري دون الاعتداد بمذهب دون آخر، فهو يرى في كليهما من سمات أدائية ترتقي بالنص الشعري إلى مصاف الجودة؛ حيث فضل الشعر الجاهلي على الحديث في هذا الاستعمال، وعده من سمات ضعف ورداءة الشعر المحدث بخروجه عن النمط القديم، من التفريط إلى الإفراط والتكلف في صنعة الشعر، هذا وقد أقر من قبل في نص سابق بالاعتذار لما ورد في شعر المحدثين من أخطاء لا تسيء لشعرهم، إذا ما قورن بشعر القدماء الذين لا تخلو دواوينهم من مثل هذه الأخطاء؛ ويبدو أن "القاضي الجرجاني" اتخذ من ذلك سبيلا للتوسط "للمتنبي" من جهة، وللنص الشعري قديمه وحديثه كل حسب سياقاته الحضارية والمعرفية من جهة ثانية.بناء على ما تقدم يمكننا القول: إن المكون اللغوي للنص الشعري، أخذ حيّزاً من عناية النقاد فأكثروا من صفاته باحثين عن الجانب الجمالي، لذا كان الحرص النقدي منصبا على دراسة هذا المكون من ناحية مقاييسه ومعاييرها، وفي محاولة لذلك، كان الشعر مادة

لدراساتهم وممارستهم النقدية في حدود لغته وما تتميز به من ناحية الأداء والاستعمال، و"القاضي الجرجاني" واحد من هؤلاء النقاد؛ فقد حرص في وساطته على الإلمام بهذه الحدود متوسطا في ذلك بين القديم والحديث، ومما لاحظناه في خطابه التطبيقي خلال ممارسته النقدية في كشف معالم لغة الشعر، وما تتسم به من خصوصية، أنه حاول الإلمام بمختلف الجوانب والاتجاهات التي تدرس الأداء اللغوي من معجم وصرف ونحو.

الهوامش:

1- أحمد بن عثمان رحماني: النقد التطبيقي "الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري" ص243.

2- عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ط1، 1986م ج4، ص 378.

3- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 181.

4- المصدر نفسه، ص 24.

5- أبو الطيب المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط 1983م ص395 / عوابس: الخيل كالحة لما أصابها من الجهد، المناطق: جمع منطقة: ما يشد بها الوسط.

6- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 466.

7- المصدر نفسه، ص467/ غرار: انقطاع الدرة، تعطى أحيانا وتمنع أحيانا.

8- المصدر نفسه، ص467، وينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص 262.

9- عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج3، ص 65.

10- ديوان المتنبي، ص 98.

11- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 461.

12- محمد عبد الرحمن شعيب: المتنبي بين ناقديه "في القديم والحديث"، دار المعارف القاهرة مصر، دط، 1964م، ص 53.

*- بالعودة إلى لسان العرب لم نجد للفظ موضعا ضمن مادة المعجم.

13- عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج1، ص 241.

14- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 461.

15- المصدر نفسه، ص 462.

16- المصدر نفسه، ص 462

17- المصدر نفسه، ص 461.

**- الدشت: الصحراء.

18- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 461.

19- المصدر نفسه، ص 36/ تمرمر: تتمايل، حليه: زينته.

20- أحمد عثمان رحماني: النقد التطبيقي "الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري"، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد الأردن، جدارا للكتاب العالمي، عمان الأردن، ط1، 2008م ص253.

21- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 36.

22- أحمد عثمان رحماني: النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري ص 253.

23- المرجع نفسه، ص 281.

24- المرجع نفسه، ص281، نقلا عن: ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 104.

25- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة مصر، دط، دت، ج2، ص267.

26- ديوان المتنبي، ص37، وقد ورد بلفظ 'القناعة'.

27- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 462.

28- المصدر نفسه، ص 462.

29- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج8، ص 297.

30- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر، بيروت، لبنان، ط 8، 2005م، ص 756.

31- عبد الرحمن شعيب: المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، مكتبة الخانجي القاهرة مصر ط1، 1992م، ص 64.

32- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 62.

33- المصدر نفسه، ص 62.

34- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص 766.

35- ابن منظور: لسان العرب، ج8، ص 349.

36- ديوان المتنبي، ص 31.
37- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 450.
38- الكهف، 2.
39- هود،1.
40- ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص 383.
41- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص 1230.
42- ينظر: القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 450.
43- المصدر نفسه، ص 451.
44- ينظر: المصدر نفسه، ص 456.
45- المصدر نفسه، ص 455.
46- المصدر نفسه، ص 455.
47- الكهف، 76.
48- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 454.
49- المصدر نفسه، ص 452.
50- محمد عبد الله جبر: الأسلوب والنحو "دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية"، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية مصر، ط1، 1988م ص15.
51- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 4.
52- المصدر نفسه، ص 4.
53- أحمد عثمان رحماني: النقد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابع الهجري ص321.
54- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 5.
55- المصدر نفسه، ص5.
56- المصدر نفسه، ص5.
57- ديوان المتنبي، ص66 . /التبريح: الجهد والأذى، الرشأ: ولد الظبية
58- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 441.
59- لقمان، 16.
60- مريم، 9.
61- النساء، من الآية 113.

62- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 441.

63- النساء، 137.

64- النساء، 38

65- ديوان المتنبي، ص257./ الرازم: الذي سقط من الإعياء

66- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص440.

67- ينظر: عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج4، ص49.

68- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص6.

69- ينظر: المصدر نفسه، ص6، وينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج8، ص41.

70- ابن منظور: لسان العرب، ج8، ص41.

71- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص440.

72- المصدر نفسه، ص7.

73- المصدر نفسه، ص7.

74- المصدر نفسه، ص8/ ثبير: جبل، العرانين: الأوائل، بجاد: كساء قطط من أكسية الأعراب.

75- المصدر نفسه، ص 8.

76- ديوان المتنبي، ص431

77- المصدر نفسه، ص154.

78- الإسراء، من الآية 67.

79- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 457.

80- المصدر نفسه، ص 95.

81- ديوان المتنبي، ص 219.

82- المصدر نفسه، ص 285.

83- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 97.

المنحى التداولي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ت (684هـ)

أ. خديجة كلاتمة

جامعة بسكرة

ملخص: تحاول هذه الدراسة أن تربط تصورات البلاغيين القدامى في تحليلهم للأقوال ووصفهم للغة العربية بما توصلت إليه الدراسات اللسانية المعاصرة في مجال التواصل وتحليل الخطاب، ولعل أهم وأنسب جهاز استخدمته هذه الدراسات لوصف اللغة ما يسمى بالتداولية La paragmetique أو علم استعمال اللغة؛ لأنه يعمل على ربط اللغة بالواقع الخارجي المعرفي ويدرس أحوال استعمالها في مقاماتها المختلفة بحسب أغراض المتكلمين. ولأن ما يتأسس عليه هذا العلم لا يختلف كثيرا عما أسس به علماؤنا لغتهم العربية جاءت هذه الدراسة لتظهر بعض مظاهر التداولية في خطاب عربي وهو منهاج البلغاء الذي جاء لينهض بالقصيدة العربية في زمن اختل فيه نظم الشعر مراعيا في ذلك قوانين صناعة الشعر والتركيز على المتكلم والشروط التي يجب أن تتوفر في القول الشعري ومناسبته لمقامات التكلم. تسعى الدراسات اللغوية العربية اليوم لتقريب تراثنا اللغوي إلى فهم القارئ العربي بطرق وآليات ومناهج لسانية معاصرة وربّما كان ذلك لعجز منا على فهمه وقراءته بأبعاده التداولية العربية ومجاله المعرفي العربي الخالص، ذلك أن ما قدمه علماؤنا اللغويون القدامى يقارب ما توصلت إليه الدراسات اللغوية الغربية المعاصرة ويسبقها بسنين عديدة، فحري بنا إذن أن نبحث في مضامين هذا التراث الثر بقواعد وأسس تحليل اللغة وتفسير ظواهرها المختلفة. ولعل التداولية la paragmatique من أهم أجهزة وصف اللغة

العربية التي توليها الأبحاث اللغوية المعاصرة اليوم اهتماما كبيرا خاصة في مجال تحليل الخطاب وفي مجال التواصل، لأنّها تربط اللغة بالواقع الخارجي المعرفي. وتعرف عموما بأنها «دراسة تهتم باللغة والخطاب وتنظر في الوسيمات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي[1]» وتعرف أيضا بأنّها «دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية، في نفس الوقت[2]» كما تعرف بدراسة استعمال اللغة أي إنّها تدرس أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين[3] فهي تسعى للإجابة عن أسئلة كثيرة جوهرية[4]: من يتكلم؟ من يستقبل؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟ في أي مكان وأي زمان نتكلم؟ وإذا كانت التداولية تتأسس على هذه الأمور فإنّها لا تختلف كثيرا عما أسس به علماء اللغة العربية قديما علومهم اللغوية في تحليلهم للكلام ومختلف ضروبه، والنظر في أحوال المتكلمين والمتلقين ومقامات التكلم. وهم بهذا كانوا يصفون اللغة وأحوالها المتغيرة أثناء استعملها. ولبيان ذلك نحاول أن نقدم نموذجا من مدوناتنا البلاغية و النقدية نسعى من خلاله إلى إبراز المنحى التداولي في التراث العربي، ألا وهو منهاج البلغاء وسراج الأدباء لـــ"حازم القرطاجني" تـــ (684هـــ) هذا الكتاب الذي سعى فيه صاحبه إلى تأسيس نظرية شعرية يعالج فيها بناء الشعر العربي، وتقديم المنهج المثالي لبناء القصيدة العربية و ذلك بإعادة النظر في كثير من القضايا البلاغية والنقدية بعدما فسد الطبع واختلت صناعته وكيفية نظمه وفي ذلك يقول حازم: «وإنما هان الشعر على الناس هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم. فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة فصرفوا النقص إلى الصنعة، والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم؛ ولأنّ طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضا. فرأوا أخسّاء العالم قد تحرّفوا باعتفاء الناس واسترفاد سواسية السوق بكلام صوّروه في صورة الشعر من جهة الوزن والقافية خاصة، من غير أن يكون فيه أمر آخر من الأمور التي يتقوّم بها الشعر»[5]. ولهذا كان حازم يسعى إلى إرساء قوانين صناعة الشعر مراعيا

فيه جوانب عديدة في صناعة القول الشعري وتلقيه، كالتركيز على المتكلم ومقصديته، والشروط التي يجب أن تتوفر في القول الشعري من اختيار الألفاظ والنظم والأسلوب، والشروط التي يجب أن تتوفر في المتلقي لتقبل الشعر والتأثير فيه، وكيف تكون الأقوال الشعرية مناسبة لمقامات التكلم. واهتمامه بهذه الأمور تقارب اهتمامات الدرس التداولي لذلك أردنا أن نقارب اللغة الشعرية عند حازم تداوليا ونبحث عن مظاهر التداولية عنده.

المتلقي ومقاصد المتكلم في المنهاج: تولي الدراسات التداولية المعاصرة التي تهتم بتحليل الخطاب والتواصل اللساني عناية كبيرة بالمتلقي؛ لأنه الطرف المحرك للعملية التخاطبية والأساس الذي يقوم عليه فعل الإقناع، فلا يمكن للمتكلم أن يحقق أغراضه ومقاصده ما لم يحط علما بظروف عملية التخاطب وأحوال السامعين ومدى تهيّئهم واستعدادهم لاستقبال ما سيتم التلفظ به من قبل المتكلم، كما أن عملية فهم مقاصد المتكلم وتأويلها أو تفسيرها متوقفة على الخلفية المعرفية للمتلقي ومدى امتلاكه للكفايات المطلوبة ككفاية التأويل والكفاية اللسانية والكفاية التواصلية (البلاغية والتداولية) والكفاية المنطقية وفي هذا نجد جون ليونز lyons يقول: «إن التمييز بين المتلقي والمخاطب المقصود ذو فائدة كبرى في التواصل لأن المرسل يبني كلامه ويعدل فيه غالبا تبعا لما يعتقده عن واقع معارف مخاطبه المقصود وعن وضعيته الاجتماعية[6] والمتلقي عند حازم حاضر في جميع أقسام كتابه ومباحثه حيث يجعله الأساس الذي تقوم عليه شعرية القصيدة العربية، ويظهر ذلك في بحثه عن المعاني وما تعرف به أحوالها من حيث ملاءمتها للنفوس أو منافرة لها[7]، كما يظهر في بحثه عن طرق العلم بكيفيات مواقع المعاني من النفوس من جهة (...) وما تكون قوية الانتساب إلى طرق الشعر المألوفة والأغراض المعروفة عند جمهور من له فهم بالطبع أو ضعيفة الانتساب إلى ذلك[8]. وفي بحثه عن طرق المعرفة بالوجوه التي لأجلها حسن موقع المحاكاة من النفس يظهر

اهتمامه بالمتلقي واضحا للعيان، ونجد اهتمامه جليا في بحثه عن النظم وما تعرف به أحواله من حيث يكون ملائما للنفوس أو منافرا لها من القوانين البلاغية[9]. وفي تحليل حازم لهذه الأقسام وغيرها التي تعنى بالمتلقي يحاول أن يرسخ البعد التأثيري الذي يجب أن يعتمد في القول الشعري، وذلك لا يكون إلا بالتهدي إلى العبارات الحسنة من خلال اختيار المواد اللفظية من جهة حسن ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها واجتناب القبيح منها، ومراعاة حسن الـــتأليف وتلاؤم حروف الكلمات وتلاؤم الكلمة مع الكلمة. وعلى الناظم أن يتسهل في العبارات فلا تكون الكلم متوعرة فيها أن تكون مطابقة لمعناها ويبتعد عن التكلف[10]. ولإظهار الجانب التأثيري في القول الشعري يقول حازم: «وبقوة التهدي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة. فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والائتلاف والاستعمال المتوسط. والطلاوة تكون بائتلاف الكلم من حروف صقلية وتشاكل يقع في التأليف ربّما خفي سببه وقصرت العبارة عنه. والجزالة تكون بشدة التطالب بين كلمة وما يجاورها وبتقارب أنماط الكلم في الاستعمال... فهذه إشارة إلى ما يجب أن يتفقده الناظم ويلتفت إليه، على قدر قوته، من الجهات التي تحسن منها العبارات أو تقبح»[11]. كما أنّه يسعى إلى وضع شروط لابد للمتلقي من التحلي بها كضرورة استعداده لتقبل الشعر وإيمانه بوظيفته الشعرية بعدما فقدها في مرحلة الضعف؛ ذلك أن البعد التأثيري للقول الشعري لا يتحقق ما لم يكن المتلقي مستعدا ومهيئا ومقتنعا بجدواه. ويشير حازم أيضا إلى قضية هامة وهي الخلفية المعرفية المشتركة بين ناظم الشعر ومتلقيه، ونجد ذلك في معالجته لقضايا المحاكاة حيث ذكر جملة من الشروط تحدد معرفة كل منهما بالأشياء (موضوع المحاكاة) فيقول بأنه ينبغي أن ينظر في المحاكاة التشبيهية من جهات، كأن تكون في الأمور المحسوسة حتى تساعد المتلقي على فهم معاني الأشياء، كما لابد أن

يكون الشيء المحاكى به أقرب إلى الشيء المحاكى ويكون معروفا عند جميع العقلاء أو أكثرهم ولا يستحسن أن يكون منكرا أو مجهولا، كما يجب أن تكون الأوصاف المشتركة بينهما أشهر الأوصاف وأكثرها قربا بين الشيئين ويشترط في المحاكاة التي يقصد بها تحريك النفس إلى طلب شيء أو الهرب منه، أن يكون ما يحاكى به الشيء المقصود إمالة النفس نحوه مما تميل النفس إليه[12]. وحِرْص حازم على الاهتمام بالمتلقي وتركيزه عليه يظهر أيضا في مفهومه للشعر حيث نراه يقول: «الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من جنس تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك»[13]؛ فالشعر عنده من المنظور التداولي فعل كلامي يقصد به تغيير سلوك ما والتأثير في المتلقي إما بالإيجاب أو بالسلب بشرط أن يكون مقرونا بالتخييل والمحاكاة والمقصود بالتخييل «الأثر الذي يتركه القول الشعري في نفس المتلقي وما يترتب عنه من سلوك»[14] ويعرفه "ابن سينا" بأنه: «انفعال يظهر في صورة تعجب أو تعظيم أو غَمٍّ أو نشاط»[15] وهو عند حازم «أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيَّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا بغير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض»[16] أما المحاكاة فهي جزء من التخييل تعمل على التأثير في المتلقي وهي إيراد مثل الشيء وليس هو هو، كأن يحاكى الشجاع بالأسد، والجميل بالقمر، والجواد بالبحر[17]. ويقوم كل فعل كلامي في الدرس التداولي على مبدأ القصدية[18] فالمتكلم باعتباره الباعث يستطيع تحديد الأغراض ومقاصدها والمعنى الذي يصل إليه المتلقي أو السامع مرتبط بما ينويه المتكلم من مقاصد، خاضعة لشروط مقامية

ومقالية وهذا ما يدل على أن القصد وحده غير كاف لتحقيق الأغراض الشعرية فالمعاني لا تخضع لقصدية المتكلم وحسب بل محكومة بكفايات المخاطَب ومدى حدسه بقصدية المتكلم «لأن تأويل المخاطب للملفوظ يعني أنّه يحاول عن طريق التخمين إعادة مشروع الملفوظ كما تصوره المتكلم أول مرة. وبعبارة أخرى فإن الملفوظ يعني ما يظن المخاطب به أنه يمثل قصد المتكلم»[19]؛ فالمعنى الذي نبحث عنه في أنواع الخطابات ليس سوى القصد والغرض الذي كانت من أجله اللغات والتواصل[20] وهذا ما نجده في تعريف "ابن جني" للغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[21] فالقصد إذاً جزء هام وعنصر مساعد في الوصول إلى المعنى وتحليل شفراته. ولهذا نجد حازما في مفهومه للشعر يجعل قصد المتكلم يدخل في عملية التأثير في المتلقي شرط أن يتضمن ذلك القصد شيئا من التخييل والمحاكاة لبلوغ الغرض المنشود. ويظهر دور القصد في تحقيق الأغراض الشعرية عند "حازم" في حديثه عما يجب أن يعتمده الناظم من اختيار الوقت المساعد وإجمام الخاطر والتعرض للبواعث على قول الشعر والميل مع الخاطر كيف مال فعليه أن يحضر مقصده في خياله وذهنه والمعاني التي هي عمدة له بالنسبة إلى غرضه ومقصده.[22] وينبه "حازم" ناظم الشعر بأن يبدأ في تقسيمه للمعاني والعبارات على الفصول بما يليق بمقصده وأن يختار الأعاريض المناسبة للأغراض والمقاصد؛ فالأعاريض الفخمة الرصينة تصلح لمقاصد الجد والأعاريض الجزلة تليق بالمقاصد التي تحتاج إلى الجزالة والمقاصد التي يراد فيها إظهار الشجو والاكتئاب تليق بها الأعاريض التي فيها حنان ورقة[23]. ولتأكيد اهتمام حازم بقصدية المتكلم ودورها في إبراز شعرية القصيدة العربية ندرج مخططا نلخص فيه مقاصد المتكلمين وكيفية تصرفهم في المعاني الشعرية:

مقاصد المتكلم واعتقاداته وأحكامه في التصورات المتعلقة بغرضه

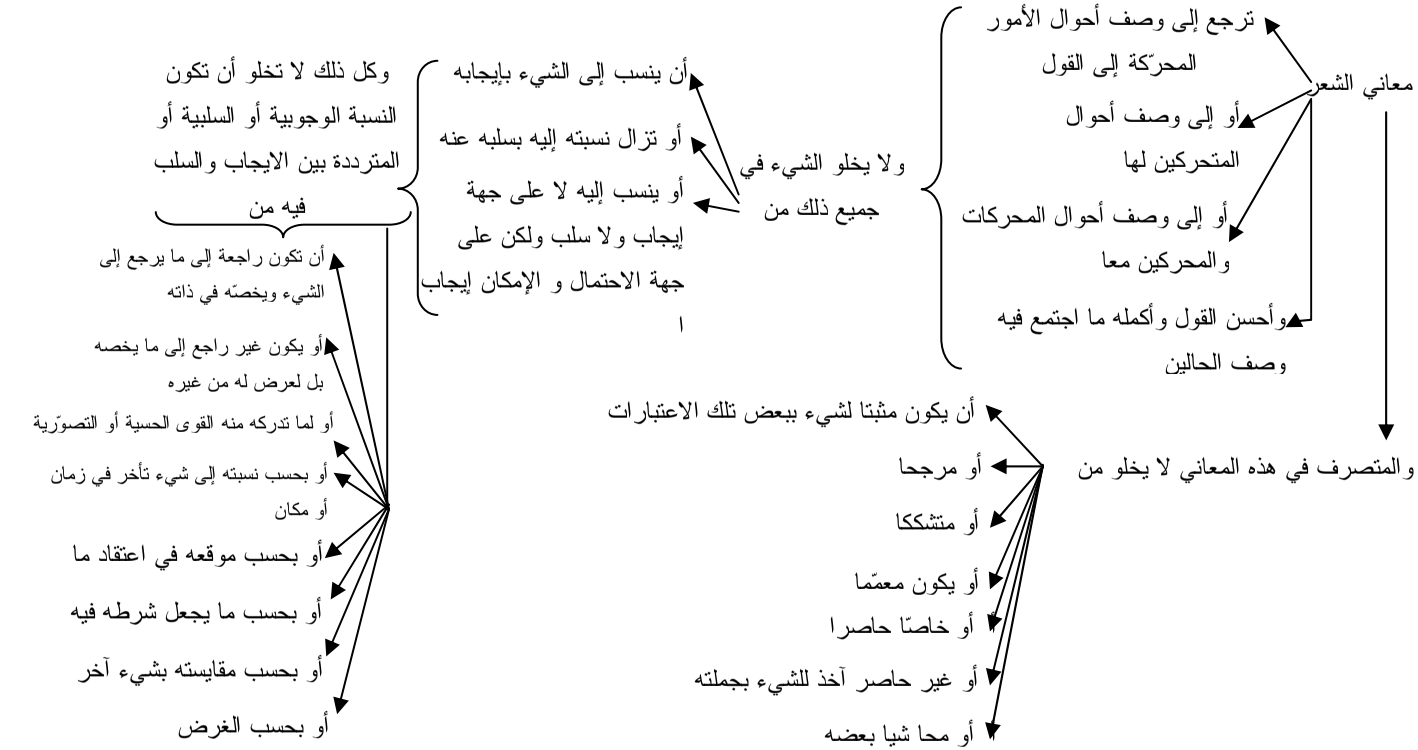

مناسبة الأقوال الشعرية لمقامات التكلم في المنهاج: المقام من أساسيات البحث التداولي لأنه يبحث في العلاقة التي تجمع اللغة بمستعمليها وأحوالهم والظروف والملابسات التي أنتجت فيها الأقوال، ولا يمكن لأي كان أن ينتج رسالة ما دون النظر في السياق العام الذي يحيط بها، فإن كان الباث يرمي إلى التأثير في المتلقي وإقناعه بأمور أو رده عن أمور أخرى فعليه أن يختار ما يناسب مقام ذلك من ألفاظ، ونظم، وأسلوب، ومعرفة مقام التكلم يسهل على المتلقي عملية تفسير وتحليل وتأويل الكلام، فالمتكلم والمخاطب والزمان والمكان، والملفوظات والكفايات التي يمتلكها كل منهما تشكل مكونات المقام الثابتة، وهناك مكونات متغيرة تدخل فيها بعض القرائن كدرجة القرابة، والعلاقات الاجتماعية، المستوى الثقافي[24]... فالمقام إذاً «مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه، ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما... وهذه العوامل كلها والمؤثرة على إنجاز القول هي التي تشكل المقام»[25]. وفكرة المقام تأسست عليها البحوث اللغوية العربية القديمة وكان من بينها المنهاج إذ نجد عناية حازم بفكرة المقام بارزة للعيان فقد ترددت عنده عبارة (لكل مقام مقال) ثلاث مرات في سياقات مختلفة ولكن العمل بها أمر متحقق في منهاجه حيث يجعل من مراعاة مقامات التكلم شرطا ضروريا تتأسس عليه الأقوال الشعرية البانية للقصيدة العربية لتحقيق أغراضها التي يرمي إليها الشاعر، ومن نماذج عناية حازم بالمقام لتحقيق شعرية القصيدة العربية قوله: «فقد تبين أنّ للشعر مواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الكاذبة، والصادقة، ومواطن لا يصلح فيها استعمال الأقاويل الكاذبة، ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال/ الكاذبة أكثر وأحسن، ومواطن تستعمل فيها كلتاهما من غير ترجح. فهي خمسة مواطن لكل مقام منها مقال»[26] وفي حديثه عما يجب اعتماده في مدح صنف من الناس يظهر دور المقام في اختيار الأوصاف المناسبة لكل ممدوح فمدح

الخلفاء يختلف عن مدح الأمراء ومدح الوزراء ومدح القضاة وكلٌّ يختلف مدحه عن الآخر فعلى الناظم أن يحافظ على ما يجب اعتماده في امتداح كل طبقة من الممدوحين فلا يُسمىَ بها إلى الرتب التي فوقها ولا ينحط بها إلى ما دونها[27]. وفي المنهج الذي يبين فيه طرق الشعر من حيث ملاءمتها للنفس أو منافرة لها، نجده يقسم الشعر إلى جد وهزل ويوضح أن للجد مواطنه لأن الكلام المبني على الجد إن قصد به إلقاؤه بمحل القبول من أهل الجد والأمر نفسه في طريقة الهزل [28].

أنحاء التخاطب عند حازم وموقعها من الدرس التداولي: لم يكتف حازم ببيان دور كل من الكلام والمتلقي والمتكلم والمقام ومقاصد المتكلمين بل حاول أن يظهر التفاعل القائم بين هذه العناصر ويتضح هذا في قوله: «لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجاتهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطَب أو الاستفادة منه. إما بأن يلقي إليه لفظا يدل المخاطَب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدّى على جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج له»[29]. يحاول حازم أن يبين جهات التخاطب بين السامع والمتكلم الذي يسعى إما إلى تبليغ المخاطَب معرفة ما ليفيده بها، دون أن ينتظر ردًّا أو جوابا منه أو نقاشا، وإما يسعى إلى الاستفادة منه كأن ينتظر المتكلم من المخاطَب جوابا عن سؤال أو إضافة معرفة ما، أو تفسيرا أو تأويلا لما تلفظ المتكلم به. ويشير حازم إلى أنواع القول أو ما يسمى في التداوليات بالأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة وذلك في قوله: «وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدّى على

جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج له»[30]. ثم يقسم حازم الكلام من جهة ما يؤديه المتكلم ومن جهة ما يقتضيه من المخاطَب؛ فيجعل كلام المتكلم من جهة ما يؤديه قسمان: إما أن يكون بيِّنا واضحا لا حاجة للاستدلال عليه وإما أن يكون غامضا يطلب الاستدلال عليه والاحتجاج له. أما كلامه فيما يقتضيه من المخاطب فقسم واحد أي إن المخاطب يملك الحرية في الرّدّ على كلام المتكلم أو تفسيره أو له أن يسكت ويذعن لما قاله المتكلم. كما يمكن للمتكلم أن يركب بين القسمين كأن يحكي ما دار بينه وبين مخاطبه[31] فيقول المتكلم قلت (كذا وكذا) فقال فلان معارضا أو مجيبا عن (كذا وكذا) ويمكن أن نلخص أقسام الكلام من جهة تأدية المتكلم وما يقتضيه من مخاطبه في المخطط الآتي:

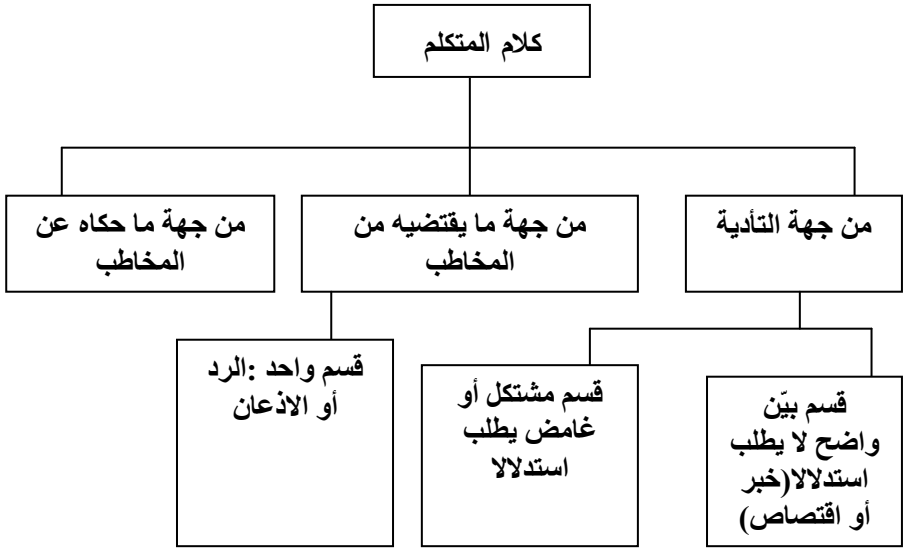

يقارب تحليل حازم للأنحاء التخاطبية للمتكلمين التحليل التداولي للكلام في البحوث اللسانية المعاصرة خاصة المرتبطة منها بالنظرية الحجاجية التي تنطلق من فكرة «أنّنا نتكلم عامة بقصد التأثير وهي تحاول أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية»[32]؛ فلم يعد يُنظر للغة على أنها جهاز وصف وإخبار فقط كما كانت تعرف في الدراسات اللسانية الأولى منذ دوسوسير، فقد كان

يعتقد بأن الوظيفة الأساسية للغة هي الإخبار وأن التواصل عبارة عن نقل للمعلومات إلى المتلقي، فكان بذلك فعل الإخبار الفعل اللغوي الأساسي للغة[33]. إلا أنه مع تقدم البحوث اللسانية من قبل الفلاسفة واللغويين[34] تغيرت وجهات النظر في هذه المسألة؛ لأنهم أدركوا بأن كثير من الأقوال لا تتمثل وظيفتها في الإخبار ولا تصف واقعا ما كما لا تخضع لمعيار الصدق والكذب كالأقوال الإنجازية التي تطلب القيام بأفعال، والأقوال الملتبسة التي لا يمكن أن نحكم عليها أيضا بالصدق والكذب بل تحتاج إلى تأويل، وهناك الأقوال التقييمية التي تصدر فيها أحكاما فلا تصف واقعا كما يصعب أن نصل إلى جوانبها الإخبارية دون النظر في السياق الذي وردت فيه. ودليل حازم على حجاجية اللغة وعدم اقتصارها على البعد الوصفي والإخباري قوله: «إما أن يلقي إليك لفظا يدل المخاطب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول»[35] وهو ما يقابل الأفعال الإنجازية Actes illocutoires في الدرس التداولي كالأفعال الطلبية، والأمر، والوعد، والوعيد ودليله على الأفعال الملتبسة التي تحتاج إلى توضيح يظهر في قوله: «بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدى على جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج له»[36] إضافة إلى هذا يشير حازم إلى منحى آخر للتخاطب وهو المشاجرة ويعرفها على أنها متركبة من «تأدية المخاطَب نقيض ما أداه المتكلم والمتكلم نقيض ما أداه المخاطَب»[37] ثم نجده يعرض لأقسام الكلام من جهة التأدية والاقتضاء وهي ستة أقسام[38]:

1- تأدية خاصة؛

2- أو اقتضاء خاصة؛

3- أو تأدية واقتضاء معا؛

4- أو تأديتان من المتكلم والمخاطب؛

5- أو اقتضاءان منهما:... بأن يقتضي المتكلم من المخاطب شيئا فيقتضي المخاطب من المتكلم شيئا آخر قبل أن يؤدي إلى المتكلم ما اقتضاه.

6- أو يكون مركبا من اقتضاء المتكلم تتبعه تأدية من المخاطب على جهة السؤال والجواب.

لا يسعنا في ختام الحديث في هذا الموضوع إلا أن ننوّه بموقع المنهاج في الدراسات اللغوية العربية التي تعنى بالبحث في التراث العربي، فكونه مدونة بلاغية تثير قضايا نقدية هامة استقطبت اهتمام النقاد والبلاغيين لمعالجة كثير من المسائل النقدية التي تنهض بالقصيدة العربية وتبرز شعريّتها، لا يمنع هذا من اعتباره مدونة لغوية تناولت قضايا لغوية هامة كالمعنى والكلام، وأحوال المتكلمين، ومقامات التكلم، وأنحاء التخاطب. ولأنّ عملية النقد في اللغة بصفة عامة وللشعر بصفة خاصة لا تتأسس إلا إذا كان الناقد عارفا باللغة وأسرارها ومدركا لمواطن الشعرية فيها فإن حازما باعتباره ناقدا يمكن أن نطلق عليه بأنه عالم في اللغة العربية لأنه استطاع بخبرته اللغوية وضع قوانين تعيد للقصيدة العربية شعريتها التي فقدتها في مرحلة ضعف الأدب.

الهوامش:

1 - فليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر حباشة، دار الحوار سورية ط/1، 1987م، ص 18.

2 - المرجع نفسه، ص 19.

3 - مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية) في التراث العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط/1، 2005، ص 28.

4 - فرانسواز ارمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر (دب) ط/1 1987م، ص 8.

5 - حازم القرطاجني (أبو الحسن) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح ك محمد الحبيب بن خوجة دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط/3، 1986م، ص 445.

6 – Borillo: quelquesaspects de la question, p:2. نقلا عن إدريس سرحان: طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال، ص 98.

7 – المنهاج، ص 445.

8 – المصدر نفسه، ص 448.

9 – المصدر نفسه، ص 461.

10 – ينظر، المصدر نفسه، ص 222، 223

11 – المصدر نفسه، ص 225.

12 – المصدر نفسه، ص 111، 112، 113.

13 – المصدر نفسه، ص 71.

14 – الأخضر جمعي: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، ط/1، 1999م، ص123.

15 – المرجع نفسه، ص 123.

16 المنهاج، ص 89.

17 – ينظر، المنهاج، ص 32، 28.

18 – ينظر، مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 44.

19 – ادريس سرحان: ص90.

20 – إدريس سرحان: الأفق التداولي نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية عالم الكتب الحديث، الأردن، ط/1، 2011 م، ص 25.

21 – ابن جني: الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، ج/1، ص 44.

22 – المنهاج، ص 204.

23 – المصدر نفسه، ص 205.

24 – ينظر المرجع نفسه، ص 121، 122.

25 – الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ص 41.

26 – المنهاج، ص 85 .

27 – المصدر نفسه، ص170،171.

28 – المصدر نفسه، ص328.

29 – المصدر نفسه، ص 345.

30 – المصدر نفسه، ص 345.

31 – المصدر نفسه، ص 345.

32 – أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج ، ط/1، 2006م –1426هـ، ص 14.

33 – ينظر المرجع نفسه، ص 113.

34 – مثل ستراوس وأوستين وسورل...

35 – المنهاج، ص 344.

36 – المصدر نفسه، ص ن.

37 – المصدر نفسه، ص ن.

38 – المصدر نفسه، 345، 346.

إشكاليّة الضّاد والظّاء عند اللّغويّين العرب

أ. محمّد بن محمّد حرّاث

جامعة تيزي وزو

اهتمّ العلماء قديما بحروف العربية عامة، وبحرفي الضاد والظاء خاصة وقد يكون سبب ذلك صعوبة نطقهما على من دخل الإسلام من غير الأمة العربية وهذه الصّعوبة شهد بها العلماء اللغويون وغيرهم في كتبهم، يقول الصّاحب بن عبّاد (358هـ): "إذْ كانا حرفين قد اعتاص معرفتهما على عامّة الكُتَّاب؛ لتقارب أجناسهما في المسامع، وإشكال تأسيس كلّ واحد منهما، والتباس حقيقة كتابتهما"[1].

وكذلك يقول ابن مكّي الصّقلّي (501هـ): "فأمّا العامة، وأكثر الخاصّة، فلا يفرّقون بينهما في كتابٍ ولا قرآن"[2].

ويقول ابن الجزري (833هـ): "والضّاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسُر على اللسان مثله، فإنّ ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يُحسنه فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخّمةً ومنهم من يشُمُّهُ الزَّايَ، وكلّ ذلك لا يجوز"[3]. مع أنّ ابن جنّي (392هـ) يجيز إبدال الظاء ذالا[4]، يقال: تركته وقيذا ووقيظا، واستدل كذلك بقوله تعالى: ((وَالْمَوْقُوذَةُ)) [المائدة: 03] بالذال، وقال بأنها هي الأصل.

واكتسب حرف الضاد أهميته – إلى جانب وعورة نطقه– أنه حرف تمتاز به العربية عن غيرها من اللغات، ولا يوجد عند الأعاجم في لغاتهم، إلا القليل[5] وبذلك سمّيت العربية لغةَ الضّاد. وفي هذا يقول المتنبي:

وبهم فخر من نطق الضا *** د وعوذ الجاني وغوث الطريد

والظاء كذلك قيل بأنه للعرب خاصة، لا يشاركهم فيه أحد[6].

وربما اكتسب الحرفان وعورتهما –والضاد خاصة– لصعوبة مخرجهما ودقّته، وفي ذلك يقول ابن سينا في مخرج الضاد: "وأمّا الضّاد فإنّها تحدث عن حبْسٍ تامّ عندما يتقوّم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس، إذا أُطلِقَ أُقيمَ في مسلك الهواء رطوبةٌ واحدةٌ أو رطوبات، تتفقَّعُ من الهواء الفاعل الصّوت، وتمتدّ عليها، فتحبسه حبسا ثانيا، ثمّ تنشقُّ وتتفقَّأُ، فيحدث شكل الضّاد"[7].

ثمّ يقول عن مخرج الظاء: "وإنْ كان حبسٌ كالإشمام بجزء صغير من طرف اللسان، وإمرارُ الهواءِ المطلق بعد الحبس على سائر سطح اللسان على رطوبته، وحُفِّزَ له جملةً، سُمِعَ الظّاءُ"[8].

أجمع العلماء أنّ هذا الباب يحتاج القارئ إليه، ولا بد من معرفته. وقد عمل المتقدمون فيه كتباً نثراً ونظماً، ومن أحسن من نظم فيه الشيخ أبو عمرو الداني في رباعيته المشهورة، التي تحدث فيها عن أصول الظاءات في القرآن العظيم؛ قال:

ظَفِرَتْ شُوَاظُ بِحَظِّـــهَا من ظُلْمِنَا *** فَكَظَمْتَ غَيْظَ عَظِيــمِ مَا ظَنَّتْ بْنَا
وَظَعْنتُ أَنْظُـــرُ فِي الظَّهِيرَةِ ظُلَّةً *** وَظَلَلْـــتُ أَنْتَظِرُ الظِّلالَ لِحِفْظِنَا
وَظَمِئْتُ فِي الظَّلْمَا فَفِي عَظْمِي لَظًى *** ظَهَرَ الظِّهَارُ لأَجْلِ غِلْظَةِ وَعْظِنَا
أَنَظَــرْتَ لَفْظِــي كَــيْ تَيَقَّــظَ فَظَّهُ *** وَحَظَرْتَ ظَهْرَ ظَهِيرِهَا مِنْ ظَفْرِنَا[9]

ذكر في هذه الأبيات الأربعة جميع ما وقع في القرآن من لفظ الظاء، وميزه مما ضارعه لفظا، وهي اثنتان وثلاثون كلمة، وقيل جميع ما في القرآن من ذلك ثمانمائة وأحد عشر موضعا. وكان من أحسن ما ألّف في هذا كتاب: (رفع الحجاب عن تنبيه الكتاب) للإمام أبي جعفر الحلبي. وكذلك نظّم الحافظ عبد الرزاق الرسعني منظومة في ظاءات القرآن كذلك أسماها: درة القاري[10]. وجاء في المصادر أنه ورد في القرآن العظيم من الظاء ثلاثة وخمسون وثمانمئة، ترجع إلى واحد وعشرين أصلا، أمّا الضّاد فقد جاء في القرآن العظيم في أربعة وثمانين وست مئة وألف موضع، ترجع إلى واحد وثمانين أصلا.

ومن بين أهم الكتب –كذلك– التي درست ظاءات القرآن وضاداته، نجد كتاب: (المصباح في الفرق بين الضّاد والظّاء في القرآن العزيز نظما ونثرا)، لأبي العبّاس أحمد بن حمّاد بن أبي القاسم الحرّاني، وبنى مؤلَّفَه على مقدِّمةٍ صغيرة جاء فيها: "نظرتُ في أصول ظاءات القرآن، فوجدتُها في اثنين وثلاثين أصلا، وهذا أكثر ما جاء من الأصول، فنظمتها في أربعة أبيات من الشّعر، وقدَّمتُ قبل الأربعة الحاوية للأصول، عشرةَ أبيات، نبّهتُ فيها على مخرج الضّاد ومخرج الظّاء"[11].

ثمّ قال بعد أن ذكر هذه الأبيات: "لمّا جمعتُ أصول ظاءات القرآن الكريم في هذه الأربعة الأبيات، جاءت على غير ترتيب ما جاء في كتاب الله، عزّ وجلّ فأحببتُ أنْ آتي بها على ترتيب ما جاء في القرآن العزيز، الأوّلَ فالأوّلَ"[12]. ثمّ بدأ بشرح الأصول الاثنين والثلاثين، وبعد أن انتهى منها قال: "وقد نظمتُ ما ذكرتُهُ من الأصول في قصيدٍ من الشّعر مرتَّبًا على ترتيب الأصول المذكورة"[13]. وذكر أربعة وخمسين بيتا. ثمّ ختم كتابه ببيتين ذكر فيهما ثمانية أصول ظائية، وثمانية أصول ضادية، وكلّ لفظةٍ من هذه الألفاظ تقال بالظّاء فيكون لها معنى، فإذا قيلت بالضّاد كان لها معنى آخر، وهو ما يسمّى بالنّظائر[14].

وذُكْرَ أيضا أنّ لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري رسالةً سماها: (زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء). ثمّ نظم الفروخي منظومته المشهورة في الكلمات التي تُنطَقُ بالظاء تارة، وبالضاد أخرى، وقد جمع في منظومته ستا وثلاثين كلمةً، لها معنى بالظاء، وبالضاد معنى آخر[15]. يقول في أولها:

وقد نظمتُ عِدَّةً من الكَلِمْ *** في الظاءِ والضّادِ جميعا فافْتَهَمْ
فإنّها مختــلفاتُ المعــنى *** يعرفــها من بالعلــوم يُعنَى

ومن أمثلة ما يقول:

فالغيظُ ما يُعرَفُ للإنســـانِ *** والغيضُ غيضُ الماءِ في النّقصانِ
واعلم بأنَّ الظَّهرَ ظهرُ الرّجل *** والضّهر والضّاهر أعلى الجَبَــلِ
والظَّنُّ في الإنسانِ إحدى التّهَمِ *** وهكذا الضَّنُّ البخيـــــلُ فافهمِ

وحنظلٌ نبـــــتٌ كثيرٌ يُعرَفُ *** والحنضـــلُ الظّلُّ المديدُ يُؤلَفُ

والقيظُ حرٌّ في المصيفِ ثائرُ *** والقيضُ في البيضةِ قشْرٌ ظاهرُ.

وكذلك فعل ابن مالك في كتابه (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد)، وذكر الكلمات المتفقة مبنى المختلفة معنى مما تُكتَب بالظاء تارةً وبالضاد أخرى. ولا بأس أن ننقل بعض الأمثلة من كتابه:

"**أضَلَّ وأظَلَّ**: فأمّا (أضلّ) بالضّاد: فأضلَّ فلانٌ فلانا: إذا أغواه؛ ضدّ هداه... وأضلَّ الرّجلُ الدّارَ والدّابةَ: إذا لم يهتدِ إليهما... وأضَلَّ الميّتَ: إذا دفنه ووراه... أمّا (أظلَّ) بالظّاء: فأظلَّ الشّهرُ: إذا أشرَفَ، وأظلَّ الأمرُ: إذا قَرُبَ، وأظلَّ الحائطُ والشّجرُ: إذا سترا بظلّهما، وأظلَّ القومُ: ساروا في الظّلّ... والظّلّ الظّليل: الدّائم الظّلّ الذي لا تنسخه الشّمس... والظّلّ: العِزُّ والمَنَعَة..."[16].

وكذلك فعل –أيضا– أبو الحسن علي بن أبي الفرج القيسي الصّقلّي في كتابه (في معرفة الضّاد والظّاء)، وقد قسّمه أربعةَ أبواب:

الباب الأوّل: باب الضّاد؛ وتناول فيه 169 لفظةً مع مشتقاتها.

الباب الثّاني: باب الظّاء؛ وتناول فيه 41 لفظةً مع مشتقّاتها.

الباب الثّالث: ما جاء بالضّاد وله معنى بالظّاء؛ وتناول فيه ستّة ألفاظ.

الباب الأخير: ما جاء بالضّاد وبالظّاء على معنى واحد؛ وتناول فيه لفظتين فقط[17].

وكذلك وجدتُ أبا القاسم سعد بن علي الزنجاني، وضع رسالةً في الفرق بين الضاد والظاء[18]؛ إذْ فرَّقَ بين كلّ الكلمات التي تُكتبُ بالظّاء وما يميّزها عن كتابتها بالضّاد.

وأمّا أبو الفرج محمّد بن عبيد الله بن سهيل النّحويّ، فقد وضع مصنّفًا أسماه (الضّاد والظّاء)، وقد تحدّث فيه عن مخرج الضّاد، وعدد الحروف التي يُذكَرُ فيها الضّادُ والظّاءُ، والمشترك والمختصُّ والخالي من هذه الحروف، ورتّب الألفاظ على حروف المعجم، من غير النّظر إلى جذر الكلمة، ومراعاة الثّواني

والثّوالث. قال ابن سهيل: "عدّة الحروف التي يُذكَرُ فيها الضّادُ من حروف المعجم سبعةَ عشر حرفا؛ وهي: الألف، والباء، والتّاء، والجيم، والحاء، والخاء، والدّال والرّاء، والضّاد، والعين، والفاء، والقاف، والميم، والنّون، والهاء، والواء. وعدّة الحروف التي يُذكَرُ فيها الظّاء من حروف المعجم سبعة عشر حرفا أيضا؛ وهي: الألف، والباء، والتّاء، والجيم، والحاء، والشّن، والظّاء، والعين، والغين، والفاء والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنّون، والواو، والياء"[19].

وها هو يوسف بن إسماعيل بن عبد الجبار بن أبي الحجاج المقدسي، يضع مصنّفا، يُفرِدُ فيه القول عن الظّاء، وعن مجيئها في كلام العرب، ووقوعها فاءً مرّةً، وعيناً ثانيةً، ولاما أخرى. ثمّ تحدَّثَ عن مخرج الظّاء وعن صفته، فقسّم كتابه بذلك إلى ثلاثة أبوب بحسب ما تقدَّم.

وهو كتابٌ ذو قِيمة قَيِّمة؛ ذلك أنّه أوسعُ كتابٍ في الكلمات الظّائيّة، إذْ انفرد بذِكر كلمات ظائيّة لم تذكرها كتب الضّاد والظّاء المنشورة، كما انفرد بالنّقل عن كُتُبٍ لم تصل إلينا، ككتاب التّنبيهات على الجمهرة لعلي بن حمزة، وكتاب الأفعال لابن طريف الأندلسيّ، وكتاب الهادي للقطب النّيسابوري، وكتاب الصّناعة للعكبري، وكتاب تكملة الصّناعة لعبد اللطيف البغداديّ. كما انفرد برواية أشعارٍ تخالفُ رواية دواوينهم المطبوعة[20].

يقول المقدسي عن كتابه: "هذا كتابٌ جمعتُ فيه حروف الظّاء المستعملة في كلام العرب، بحسب الشّهرة والإمكان، ومنحصِرٌ قسمة الكتاب في ثلاثة أبواب بحسب وقوعه فاءً، وعيناً، ولامًا"[21]. ثمّ قال واصفا مخرج الظّاء وصفته: "اعلم أنّ مخرج الظّاء ما بين طَرَف اللّسان وأطراف الثّنايا، وهو حرفٌ مجهور؛ والجهر: إشباعُ الاعتماد في مخرج الحرف، ومنع النّفس أنْ يجريَ معه. وهو أيضا حرفٌ مُطبَق؛ والإطباق: أنْ ينطبِقَ على مخرجِ الحرف من اللّسان، ما حاذاهُ من الحَنَكِ. وهو من حروف الاستعلاء أيضا؛ والاستعلاء: ارتفاعُ اللّسان إلى الحَنَك، أُطْبِقَتْ أو لم تُطْبَقْ. وهو حرفٌ رِخْوٌ؛ والرّخاوة: جريانُ الصّوتِ به فلا ينحصِر"[22].

ثمّ يردُّ على ابن دُريد الذي رأى أنّ الظّاء حرفٌ للعرب خاصّة، وقد استدلَّ المقدسيُّ بقول أبي القاسم علي بن حمزة البصريّ، بأنّ "هذا سهوٌ منه، وإنّما الواجبُ الضّادُ، فأمّا الظّاء فموجودٌ في كلامِ بعضِ الأمم"[23]. وأنّه قد سُمِعَ النَّبَطُ والبربرُ يقلبون الظّاءَ –إذا وقعَ في كلامهم– طاءً. ثمّ قال: والظّاءُ أقلُّ دورًا في الكلام، وأنزرُ استعمالا من غيرها، وحِفظُ القليلِ أسهل، والتّحرّز من الغلط فيه وقد جمِعتُ الكلمات المستعمل فيها الظّاء فلم تبلغ المئة"[24]. ثمّ في الأخير: "وتدبَّرتُ ما في التّنزيل من الظّاءات، فوجدتُ فيه إحدى وعشرين كلمةً، منها ما في الباب الأوّل سبعُ كَلِمٍ، ومنها في الثّاني سِتُّ كَلِمٍ، ومنها في الثّالث ثمانيَ كَلِم. وأومأتُ خلالَ الألفاظ الظّائيّة إلى أشباهها من الضّاد"[25]. ثمّ يمضي المقدسيُّ في تبيان فصول مجيء الظّاء على أبوبها الثلاثة في كلام العرب وآي التّنزيل.

وقد ألّف –أيضا– أبو عمرو الدّاني مصنَّفًا في الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ وفي المشهور من الكلام، وقد بيّن في أوّل كتابه أهمية معرفة الفرق بينهما في كتاب الله، إذْ قال: فإنَّ ممّا يكمُلُ به لطلبة القرآن وتجويد التّلاوة ويحصُلُ لهم به اسم الدّراية: معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ، واستعمال اللّفظين بكلّ واحدٍ منهما على هيئته، وإخراجه من موضعه على حقيقته"[26]. ثمّ يقول: "ومتى لم يعرف القارئ الفرق بينهما، ولا استعمل ذلك فيهما في قراءته، وسوّى بينهما في لفظه، صارَ لاحنا، مبدِّلاً للتّلاوة، ومغيِّرًا لمعنى كلام الله، عزّ وجلّ، لاختلاف ما بينهما"[27]. وقد ذكر في كتابه الفرق بين الضاد والظّاء في المخرج، وحال كلّ واحد منهما. وبيّن أنّ الضّاد تخرج من حافّة اللّسان، وأنّها حرفٌ مستطيلٌ مجهور، وأمّا الظّاء فمخرجها ما بين طرف اللّسان، وأطراف الثّنايا العليا، وهي حرفٌ مجهورٌ رِخوٌ مستعلٍ، "فالفرق بينهما إنّما هو المخرج والاستطالة لا غير، وهي بعد ذلك موافقة لها في الجهر والرّخاوة والإطباق والاستعلاء"[28]. ثمّ شرع بعد هذا الباب في تفصيل القول في الضّاد والظّاء في القرآن العظيم كلّه.

ثمّ نعرّج إلى أبي بكر علي الشيبانيّ الموصليّ، الذي وضع كتابا لا يختلف عن سابقيه في موضوع الضّاد والظّاء، أسماه: الفرق بين الضّاد والظّاء، وهو في شكله معجمٌ يعرِضُ لمعاني الكلمات ذوات الضّاد، ثمّ ذوات الظّاء، مبيّنا معانيها وشارحا وممثّلا، ومستنبطا، وقد اتّبع فيه مؤلّفه منهجا واضحا؛ إذْ جعله في قسمين: قسمٌ خاصٌّ بباب الضّاد، وقسمٌ خاصٌّ بباب الظّاء، ورتّبهما على حروف الهجاء[29].

ثمّ ألّف أبو القاسم سعد بن عليّ الزّنجانيّ مؤلّفًا في الفرق بين الحرفين أسماه: الفرق بين الظّاء والضّاد، تناول فيه تسعة وعشرين لفظا بالضّاد مرّة وبالظّاءِ أخرى. وذكر معنى اللّفظ حين يأتي بالظّاء، وحين يأتي بالضّاد. فيقول – مثلا– في باب (تفسير ما يُكتَبُ بالضّاد والظّاء): "فمن ذلك: العضُّ والعَظُّ؛ فأمّا العظّ، الظّاء، فمن اشتداد الزّمان والجدب، يقال: عظّهم الزّمان، وعظّتهم الحرب: إذا اشتدّ ذلك عليهم، وأثّر فيهم...، والعضُّ، بالضّاد، معروف: وهو شدُّكَ على الشّيء بأسنانك"[30]. وكذلك يمضي مع بقية الألفاظ إلى آخر كتابه.

وفي الفرق بينهما أيضا، ألّف ابن الصّابوني الصَّدَفيّ الإشبيلي، مصنَّفًا سمّاهُ: (معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء)، فقد ذكر في كتابه من نظائر الضّاد والظّاء سبعةً وعشرين لفظا بالضّاد، ونظيره من الظّاء سبعةُ وعشرون كذلك[31] فذكر اللّفظ بالظّاء ووضّح معناه، ثم ذكر اللّفظ بالضّاد ووضّح معناه المختلف عن الأول.

ومن أهمّ الكتب التي اختصّت بالظّاء فقط دون الضّاد، نجد كتاب (حصر حرف الظّاء)، لأبي الحسن عليّ بن محمّد بن ثابت الخولانيّ المقرئ، وقد ذكر فيه المؤلِّف ثلاثا وتسعين كلمةً، موزَّعةً على حروف الهجاء على التّرتيب المغربيّ وصنّفها على الوجه الآتي: (الباء: ستّ كلمات)، (الجيم: ستّ كلمات)، الحاء: تسع كلمات)، (الخاء: ثلاث كلمات)، (الدّال: أربع كلمات)، (الرّاء: كلمة واحدة) (الظّاء: عشرون كلمة)، (الكاف: أربع كلمات)، (اللاّم: خمس كلمات)، (الميم: كلمتان)، (النّون: أربع كلمات)، (العين: تسع كلمات)، (الغين: ثلاث كلمات)

(الفاء: أربع كلمات)، (القاف: كلمتان)، (الشّين: ستّ كلمات)، (الواو: أربع كلمات)، (الياء: كلمة واحدة). أمّا حروف: (الهمزة، والتّاء، والثّاء، والذّال والزّاي، والطّاء، والصّاد، والضّاد، والسّين، والهاء)، فليس فيها شيء كما أشار المؤلّف [32].

ونذكر مثالا عن حرف واحد يُغني عن بقية الحروف، يقول: "وأمّا الدّال ففيها أربع كلمات؛ وهي: الدّأظ: بمعنى الدّفع، والدّعظ: وهو النّكاح، والدّلعماظة: وهي النَّهِمَةُ، والادّلِنْظاءُ: وهو الغلظ"[33].

وكذلك فعل صِنوهُ أبو الرّبيع سليمان بن أبي القاسم التّميمي السرقوسي الذي اهتمّ بالظّاء كذلك فصنّف: (ظاءات القرآن)، إذْ ذكر إحدًى وعشرين مادّةً يرجع إليها ثلاثٌ وخمسون وثمانمئة لفظةً ظائيّة وكان غرض المؤلّف جمعَ جميع ما ورد في القرآن العظيم من حروف الظّاء. وكتابه هذا قائمٌ على شرح ثلاثة أبيات، وهي:

ظفرتُ بحظٍّ من ظُلُومٍ تَعاظَمَتْ *** ظَوَاهِرُهُ للنَّاظِـــــرِ المَتَيَقِّظِ
ظَمِئْتُ فَلَمْ تَحْظُــرْ عَلَيَّ ظِلَالَهَا *** فَظَاظَةُ أَلْفَاظٍ ولا غَيْظَ وُعَّظِ
ظَنُونٌ تَلَظَّى للكَظِيــمِ شُوَاظُهَا *** تُغَلِّظُ عُتْبَ الظَّاعِنِ المُتَحَفِّظِ[34]

وقد ذكر جميع الألفاظ التي جاءت بالظّاء، وذكر معها ما يقابلها مع الضّاد من معنى.

ومن أهم الكتب القديمة والحديثة التي رأيتها أولت اهتماما لمسألة الضاد والظاء في العربية هي:

1. شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، لمؤلف مجهول.
2. أبو عمرو الداني الأندلسي ورسالته في الظاءات القرآنية، لمحسن جمال الدين.
3. الإرصاد في شرح المرصاد الفارق بين الظاء والضاد، للجعبري.
4. الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، لابن مالك الظائي.

5. الاقتصاد للفرق بين الذال والضاد والظاء، لأبي عبد الله الداني.
6. حصر حرف الظاء، للخولاني.
7. زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء، للأنباري أبي البركات.
8. الظاءات في القرآن الكريم، لأبي عمر الداني.
9. ظاءات القرآن للسرقوسي.
10. الفرق بين الضاد والظاء، للصاحب بن عباد.
11. الفرق بين الحروف الخمسة، لابن السيد البطليوسي.
12. معرفة الضاد والظاء، للصّقلي.
13. منظومة الفروخي في الكلمات التي تُنطَق بالظاء والضاد، للعلامة الأديب محمد بن أحمد الأواني الفروخي.

والضّاد تخرج من حافة اللسان مع ما يليه من الأضراس، ومن الناس من يتكلّفها من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر[35]. وفي حساب الحروف فإنّ الضّاد هو الحرف الخامس عشر في الترتيب الهجائي العربي، والسادس والعشرون في ترتيب الأبجدية العربية، ويساوي عدديا الرقم (700) في حساب الجمل. وأمّا الظّاء فهو الحرف السابع عشر في الترتيب الهجائي، والسابع والعشرون في ترتيب الأبجدية العربية، ويساوي عدديا الرّقم (900) في حساب الجمل[36].

وفي مخرج الضّاد ألّف شمس الدّين بن النّجّار كتابا وسمه: (غاية المراد في معرفة إخراج الضّاد)، فقد رأى النّاس في عصره لا يحسنون إخراج الضّاد من مخرجه الصّحيح، فبعض الحبشة يخرجون الضّاد كاللام المفخّمة، وأكثر الشّاميين وبعض أهل الشّرق يخرجونها ظاءً معجمة، وأكثر المصريين وبعض أهل المغرب يخرجونها ممزوجةً بالدّال، أو بالطّاء المهملة، فيصيرُ لفظُها أقرب إلى الدّال والطّاء، ورأى أنّ هذا لا يجوز لتالي كتاب الله تعالى، وهذا ما جعله يصنّف هذا الكتاب، "ليَعلَم بذلك التّالي لكتاب اللّه تعالى، والمجوِّدُ له معرفةَ التّلفّظِ بهذا الحرف الصّعب الذي أعيا كثيرًا من النّاسِ إخراجُه"[37].

وقد ذكر ابن النّجّار في مؤلَّفِهِ الظّواهر الصّوتيّة التي تخالف النّطق الصّحيح لحرف الضّاد في عصره، ثمّ حلّل أسبابها، وردّ على مرتكبيها، ثمّ وضّح بعد ذلك كيفيّة النّطق بالحرف، وكذا ذِكْرِ أهمّ صفاته. فيقول في مخرجه: "فإذا أردتَ معرفةَ مخرجه، فتأتي به ساكنًا لا متحرّكًا؛ لأنّ الحركةَ تقلق الحرف عن موضعه ومستقرّه، وتجذبه لوجهة الحرف المشابه، ثمّ تُدْخِلُ عليه همزة الوصل مكسورةً؛ لأنّ السّاكن لا يمكن الابتداء به، ثمّ اصغِ إليه، فحيثُ انقطَعَ صوته كان مخرجه"[38]. معناه أن تنطق بالضّاد على شكل: (اِضْ)، فحيث انقطع هواءُ النّطق فذاكَ مخرجُ الضّاد.

وذكر من صفاته أربعا: الاستعلاء، والاستطالة، والإطباق، والجهر. وفيه من صفات الضّعق: الرّخاوة. ثمّ بيّن كيف أنّ الضّادِ قد تشتبه ببعض الحروف فميّزها عن كلّ حرفٍ، ووضّحَ، وفصّلَ. وبيّن أنّ أصل امتلاك النّطق السّليم بالضّاد، وتمييزه عن غيره، إنّما يكون "برياضة اللّسان، وكثرة التّكرار، وأصل ذلك التّلقّي عن أول الإتقان، والأخذ عن أئمة هذا الشّأن"[39]، وهذا لا شكّ فيه.

ومن اللّغويين من قارب بين الضّاد والظّاء، حتى كاد يجمع بينهما، ومنهم علي بن غانم المقدسيّ، الذي وضع مؤلّفا وسمه: (بغية المرتاد لتصحيح الضّاد) ومن دوافع تأليفه قوله: "لمّا رأيتُ بمحروسة القاهرة، التي هي زين البلاد، كثيرا من أفاضل النّاس، فضلا عن الأوغاد، يخرجون عن مقتضى العقل والنّقل في النّطق بالضّاد... فأردتُ مع طلب جمعٍ من الإخوان، وإشارةٍ من بعض الأعيان أن أزيل الغبن عن عين الرّشاد، وأفيض من أعين الدلائل العقلية والنّقليّة مما يروي كل صادٍ، فشرعتُ فيه معترفا بقصر الباع، وقلّة الزاد"[40].

ثم قال مبيّنا موضوع كتابه: فليُعلَم أنّ أصل المسألة أنّهم ينطقون بالضّاد ممزوجةً بالدّال المفخّمة، أو الطّاء المهملة، وينكرون على من ينطق بها قريبة من الظّاء المعجمة"[41]. معناه أنّه يدافع عن من يطق بالضّاد قريبة من الظّاء، منكرا في الوقت نفسه تكلُّفَ الضّاد حتّى تخرج دلا مفخّمةً، أو طاءً.

وبذلك حوى كتابه هذا على مقدّمة وفصلين وخاتمة؛ تحدّث في المقدّمة عن مخرج الضّاد، وعن صفاتها، التي نصّ عليها العلماء الأثبات، ثمّ عنون الفصل الأول: (فيما يدلّ بالمعقول على أنّ اللّفظ بالضّاد كالظّاء المعجمة هو المقبول) والفصل الثّاني: (فيما يدلّ بالتّصريح على أنّ التّلفّظ بالضّاد شبيه بالظّاء هو الصّحيح، وهو المنقول من كلام الفحول، المتَلَقَّى كلامهم بالقبول). فهو قدّم الحجج عقلا ونقلا على أنّ النّطق بالضّاد على شكلٍ قريب من الظّاء صواب صحيح.

وأمّا في خاتمة كتابه، فقد ذكر فيها بعض التنبيهات على ما قد يتوهّمه قارئ الكتاب، منها قوله: "إنّه ليس مرادي بكون الضّاد شبيهةً بالظّاء، وقريبةً منها، كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج، بحيث يخفى الفرق بينهما على المجيد لفنّ التّجويد"[42]. أي أنّه لا يقصد الضّاد الضّعيفة التي تكلّم عليها اللّغويّون.

ثمّ يقول في آخر كتابه: "وإذا علمتَ ما بينهما من الاشتراك، وما نصّ عليه العلماء من الاشتباه، تحقّقتَ أنّ من ينطق بالضّاد من مخرجها الخالص، مع تحصيل صفاتها المميّزة لها حتّى عن الظّاء، فهو في اعلى مرتب النّطق بها من الفصاحة، ودونه من ينطق بها من مخرجها، مشوبة بالظّاء، لكن من مخرجها وبينهما نوعُ فرق، ودونه من ينطق بها ظاءً خالصةً، ومن يشمّها الذّال، ومن يشمّها الزّاي، ومن يجعلها لامًا مفخَّمةً، وكذا من ينطقُ بالضّاد طائيَّةً، فهو من أسفل المراتب النّطقيّة، بالنّسبة إلى من سبق ذكره"[43].

وأما في معنى الحرفين، فإنّ للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) تعريفا آخر[44]، فيقول في حرف الضاد، إنّ معناها الهدهد إذا رفع رأسه وصاح، قال متمم بن نويرة:

كأنّي ضادٌ يومَ فارقتُ مالِكا *** أنوءُ إذا رمتُ القيامَ وأكسلُ

ويقول في الظاء: إنّ معناها ثديَ المرأة إذا تثنّت. قال لبيد بن ربيعة العامري:

أُنكِحْتُ من حيٍّ عجوزًا هَرِمَهْ *** ظاءُ الثّدي كالخباءِ هَذْرَمَهْ

ويقول المستشرق هنري فليش: "ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم، يحتمل أنه كان ظاء جانبية؛ أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة، وقد اختفى هذا الصوت، فلم يعد يُسمع في العالم العربي، وأصبح بصفة عامة، إمّا صوتا انفجاريا، وهو مطبق الدال، وإمّا صوتا أسنانيا هو الظاء"[45].

وأمّا ما يُروى من أنّ النبيّ – صلى الله عليه وسلم– قال: ((أنا أفصح من نطق بالضاد)) فهو حديث لم يُذكر في كتب الحديث الصحيحة، وقال عنه ابن الجزري: "لا أصل له ولا يصحّ"[46]. وقد ذكره رمضان عبد التواب وناقشه، ببديعٍ من القول، وعميمٍ من النّفع[47].

وحرف الضاد الذي ننطقه اليوم هو غير حرف الضاد الذي كان ينطقه العرب قديما، كما وضّح ذلك رمضان عبد التواب[48]، بناءً على وصف علماء النحو واللغة والقراءات لمخرج حرف الضاد وصفته. فالضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة كما هي الحال في الضاد المعاصرة، وإنّما من حافّة اللسان أو جانبه، وأنّها كانت صوتا احتكاكيا رخوا، في حين أنّ الضّاد اليوم انفجاريّة شديدة.

فقد عدّها الخليل في حيّز الجيم والشّين، وهما من الأصوات الغارية، التي تخرج من الغار، وهو سقف الحنك الصلب. يقول الخليل: "ثمّ الجيم والشّين والضاء"[49]. وكذلك يقول سيبويه: "ومن بين أول حافة اللسان وما يليهما من الأضراس مخرج الضاد"[50]. ويوضح ذلك المبرّد قائلا: "ومخرجها من الشِّدق فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر"[51].

يتّضح من هذه النّصوص الفرق بين الضّاد الأصيلة قديما، والضّاد التي ننطقها حديثا، وأنّها كانت جانبيّة، وليست أسنانية لثويّة، وكذلك لم تكن انفجارية بل احتكاكية رخوة، بدليل قول سيبويه في تقسيم الحروف: "ومنها الرِّخوة وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضّاد..."[52]. وعلى هذا

"فالضاد التي ننطقها اليوم ليست هي الضّاد القديمة التي كانت عند العرب القدماء وإنّما هي تطوّر عنها"[53].

وعن هذا الفرق يقول المستشرق الألماني (برجشتراسر) بأنّ الضّاد الآن "شديدة عند أكثر أهل المدن، وهي رخوة، كما هي الآن عند أكثر أهل البدو، ومع ذلك، فليس لفظها البدويُّ الحاضر هو لفظها العتيق نفسه، وإنّما مخرج الضاد من حافة اللسان، ومن القدماء من يقول: من جانبه الأيسر، ومنهم من يقول: من الأيمن، ومنهم من يقول: من كليهما. فمخرجها قريب من مخرج اللام، الذي هو أيضا من حافة اللسان، وذلك يدلّ أنّ الضّاد كانت تشبه اللام من بعض الوجوه والفرق بينهما هو أنّ الضّاد من الحروف المطبقة كالصاد، وأنّها من ذوات الدّويّ واللام غير مطبقة، صوتية محضة، فالضاد العتيقة حرفٌ غريب جدًّا، غير موجود في لغة من اللغات، إلا العربية، ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالنّاطقين بالضّاد. ويغلب على ظنّي أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أنّ للضّاد نطقا قريبا جدا عند أهل حضر موت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أنّ الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الأسبان بـــ (Ld) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم، ومثال ذلك أنّ كلمة (القاضي) صارت في الأسبانية: (Alcalde). ومما يدلّ أيضا أنّ الضّاد كانت في نطقها قريبة من اللام أنّ الزّمخشري ذكر في كتابه المفصّل أنّ العرب كانت تقول: (اِلطَجَعَ) بدل (اضطجع). ونشأ نطق الضّاد عند البدو، من نطقها العتيق، بتغيير مخرجها من حافة اللسان إلى طرفه، ونطقها عند أهل المدن نشأ من هذا النطق البدوي، بإعماد طرف اللسان على الفكّ الأعلى، بدل تقريبه منه فقط، فصار الحرف بذلك في نطقه شديدا، بعد أن أنْ كان رخوًا"[54].

ويفترض (كانتينو) ثلاثة افتراضات لهذه الضاد القديمة، وهي:

أ- نطق قريب من الدّال المفخمة ذو زائدة لامية.

ب- نطق قريب من الظّاء ذو زائدة انحرافية.

ت- نطق قريب من الزّاي المفخّمة ذو زائدة انحرافيّة.

ثمّ يرجّح الثّاني من الافتراضات[55].

ويرى إبراهيم أنيس أنّ الضّاد القديمة أقلّ شدّةً من الضّاد الحديثة، "إذْ معها ينفصل العضوان المكوّنان للنّطق انفصالا بطيئا نسبيًّا، ترتَّبَ عليه أنْ حلَّ محلَّ الانفجار الفجائيّ انفجارٌ بطيء، نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النّوع من الأصوات، وما يليه من صوتٍ ليّن، فإذا نُطِقَ بالضّاد القديمة، وقد وليتها فتحةٌ مثلا، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصّوتين، تميّز فيها كلّ منهما تميّزا كاملا"[56].

ويظهر من هذا -كما يرى إبراهيم أنيس- أنّ الضّاد القديمة كانت عصيَّة النّطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتّى على بعض القبائل العربيّة في شبه الجزيرة. وفي هذا يرى إبراهيم أنيس أنّ الذي نستطيع تأكيده هنا، هو أنّ الضّاد القديمة قد أصابها بعض التّطوّر حتّى صارت إلى ما نعهده فيها اليوم، وأنّ هذا التّطوّر قد تمّ في القرن الثّامن الهجري، عصرِ ابن الجزري.

وقد ذكر بعضهم صوتا ذا صلةٍ بالضّاد، أسموه: (الضّاد الضّعيفة)، وربّما قصدوا ما عنيناه بالضّاد القديمة، وذكروا كذلك صوتا آخر ذا صلة بالظّاء أسموه: (الظّاء التي كالثّاء) وهي ظاءٌ فقدت جهرها، فانقلبت إلى ثاء مطبقة، وتظهر في كلمة (ظالم) -مثلا- إذا نطقناها (ثالم) بتفخيم الثّاء تفخيما كبيرا[57]. وأرى أنّ الأولى إنّما هي الضّاد لكن تطورت في شكلها، وأمّا الثّانية فإنّما هي انحراف عن الظّاء وليس حرفا آخر.

ويبقى أن نقول في الأخير، بأنّ حرفي الضّاد والظّاء قد نالا اهتماما كبيرا من علماء اللّغة العرب، وذلك لأهمّية معرفتهما، وضرورة إتقانهما.

الهوامش:

1 - الفرق بين الضاد والظاء، الصاحب بن عباد، تح: الشيخ حسن آل ياسين، بغداد، 1958م ص 03.

2 - تثقيف اللسان، ابن مكي الصّقلّي، تح: عبد العزيز مطر، القاهرة، 1966، ص 91.

3 – النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح: محمد سالم محيسن، ج 01، ص 310.

4 – ينظر: سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح: حسين هنداوي، ج 01 ص 228.

5 – ينظر: المصدر نفسه، ج 01، ص 213.

6 – ينظر: المصدر نفسه، ج 01، ص 227.

7 – رسالة أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، تح: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، ص 76.

8 – المصدر نفسه، ص 80.

9 – ينظر: شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، لمؤلف مجهول، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 06، 07.

10 – ينظر: درة القاري منظومة في ظاءات القرآن الكريم، للحافظ عبد الرزاق الرسعني، تح: عبد الهادي الفضلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة العاشرة، العدد 30، جمادى الأولى/ شوال، 1406هـ.

11 – المصباح في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن العزيز، لأبي العباس أحمد بن حماد بن أبي القاسم الحرّاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 13.

12 – المصدر نفسه، ص 14.

13 – المصدر نفسه، ص 22.

14 – ينظر مقدّمة محقق كتاب المصباح، المصدر نفسه.

15 – ينظر: منظومة الفروخي في الكلمات التي تنطق بالظاء والضاد، تح: أحمد الزاوي، دار الفتح، بيروت، لبنان، ط 01، 1404هـ/ 1984م.

16 – الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، لجمال الدّين محمد بن مالك الطائي الجياني، تح: حتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 19، 20.

17 – ينظر: كتاب في معرفة الضاد والظاء، لأبي الحسن علي بن أبي الفرج بن أحمد القيسيّ الصّقلّيّ، مطبوع ضمن كتاب مجموع: نصوص محقّقة في اللغة والنّحو، تح: حاتم صالح الضّامن، جامعة بغداد، 1991م، ص 315.

18 – قام بتحقيق الرّسالة محمد سعيد المولوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط 01 1411هـ/ 1991م.

19 – الضاد والظاء، ابن سهيل، حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01 1428هـ/ 2004م، ص 14.

20 – ينظر: الظّاء، يوسف بن إسماعيل المقدسي، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق سوريّة، ط 01، 1425هـ/ 2004م، ص 11.

21 – المصدر نفسه، ص 16.

22 – المصدر نفسه، ص 16.

23 – المصدر نفسه، ص 17.

24 – المصدر نفسه، ص 20.

25 – المصدر نفسه، ص 20.

26 – الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ وفي المشهور من الكلام، لأبي عمرو الدّاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سوريّة، 1427هـ/ 2006م، ص 29.

27 – المصدر نفسه، ص 29.

28 – المصدر نفسه، ص 33.

29 – ينظر: الفرق بين الضّاد والظّاء، أبو بكر الشّيباني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 11.

30 – الفرق بين الظّاء والضّاد، لأبي القاسم سعد بن علي الزّنجاني، تح: حاتم صالح الضّامن دار البشائر، دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2004م، ص 24، 25.

31 – ينظر: معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء، لابن الصّابوني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار نينوى، دمشق، سورية، ط 01، 1426هـ 2005م، ص 07.

32 – ينظر: حصر حرف الظّاء، لأبي الحسن الخولاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 08، 09.

33 – المصدر نفسه، ص 15، 16.

34 – ظاءات القرآن، لأبي الرّبيع سليمان بن أبي القاسم التّميميّ السّرقوسيّ، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2003 م، ص 13.

35 – ينظر: الدر المرصوف في وصف مخارج الحروف، لأبي المعالي محمد بن أبي الفرج فخر الدين الرازي، تح: غانم قدوري الحمد، مجلة الحكمـــــة، العدد 25، جمادى الثانية، 1423هـ ص 237.

36 – ينظر: استخدامات الحروف العربية (معجميا، صوتيا، صرفيا، نحويا، كتابيا) سليمان فياض، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 75، و 83.

37 – غاية المراد في معرفة إخراج الضّاد، شمس الدّين بن النّجّار، تح: طه محسن، مجلّة المجمع العلمي العراقي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج 02، مجلد 39، 1408هـ/ 1988م 264.

38 – المصدر نفسه، ص 265، 266.

39 – المصدر نفسه، ص 267.

40 – بغية المرتاد لتصحيح الضّاد، علي بن غانم المقدسي، تح: محمد جبار العبيد، مجلة المورد وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، المجلد 18، العدد 02، 1989م، ص 120.

41 – المصدر نفسه، ص 121.

42 – المصدر نفسه، ص 129.

43 – المصدر نفسه، ص 130.

44 – ينظر: الحروف، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: رمضان عبد التواب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ط 01، 1389هـ/ 1969م، ص 30.

45 – العربية الفصحى، هنري فليش، تر: عبد الصابور شاهين، بيروت، 1969م، ص 37.

46 – النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري، تح: عي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 01، ص 220.

47 – ينظر: مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، لرمضان عبد التواب، مقال متاح على الشّابكة، ص 224 وما بعدها.

48 – ينظر: المرجع نفسه، ص 215.

49 – كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج 01، ص 58.

50 – الكتاب، لسيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط 02، 1402هـ/ 1982م، ج 04، ص 433.

51 – المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة 1415هـ/ 1994م، ج 01، ص 329.

52 – الكتاب، لسيبويه، ج 04، ص 434، 435.

53 – مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، رمضان عبد التواب، ص 216.

54 – التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 02، 1414هـ/ 1994م، ص 18، 19. (بتصرف).

55 – ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ/ 1997م، ص 349.

56 – الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، ص 52.

57 – ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشّروق العربي، بيروت، لبنان، ط 03، ج 01، ص 44، 45.

أثر أُصُول الفقه في توجيه أُصُول النَّحو

أ. **طارق بومود**
جامعة مولود معمري تيزي وزو

المقدمة: لقد سلك النّحويون في ضبط الكثير من المصطلحات النّحوية وتحديد مضامينها وتشخيص دلالتها نهج الأصوليين ومصطلحات العلوم الإسلامية التي كانت سائدة ومهيمنة على الحياة الثقافية والعلمية، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لنشأة العلوم تطورها، التي اتخذت في بدايتها صفة التفاعل والتمازج المعرفي؛ لكونها لا تمتلك رؤية منهجية واضحة حتى تستطيع تقنين نفسها بنفسها، وكذلك يوجد بين هذه العلوم علائق معرفية، واتصالات علمية يخدم بعضهم البعض وعلاوة على ذلك، فإن السّمة البارزة التي تتصف بها لغة النص الديني أنها وعاء معرفي وتشريعي تتداخل فيه جميع التخصصات سواء الشرعيّة منها؛ كالتفسير والحديث والفقه وأصوله وغيرها أو لغوية؛ كالبلاغة والنّحو والتّصريف ونحو ذلك، وعليه، فلا بدّ على أيّ دارس للتراث اللّغوي والنّحوي العربي، أن يكون على إطلاعٍ واعٍ بطبيعة العلوم ومناهجها السّائدة في العصر الأول للخلافة الإسلامية؛ فإذا لم يكن على فهم جيد واسع بهذا التّداخل والتّكامل، لن يستطيع قطعًا معالجة المسائل النحوية. ولا يتأتى له ذلك إلا من خلال استكناه هذا التّفاعل؛ لكون العلوم في تلك الحقبة الزمنية تتصف بسمة التداخل العلمي الذي اصطبغ بها التفكير العلمي عند علماء المسلمين الأوائل؛ ومرد ذلك أن أنها كانت في بداية ظهورها تفتقر إلى المنهج والمصطلح، حتى تخضع لسنة التدرج والتراكم المعرفي والمنهجي، الذي يمهد لها الطريق للاكتمال والتّأصيل والنّضج.

وتتضح هذه الصورة بجلاء في العلوم اللّغوية والنّحوية الذي كانت في بدايتها الأولى متداخلة مع الدّرس الشرعي، دون أن تكن لها معامل واضحة أو موضوعات محددة، إذ أنّ هذه العلوم لم تتمايز عن بعضها البعض إلا بعد أن مرت بمراحل زمنية وأطوار تاريخية أسهمت في تشكّيل مفرداتها وحدودها ومنهجها وهي في حقيقة الأمر تمثل شروط الولادة الطبيعية لنشأة العلوم وتطورها؛ حيث كانت العلوم اللّغوية في بدايتها الأولى مشتغلة بالنص القرآني، قصد فهم دلالة ألفاظه التركيبية والمعجمية والبيانية، لتبيّان أسراره ومعانيه الشرعية والاحتجاج به عند الخلاف.

ولمّا اتسعت نطاق الدولة الإسلامية، ودخل الكثير من الأجناس والأقوام في هذا الدين الجديد أفواجا فكانت الحاجة إلى علوم تخدم لغة القرآن أضحت أكثر من ضرورة؛ لتُسهم في ضبط قواعدها النّحوية، وتقعيد قوانينها البيانية وتلبية حاجات دينية بعينها، وكذلك معالجة مشكلات معرفية ولغوية بذاتها التي تعرّض لها النّص الديني ولغته وتتجلي بوضوح في **ظاهرة اللّحن**، التي كانت لها أثر بالغ في إحداث تشوهات في النظام اللغوي العربي الصوتي والتركيبي والدلالي، مما أدى إلى تغيير في دلالة الآيات ومعانيها، كما دعت الحاجة وقتئذ؛ إلى إيجاد أدوات تفسيرية تظم عقل المفسر والفقيه والمريد في كيفية التعامل مع هذا النص المعجز؛ حيث كانت العلوم اللغوية في بدايتها تهدف إلى الحفاظ على القرآن الكريم من أن يسرب إليه اللحن والتصحيف، وكذلك سعيها لفهم دلالة آيات القرآن من خلال كشف معاني ألفاظه وضبط تلاوته، وتحديد أوجه قراءاته المتخلفة وغيرها من المقاصد التي جاءت لتحقيقها؛ حيث اتخذت هذه العلوم –بصفة عامة– منحيين أساسين: **الأوّل**؛ علوم يتجه نحو ضبط الغايات والمقاصد العامة الّتي جاء النص الدّيني لتبيانها وكشفها وتحقيقها والّتي تتمثل في: الفقه والتفسير والمعاملات وغيرها؛ أيّ المتعلقة بمراد الشّارع الّتي أراد إيصالها للنّاس من عقائد وعبادات وتحديد الحلال والحرام، ونحو ذلك **والثّاني**؛ علوم جاءت كأدوات مساعدة وكاشف عن دلالات

ومعاني الخطاب الإلهي، ومن أهما: علوم البلاغة وعلم النحو والتصريف وغيرها وهي في مجملها معينات تساعد الفقيه على الفهم النص الديني.

1- **علاقة أصول الفقه بالنحو وأصوله:** ولعلّ من أبرز العلوم الّتي نشأت في رحاب الدّراسات الشرعية، وكانت لها الأثر البالغ في خدمة النص القرآني وتجلية معانيه واستنباط أحكامه ألا وهو علم النحو الذي انبثق من رحم النص الديني، وتربى بين أحضانه حتى تشكلت مصطلحاته وأدواته ومقاصده، ولعلّ ما فعله أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) حين طلب منه علي رضي الله عنه-لمّا أحس بخطر اللحن على لغة القرآن بسب مخالطة الأعاجم - بأن يضع للناس قواعد يحتكم إليها أثناء اللحن والزلل؛ حيث قام أبو الأسود الدؤلي بوضع نقاط على حروف النص القرآني حتى تساعد القارئ على فهم معانيه، فهذا العمل في ظاهره صوتي ليساعد القارئ على تلاوة الفران بكيفية سليمة؛ بل في حقيقة الأمر هو نحوي ودلالي في أصله؛ لكون الحركات دالة على معاني ومبرزة لمقاصد المتكلم وموضحة لمكونات الجملة التي تشمل على أسماء وأفعال وأزمان وظروف ونعوت وأحوال سواء أكانت جملا فعلية أم اسمية، فهذا الفعل الذي قام به الدؤلي هو عمل نحوي بامتياز.

ومن هنا فإنّ الدّافع الرّئيس لنشأة الدّرس النّحوي هو الاهتمام بالتّعبير القرآني وتدبر معاني، وفهم قصد الخطاب الرباني، وعلاوة على ذلك، فإن قواعد النّحو في حقيقتها جاءت لتقنين الدلالة وحماية النظام اللغة من الاضطراب التركيبي وصيانة أواخر ألفاظه من اللحن أو الخطأ الذي تسببها الأداءات الخاطئة التي لا تخضع للسلامة اللغوية،- والتي نشأت بفعل الاحتكاك اللغوي مع الأجناس والأقوام التي دخلت الإسلام- وهي ليست قواعد جامدة ترهق الدهن بمصطلحاتها وأساليبها؛ بل هي أداة من أدوات التفسير والتحليل اللغوي التي تساعد الباحث على استجلاء المعاني من المكتوب أو المنطوق.

ولعلّه من المفيد، أن أبرز الإفادة التي أفاد منها الدرس النحوي من الدرس الشرعي من خلال تأمل علاقاتهما اللتان أخذتا طابعًا تفاعليًا يصعب الفصل أو إقامة حدود فاصلة بينهما؛ لكونهما يشتغلان بلغة النص الدينيّ من قرآن وحديث التي تتفاعل فيها أنظمة عدة؛ فإلا يمكن فصل عناصرها عن بعضها البعض فالصّوت لا ينفصل عن الكلمة، كما أن الكلمة لا تنفك عن التركيب التي وردت فيه، وكذلك الدلالة لا يمكن أن تأخذها بمعزل عن صوت الكلمة وصياغتها والسياق التي وردت فيه؛ كما ألفينا في المقابل علم أصول الفقه يعنى بالبحث عن القواعد الأصولية الموصلية الّتي تبيان طريقة استنباط الحكم الشرعي من الأدلة الشرعية أمّا علم التجويد فتوجه جهده في البحث عن البناء الصّوتي للقرآن الكريم وتبيّان كيفية تلاوته دراية وأداءً وأمّا علم النحو فقد اهتم بالمستوي التركيبي، وكشف أوجه إعراب آيات القرآن الكريم، وأمّا علم البلاغة الذي انصب اهتمامه في دراسة إعجازه البياني، واستخلاص أسراره الفنية والجمالية والدلالية.

2- **أثر أصول الفقه في نشأة أصول النحو:** لا شكَّ أن العلوم الإسلاميّة في جوهرها قامت علي نص لغوي يتصف بالإعجاز في جميع جوانبه التركيبية والإفرادية والنّحوية و الدلالية، كما يمتلك قوة أسلوبية مؤثرة، وبراعة في التعبير عن مضامينه المتعددة الأغراض والمقاصد، فكان لازما على دارسيه أن يكون على قدرٍ كافٍ وواعٍ بنظام اللغة العربية ومستوياتها المتعددة، قصد الوصل إلى استيعاب أسرار القرآن، وفهم تشريعاته، وإدراك مقاصده، فكان لعلماء الأصول فضل السّبق والرّيادة في تقنين الأدوات التفسيرية، وتقعيد القواعد العقلية التي تساعد الفقهاء على كشف النظام الذي يشتغل عليه هذا النص، وتزويدهم بآليات التحليل والشرح والتفسير؛ حيث بلغ المنهج الأصولي مكانة سامقة بين أهل اللغة والنحو في هذا المجال.

والواقع أن المنهج النّحوي أو مجموعة القواعد والنّظم التي يتبعها النحويون في الاستقراء والاستنباط ظلت إلى وقت متأخر عرفا غير مكتوب، يلاحظه النحاة

ويشيرون إلى التزامه وأتباعه في عبارات قليلة مبتسرة ولم يعمد أحد إلى وضع هذه النظم والقواعد في إطار علم معين. وبالرغم من وضع الضوابط النحوية منذ وقت مبكر فإن التجرد لبحث هذا المنهج النحوي لم يبدأ التفكير فيه إلا بعد وقت طويل. ذلك أن القدماء كانت عنايتهم بالتطبيق أغلب من عنايتهم بالتنظير، والعناية بالتطبيق أو الجوانب العملية من البحث هو ما تدعو إليه الحاجة في أول الأمر، ثم يأتي التنظير في المراحل التالية.

وقد قدّر لأصول الفقه أن توضع منذ وقت مبكر كما رأينا، وقد أخذ علم الأصول طريقه في التدرج شيئا فشيئا، ووضعت فيه التقسيمات والتفريعات المختلفة، بيد أننا ننظر في البيئة اللغوية فلا نرى من حاول وضع أصول للنحو حتى إذا ما قدر لهذه البيئة أن تتجه إلى هذه الوجهة، فإنها تقوم بصنيعها مترسمة خطى البيئة الفقهية في أصولها، فيأتي ابن جني في القرن الرابع الهجري ويحاول أن يضع بعض الأصول النحوية في كتابه الذي ذكر أنه وضعه نتيجة لأنه لم ير "أحدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه"[1] وقد أشار ابن جني إلى عمل قام به أبو الحسن الأخفش (210 هـ) يعد ممهدا لما قام به ابن جني. لذا وقد ربط النحويون بين أصولهم وأصول النحو وبين أصول الفقه، وعبارة ابن جني الآنفة، تدل على شروعه في إقامة الأصول النحوية على نمط الأصول الفقهية، وتأثره بأصول الفقه واضح في حديثه عن القياس والاستحسان والإجماع، وفي حديثه المسهب عن العلل النحوية وهل هي أقرب إلى علل المتكلمين أم إلى علل المتفقهين؟ وقد استمر تأثر أصول النحو بأصول الفقه بعد ابن جني، فظهر هذا الأثر عند ابن الأنباري، كما ظهر عند السيوطي. **أصول النحو**"علم يبحث فيه أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلته وكيفية الاستدلال بها وحال المستدل"[2] وتمثل دراسة أصول النحو دراسة الأسس التي قام عليها النحو.

وقد ظهر البحث في أصول النحو نتيجة تأثر النحاة بعلم أصول الفقه، فقد رغب النحاة في أن تكون لهم أصول معلومة يرجعون إليها في استنباط الحكم

النحوي، كما أن للفقهاء أصولا ينتهجونها في استنباط الأحكام. ويبين ابن الأنباري (ت577 هـ) العلاقة بين الفقه والنحو فيعرف أصول النحو بأنها: "أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله، كما أن أصول الفقه،أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله"[3]. ويربط السيوطي بين أصول الفقه وأصول النحو فيقول عن أصول النحو: "هو بالنسبة إلى النحو وكأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه"[4] فالأصول النحوية، إذ نشأت متأثرة بأصول الفقه.

وقد يجرنا هذا الأثر الذي أحدثته العلوم الإسلامية في الدرس النحوي -لاسيما إسهامه في بناء أصول النحو على مقاسات أصول الفقه- إلى تلمس الدوافع الخفية التي جعلت النحاة إلى تبني منهج الأصوليين الذي لم يقتصر تأثيره على أصول النحو وحده؛ بل تعدى إلى العلوم الأخرى نحو: علم التفسير وعلم الحديث والبلاغية، وهذا بشهادة الدكتور **محمد عابد الجابري** في كتابه بنية العقل العربي الذي أكد أن أصول الفقه قد تغلغل مناهجه في علم شتي التي سعت إلى تأصيل أسسها وقواعدها الإجمالية، ولَمِّ قوانينها الجزئية ضمن قواعد عامة، كذلك ضبط جميع طرائق الاستنباط والاستنتاج والاستدلال قصد تقعيدها وتحديد دلالتها الاصطلاحية في ضوء ما يقدمه المنهج الأصولي من خطوات عملية يسترشد بها علماء الذين أصلوا علومهم.

وإن البحث في تأصيل النحو وفق ما يقدمه مصطلحا الأصل والفرع، فإننا نتجه رأسًا إلى أحد الأصول أو الأدلة الرئيسة التي أثرت في تشكيل التفكير النحوي عند النحاة هو القياس الذي نشأ في رحاب الدراسات الفقهية التي كانت سائدة أنداك فهو يقوم على أربعة أركان وهي: الأصل والفرع والعلة والحكم وإذا تأملنا جيدا في هذه الأركان ولوجدنا أن الأصل والفرع يمثلان الركنان الأساسيان في بناء القاعدة النحوية من خلال تحديد نوعية العلاقة القائمة بينها عبر استخلاص العلة التي تربط بينها لوصول الحكم الجامع بينها فإن منهجية القياس تبحث عن تحصيل حكم الأصل في الفرع.

واللافت للانتباه أن مصطلح الأصل له حضور وانتشار واسع الاستخدام في التّراث العربي القديم؛ حيث امتدّ هذا المصطلح إلى كثير من الميادين العليمة من العلوم الإسلاميّة واللّغوية والبلاغيّة؛ إذ شكّل المصطلح نهجا في إدراك القواعد الّتي اُستخلصت من العربية؛ لكون أنّ هذه اللّغة تتضمن أصول ثابتة لا يصيبها التّحول ولا التبدل، كما أن التّحولات التي تطرأ على بنية الكلمات والجمل في سياقات تداولية مختلفة، هي مجملها لها نظام نحويّة ثابت نسبي تخضع له في صياغة وبناء تلك الكلمات أو الجمل، وهذا وفق المنوال أو القالب النّحوي المحدد سالفًا والمتضمن أصلا في اللّغة.

1.2- مظاهر التأثّير الفقهية في أصول النّحو ومجالاته: إنَّ البحث في طبيعة العلاقة التّفاعلية الّتي نشأت بين هذين العلمين والتي أنتجت أشكالا من التّقارب والتّشابه أو الاختلاف والتّمايز يقودنا إلى إبراز ملامح ومظاهر تّأثُّر أصول النّحو بأصول الفقه، وتتضح بشكل عام في المنهج والمصطلح وأسلوب التحليل والمعالجة.

1.1.2- التّأثّر من حيث المنهج: تدل كلمة المنهج في **اللّغة** على الطّريق البيّن الواضح وهو مأخوذ من الفعل **نَهَجَ** بمعنى سلك وانتحى وانتظم، ويقابله في اللغة الفرنسي **(méthode)** وهذا المصطلح مأخوذ من الكلمة اللاتينية **(méthodus)** وكان أفلاطون **(Platon)** يستعملها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة في المسائل الفلسفيّة والميتافيزيقيّة. أمّا في الاصطلاح؛ فهو يعني: "فنّ التّنظيم الصّحيح لسلسة من الأفكار من أجل الكشف عن الحقيقة، فهو طريقة أو نسق يتبعه الباحث وصولا إلى الحقيقة التي ينشدها"[5] أو بتعريف أخر" هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة الّتي تُهيمن على سير العقل، وتحدّد عملياته حتّى يصل إلى نتيجة معلومة"[6] ومن هذين التّعريفين للمنهج يتضح أنَّ المنهج هو أسلوب تنظيم التّفكير قصد معاينة ومعالجة الظّاهرة المدروسة، سواء أكانت ماديّة أم معنويّة من خلال آليات منسقة تجعل

العقل ينهج خطوات منتظمة وفق خطة مرسومة بدقة، بغية الوصول إلى الحقيقة العلميّة أو كشف القوانين التي تتحكم في الظاهرة المدروسة.

ولاشكّ أن المناهج المتبعة في استخلاص الأحكام الشّرعيّة واستنباط القواعد الفقهيّة الّتي سلكها الأصوليون في تقرير القواعد وضبط الأصول أثّرت بشكل واضح في طرائق تفكير النّحاة وأساليب بحثهم وأنماط تأليفهم، وتجلّى بشكل واضح وواسع في منهجية النّظر في القضايا النّحويّة، ومعالجة المسائل الأصوليّة، وكذلك في طريقة بناء المحتوى النّحوي في مصنفاتهم. وفي ذات السّياق يؤكّد لنا الدكتور **محمود سليمان ياقوت**، أنّ استفادة النحاة من منهج علماء الأصول بقوله: "ولأجل هذا المنهج الذي كان في أيدي علماء أصول الفقه فإنّ هناك صلة بينه وبين النّحاة الذين شعروا بالفائدة العلميّة الّتي يمكن أن تعود على الدَّرس النَّحوي حين الاتصال بالفقهاء وما في أيديهم من منهج"[6] وكان هذا التّأثّير واضحًا في جوانب عدّة أهمّها: **أوّلها**؛ تأثّره بفكرة الأصل والفرع في تقرير القواعد الجزئيّة في النّحو. **وثانيها**؛ تأثّره بأصول الفقه في مناهج البحث النّحويّ. **وثالثها**؛ تأثّره بمنهج استنباط القواعد. **رابعتها**؛ تأثّره بطرائق التّأليف.

2.1.2- تأثره بالمصطلح الفقهي: يُعدُّ المصطلح أداة وسيطة للتحاور العلمي بين الباحثين وعاملا مؤثرًا في بناء القواعد والأسس للعلوم، وكذلك يُسهم في تشخيص المفاهيم وتحديد حدده المعرفيّة حتى تتضح معالمه وينأى به عن التّداخل مع العلوم التي يتفاعل معها أخذًا وعطاءً، وأنَّ مصطلحات النّحو وأصوله خضعت إلى ظاهرة التّأثير والتّأثر مع الفقه وأصوله من حيث المصطلح، ويبدو واضحًا بأنَّ النّحويين استخدموا مصطلحات كثيرة في الدّرس النّحوي وأصوله وكذلك وظّف الأصوليّون مصطلحات كثيرة في علمي الفقه وأصوله، ومن يطلع على هذه العلوم يجد تشابها كبيرًا في هذه المصطلحات المستخدمة في أصول الفقه وأصول النّحو ابتداءً من تسمية العلم، وتحديد مفهومه فالأصوليون بينوا بأن أصول

الفقه هي القواعد العامة وأدلتها الإجماليّة؛، وكذلك ألفينا النحاة يوضحون أنّ علم أصول النّحو يدرس قواعد النّحو العامة وأدلته الإجماليّة.

3.1.2- **تأثره من حيث وضع التّعريفات:** لقد اتخذ النّحاة منهج علماء الأصول في تحديد التّعريفات النّحويّة وضبط دلالتها الاصطلاحية من خلال ضبط الشيء بذكر خواصه التي تميزه، وقد استخدم النحاة لفظ الحد للدلالة عن حدود المفهوم المراد بيانه.والحد في اللّغة بمعنى الإعلام، والتعريف أيضا؛ أو هو إنشاد الضالة وعرّف الضالة؛ نشدها، وورد في معجم مقاييس اللغة: "حد الحاء والدال أصلان المنع والثاني طرف الشيء فالحد الحاجز بين الشيئين ويذكر ابن سيده في معجم المحكم أنّ الحد: "الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر وجمعه حدود، وفصل ما بين كلّ شيئين حدّ بينهما ومنتهى كلّ شيء حده"[7] وجاء في معجم الوسيط بمعنى: "تحديد الشيء بذكر خواصه المميزة"[8] والملاحظ على هذه التعريفات عند اللغويين تنحصر في تبيّان معالم وحدود الشيء من خلال ذكر مميزاته وصفاته التي ينفرد بها.

أما مفهوم الحد في اصطلاح الأصوليين أو النّحاة، فهو لا يختلف عن بعضهما البعض، كما لا يبتعد عن دلالته اللغوية السالفة الذكر، فالحد عند النحويين "هو الدال على حقيقة الشيء"[9] كما أورده الزجاج في كتابه **الإيضاح في علل النحو** بقوله: "وهو الكاشف عن حقيقة المحدود"[10] وبيّن **جمال الدين الفاكهي** في كتابه شرح الحدود النحوية بأنّ الحد والمعرِّف في عرف النحاة والأصوليين اسمان لمسمى واحد. وأمّا **التعريف الاصطلاحي للحد** عند الأصوليين فإن لا يختلف كثيرا عن تعريفات النحاة؛ حيث يعرفه صاحب كتاب قواطع الأدلة في الأصول بقوله: "أنه يجمع الشيء المقصود به وبمنع دخول غيره عليه، وقد قيل الحد هو النهاية التي إليها تمام المعنى"[11] وعليه، فإنّ دلالة مصطلح الحدود بين العلمي تتشابه إلى حد كبير، فهي تدل على التعريفات التي تحددت حدودها وتمايزت معالمها، ولم تتداخل مع غيرها، كما يشير المصطلح في العلمين كذلك؛ إلى قواعد كلية أو

جزئية، والنحاة يصفون الحدود النحوية بأنها تمثل أصلاً أو قاعدةً استنبطت من كلام العرب يشابه هذه القاعدة يأخذ حكمها ويطبق عليه، فهم بذلك يسلكون مسلك علماء الأصول في تحديد الحدود وضبط المصطلحات في شكل قواعد كليّة تتدرج تحتها فروع كثيرة، والمقصود بالقاعدة من النّاحية الاصطلاحية هي الأساس الذي يبنى عليه غيره، وفق حدوده وإطاره الذي لا يخرج عنه.

والجدير التّنويه، أن مصطلحات أصول النّحو لم تستمد فقط من أصول الفقه؛ بل استمدت من مصادر متنوعة، فبعضها من أصل لغوي وبعضها مستمد من علم المنطق والجدل، وبعضها متعلق بعلم الحديث والرّواية، وبعضها متعلق بعلم الكلام. هذا، وقد أشار ابن جني في كتابه الخصائص إلى أثر علم أصول الفقه في علم أصول النَّحو حين تكلم عن علل الفقه عند الحنفيّة خاصة، فيقول: "ينتزع أصحابنا العلل (من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة) لأنّهم يجدونها في أثناء كلامهم يجمع بعضها إلى بعض بالملاطفة والرّفق"[12] وهذا يدل على العلاقة الوثيقة بين العلمين؛ لأنَّ أصول الفقه قد استمد من علوم مختلفة، منها اللّغة العربية ولاسيما في دلالات الألفاظ من الكتاب والسّنة؛ لذلك أخذ علم أصول النّحو من مصطلحات أصول الفقه التي استند فيها إلى لغة العرب، وظهر هذا التّأثير في أن النّحويين تحدثوا في أصولهم عن مصطلح الأصل والفرع، ومصطلح الوضع، والحال الأول مصطلح الرّاجح، ومصطلح العلّة والقياس، ومصطلح السّماع، ومصطلح الإجماع واستصحاب الحال والاستحسان والتّعارض والتّرجيح وغيرها.

3- **علم الأصول بين المفهوم والتّداول:** لا شكّ أنّ مصطلحي الأصل والفرع قديم في العلوم الإسلاميّة والنّحويّة، إذ ظهرا عند الأصوليين قبل النّحاة فهما يمثلان أساسًا مُهمًا في بناء الأحكام الفقهيّة أو النّحويّة، وكذلك في تأصيل وتقعيد النتائج المتوصل إليها؛ لكونهما يؤسسان منهجًا في استنباط المسائل والقواعد من أصولها الأولى، فكان تأثيرهما قويًّا في توجيه تفكير الفقهاء والنَّحاة بشكل

مستمر، ممّا أثّر في عميلة بناء العلوم الشرعية واللغوية والنحوية؛ من حيث المصطلحات والمناهج وآليات الاستنباط. وفي هذا السّياق يوضح **ابن خلدون** في المقدمة أثر علم الأصول في تحصيل القواعد واستنباط الأحكام بقوله: "إن هذا الفن – وهو علم أصول – من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد ممّا عندهم من الملكة اللّسانيّة... فلما انقرض السّلف وذهب الصدر الأوّل وانقلبت كلها صناعة، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه أصول الفقه"[13] ويبدو أنّ قيمة علم الأصول كانت ضرورة ملحة أملتها عليهم ضعف الملكة اللّسانية الّتي كانت في بدايتها سليقة في العرب، ولما أصاب الوهن وشب فيها اللّحن والتّصحيف الذي أضر بمعاني ألفاظ العربية، ممّا دفع الفقهاء إلى وَضْعِ علمٍ يُعنى بدلالات الألفاظ وتقنين أدوات النظر في الأدلة، إضافة إلى بناء مناهج التّحليل وآليات استنباط الأحكام.

1.3- الأصل والفرع بين المفهوم والتّداول: إنّ المتتبع لكلّ من المصطلحين الأصل والفرع من حيث دلالتهما اللّغوي والاصطلاحيّة ينجد أنّهما لم يستقرا على معنى محددٍ ؛ بل تغيّر مفهومهما بفعل تطوّر النّحو العربي من خلال ظاهرة التّأثّير التّأثّر الذي طرأ على هذا النّحو لاسيّما العلوم التي كانت تتفاعل معه في المنهج والمصطلح خصوصًا الفقه وأصوله؛ وأن هذين العلمين أثّرا بشكّل واضح في تغيير الدّلالة الاصطلاحيّة لكلّ من الأصل والفرع.

1.1.3- دلالة الأصل في اللغة: يقول **الخليل:** "واستأْصَلَتْ هَذه الشَّجَرَةُ؛ أي ثَبَتَ أَصْلُهَا. واستأْصَلَ اللهُ فلانًا؛ أي لم يَدَعْ له أَصْلاً. ويُقال: إنَّ النَّخْلَ بأرضنَا أصيل؛ أي هو بها لا يَفْنَى ولا يَزول. وفلان أَصِيلُ الرّأيِ، وقد أصلَ رأيُه أصالةً وإنّه لأصيلُ الرّأيِ والعقل"[14] ويقول **ابن منظور:** "الأَصْلُ: أَسْفَلُ كُلِّ شيء وَجَمْعُهُ أُصُولٌ لا يُكَسَّرُ عَلَى غَيْرِ ذلكَ"[15] ويقول **الزبيدي:** "(الأَصْلُ: أَسْفلُ الشَّيْءِ) يُقال: قَعَدَ في أَصْلِ الجَبَلِ وَأَصْلِ الحائِطِ، وقَلَعَ أَصْلَ الشَّجَرِ، ثم كَثُرَ حتّى قِيلَ: أَصْلُ كُلِّ

شَيْءٍ: ما يَسْتَنِدُ وُجُودُ ذلك الشَّيءِ إليهِ، فالأَبُ أَصْلٌ للوَلَدِ، والنَّهَرُ أَصْلٌ للجَدْوَلِ قالَه الفَيُّومِيُّ، وقَالَ الرّاغِبُ:أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ قاعِدَتُه"[16]وإذا أتينا إلى تحليل المدلول اللغوي لكلمة الأصل؛ فهو يشير إلى الأساس الذي بني عليه، أو القاعدة التي توّحد جميع عناصره المتعددة أو أجزائه المتفرقة، فهو منطلق كل شيء[17]. ونلحظ من خلال هذه المعاني أنّ **(الأصل)** في مدلوله اللّغوي يتخذ ثلاثة معان رئيسة وهي؛ أن الأصل هو الأساس الذي يبنى عليه غيره أو أنه أسفل الشيء أو أنه المنشأ الشيء الذي يَنْبُت فيه؛ لكون أنَّ معنى الأصل في اللغة؛ هو ما يبنى عليه غيره حسًّا أو عقلا، كبناء الجدار على أساسه أو كبناء الحكم على دليل، ونستشف من خلال هده المدلولات اللّغوية أن الأصل هو المصدر الأول الذي انبثق منه الفرع، وهو الأصيل لا مُنْبَتًا ولا مُسْتَنْسِخًا ولا متطابقا لغيره يحمل صفة الفِرادة. ومن هنا يمكن القول أن المعنى اللغوي يقترب من المعنى الاصطلاحي للكلمة أصل، فهو مازال محافظا على معناه اللغوي رغم هذا الامتداد الزمني الطويل.

2.1.3- مفهوم الأصل في النّحو: عرّف **حسن حسين الملخ** الأصل بقوله: "يطلق الأصل في النحو ويراد منه ما يستحقه الشيء بذاته تارة، والقاعدة أخرى والمجرد من العلامة ثالثة، والأكثر الغالب رابعة والأقدم تاريخًا خامسة وغيرها من المعاني، والفرع بخلافه"[18] والنّاظر إلى هذا المفهوم يجد أن فكرة تأسست على الأكثر الشّائع وأصل الوضع الأول أو القاعدة الكلية، وكذلك يشير إلى الكثير الغالب من فصيح كلام العرب.

1.2.3- **دلالة الفرع بين المعنى اللغّوي والاصطلاحيّ:** لقد تقصّت بعض المعاجم اللغويّة القديمة وكذلك القواميس الاصطلاحية المعاصرة نجدها أنها مختلف معاني، فإذا جئنا إلى الدّلالة المعجمية لمادة (ف ر ع) في حدود ما سمحت به تلك البيئة العربيّة القديمة من استعمالات حقيقيّة أو مجازيّة

أ- **الفرع في اللّغة:** وجاء في الصحاح: **الفرع** أعلى الشيء ففرع الشجرة أعلاها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴾ [إبراهيم:24] ففروع الشجرة غصونها وأعاليها وأصلها أسفلها ومنشأها وقال ابن فارس: "الفاء والراء والعين أصل صحيح يدل على علو وارتفاع وسبوغ"[19] لما كانت الفروع ناشئة عن أصل ومعتمدة عليه أطلق اسم الفرع على كل ما كان معتمدًا على أصل ثابت، وبهذا تتبين علاقة معنى الفرع في اللغة بمعنى الأصل.

ب- **الفرع في الاصطلاح:** يدل مصطلح الفرع عند الأصوليين على عدة معان أبرزها: ما يبنى على غيره، ومن هنا يدل تخريج الفروع على الأصول أوهي المسائل التي ولدها المجتهدون من الأدلة التفصيلية[20]، أما في **اصطلاح النّحاة؛** فقد ورد في معجم المصطلحات النّحويّة والصّرفيّة بأن مصطلح الفرع يدل على" ما كان جزءا من الأصل؛ أي أنه متفرع عنه، ويجمع على فروع، فالضمير هو مثلا أصل في الدلالة على الغائب وله فروع تتفرع عنه وهي ضمائر الغائبين مثل: **هي وهما وهن**"[21] وهذا التعريف يشير إلى أن الفرع ينشأ ويصدر عن الأصل الذي لا يلحقه التغير ولا التبدل، بخلاف الفرع الذي يطرأ عليه الحذف والاستبدال والإضافة والزيادة والنقصان، مثل:

الأصل	الفرع
المفرد	المثنى والجمع
الفعل(أصل المشتقات عند الكوفة)	الاسم
الاسم(أصل المشتقات عند البصرة)	الفعل
النكرة	المعرفة
المذكّر	المؤنّث

2.3- **دلالة مصطلح الأصل وتداوله عند النحاة:** لم يثبت مصطلح الأصل على مفهوم واحد؛ بل تطور مفهومه بتطور النحو العربي، شأنه شأن غيره من المصطلحات التي تغيرت معانيها ولم تتغيّر ألفاظها؛ حيث مرّ هذا المصطلح

بمرحلتين، كان في الأولى يدل على دلالات نحويّة متعددة من أمثلة ذلك أن البصريين يرون أن الأسماء أصل والأفعال فرع، وأن الإعراب مقدم على البناء؛ لأنه الأصل. وأضحى في الثانية مفهومًا أساسيًّا في علم أصول النحو، دون أن يتغيّر لفظه بل بقي ثابتًا، استوعب ما طرأ عليه من دلالات في النحو وأصوله[22] ويذهب الدّكتور **حسن خميس الملخ** أن عبد الله بن أبي إسحاق المتوفى (ت 117هـ) أوّل من نظر إلى النّحو اعتمادًا على القياس القائم أساسًا على فكرة الأصل والفرع، حتى قيل عنه: عبد الله أعلم أهل البصرة وأعقلهم، فرّع النّحو وقاسه[23]؛ حيث قام بتطبيق القاعدة النّحوية الكليّة –وهي تمثل أصل الضبط النّحوي عنده– الّتي استنبطها الجيل الذي سبقه بالاستقراء الناقص لبعض النّصوص اللّغوية، وجعل منها معيارًا للصواب والخطأ في النّحو.

1.2.3– **دلالة الأصل بين الخليل وسيبويه:** إنّ من أوائل النّحاة الذين استخدموا مصطلح الأصل هو **الخليل بن أحمد الفراهيدي** في كتاب العين؛ حيث قال: "ليس للعرب بناء في الأسماء ولا الأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليس من أصل الكلمة"[24] ويُستشف من هذا القول أن دلالة كلمة أصل عند الخليل؛ تعني المكونات الأساسية للكلمة دون أحرف الزيادة. وقد استقر معنى الأصل بهذا المفهوم في كتب النّحاة القرن الرّابع الهجري، غير أن **سيبويه** لم يستخدم مصطلح **(الأصل)** بالمعنى الاصطلاحيّ، وإنّما وظّف مصطلح **(الأوليّة الأصل)** فحلّ مصطلح **(الأوّل)** محلّ مصطلح الأصل ويتجلى ذلك في قول **سيبويه:** "المبتدأ الأوّل والمبني ما بعده عليه فهو مسند ومسند إليه"[25] ومعنى ذلك أنّ مصطلح الأصل عند سيبويه يدل على أولية؛ أي أن المسند إليه **(وهو المبتدأ)** على المسند **(وهو الخبر)** إذا فالعلاقة إسناديّة. ومن أقدم التّعريفات لمصطلح**(الأصل)** تعريف **الرماني(384ه)** له بقوله: "الأصل أول يبنى عليه ... الفرع والفرع ثان يبنى على أول"[26] ونلحظ أنّ الرّماني تناول المصطلح بالنّظر إلى أصل الشيء وأولويته في

الوجود، دون النظر إلى الزّيادة أو عدمها، ولهذا جاء مقابل مصطلح الفرع، ومن الأمثلة على ذلك نجد أن المبتدأ أصل والخبر فرع والمفرد أصل والمثنى والجمع فرع.

2.2.3- **دلالة الأصل عند ابن جنّي:** لقد اتخذ مصطلح الأصل عند **ابن جنّي** دلالة أخرى تختلف عن ما وردت عند الخليل أو سيبويه أو الرّماني، فابن جنّي ينظر إلى الأصل باعتباره الحرف الأصليّ في الكلمة، أما الزائد فهو المتغير في الكلمة الذي لا يستقر على حال؛ أي أن مفهوم الأصل عنده يقابل مصطلح الزائد. وإنَّ المتتبع لدلالة الأصل عند ابن جني تجد أنها اتخذت دلالات متعددة أهمها:

أ- **الوجود الحقيقيّ والوجود النّظريّ:** ارتبطت دلالة الأصل عند ابن جني بفكرة الوجود النّظريّ والتّقديريّ في مقابل الوجود الحقيقيّ، وموضح هذا المعنى بقوله: "إنَّما معنى قولنا أنّه كان أصله كذا: أنّه لو جاء مجيء الصحيح ولم يعلل لوجوب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا... فأنت بهذا أنّ أصل شلت يده شللت؛ أي لو جاء مجيء الصّحيح لوجب فيه تضعيفه"[27] في الجدول التّالي بيان لهذه الفكرة:

الوجود الحقيقي	الوجود النّظريّ
قول	قال
صوم	صام
بيع	باع

ب- **الأصل بمفهوم القاعدة:** وظّف ابن جنّي مصطلح الأصل بدلالة آخر وتدل على مفهوم القاعدة الأساسية الّتي تبنى عليها اللغة، ويتضح ذلك من قوله: "فإن أنت رأيت شيئا على هذا النحو لا ينقاد ذلك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين: إمّا أن تكون لم تمعن النظر فيه فيقعد به فكره عنه. أو أن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا"[28] ومن اللافت أن أشير إلى أنّ هذا المصطلح كثير التداول بين النّحاة، إلا أن معناه الاصطلاحيّ لم

يستقر على مفهوم محدد يكمن أن نجتمع عليه؛ إذ عُرّف بتعريفات عديدة منها: نحو قولهم: الأصل أولى حالات الحرف أو الكلمة قبل أن يطرأ عليها أي تغيير أو قولهم: ما حق التركيب أن يكون عليه وإن لم يُنطَق به أو أوّل يُبنى عليه ثانٍ وغيرها من التعريفات التي تعددت معانيها وإن اتفقت في المصطلح، إلاّ أن كلّ هذه المعاني ترجع إلى تصور واحد وهو الاحتكام إلى سند سمعي موثوق به، أو الرّجوع إلى قياس استعمالي أو نظريّ جرى تداوله في البيئة اللغّويّة النّموذجيّة، أو الاستناد إلى إجماع نحوي يُحتكم إليه عند وجود التّنازع والخلاف، أو استصحاب حاله الأولى الذي كان عليه في تثبت أو تعليل حكم نحوي ما. كما يطلق الأصل أيضًا معنى القاعدة الكلية التي تنطبق على الجزئيات والفروع التي مهدها النحاة لكيفية التعامل مع أدلة النحو لاستنباط الحكم النحوي، كالقليل لا يعتد به و الأصل في الأسماء أن ألاّ تعمل.

وإنَّ فهم المزيّد من التّحولات الّتي طرأت على دلالة مصطلح الأصل في سياقه التّاريخي لا يتأتي إلاّ عبر استكناه التّفاعل الذي حصل بين أصول النّحو وأصول الفقه، ولا يتم ذلك إلا من خلال ضبط مفاهيمها الاصطلاحيّة وتحديد حدودهما الّتي تكشف بشكل جلي التّقارب والتّلاقي بين العلمين، والتي تسعفنا في إدراك هذا التّفاعل الاصطلاحي واستيعاب تأثيره وتجلياته في الدّرس النّحوي وأصوله؛ إذ يعدّ الجانب اللّغوي والنّحويّ من أهم الجوانب الّتي يقوم عليها أصول الفقه، وأساس هذا العلم قائم على منطق اللّغة العربية الموصلة إلى استنباط الحكم من الكتاب والسنة؛ إذ يَحسن بنا أن نوضح الصورة الكاملة لهذا العلم من خلال تحديد المعاني التداولية لمادتي الأصول والفرع، وأثرهما في توجيه التفكير النحوي لدى النحاة.

4- **المعاني التّداولية لمادة الأصل عند الأصوليين:** أسعى في هذا العنصر إلى استنطاق مصطلح الأصل ضمن مجاله التداولي عند علماء الأصول للثبت من خلاله أن بعض مسائل أصول النحو مأخوذة من كتب أصول الفقه. فقد ورد في

(قاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين) عدة معاني لمصطلح الأصل وتتمثل في:

1.4- **الأصل بمعنى الدليل:** مثل قولهم: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة، ويقصدون بذلك الدليل عليها هو القرآن والسنة النبوية المطهرة.

2.4- **الأصل بمعنى الراجح،** يقال: الأصل في الكلام الحقيقة؛ أي الرّاجح عند السامع هو المعنى الحقيقي دون المعنى المجازي لعدم القرينة الدالة عليه.

3.4- **الأصل بمعنى المستصحب،** يقال: الأصل في الأشياء الإباحة والأصل في الإنسان البراءة على معنى أنه تثبت للإنسان براءته، ولا يكون متهما حتى تثبت إدانته بالدليل.

4.4- **الأصل بمعنى القاعدة الكلية المستمرة،** فيقال: الأصل أن الأمر يقتضي الوجوب والأصل في الفاعل الرفع، وفي المفعول به النّصب؛ أي أن الأمر يفيد تقتضي الوجوب وأن الفاعل في أصله يأتي دائما مرفوعا وكذلك نصب المفعول به.

5.4- **الأصل بمعنى المقيس عليه؛** كقول الفقهاء: الخمر أصل النبيذ؛ بمعنى الخمر مقيس عليها النبيذ والنبيذ مقيس.

6.4- **الأصل بمعنى المخرج،** يقول الفرضيون: أصل المسألة كذا، مثال ذالك: أن يتوفى الإنسان عن أم وبنت، فالأم لها السدس، والبنت لها النصف وأصل المسألة الذي تخرج منه سهامها دون باق هو ستة، فيقال: مخرجها السدس[29] وإنَّ المتأمل في هذه المدلولات الاصطلاحيّة لكلمة أصل في اصطلاح الأصوليين يجد أنّ جميعها تشير إلى وجود علاقة وطيدة بين المصطلح اللغوي ومفهومه؛ لوجود مناسبة بين معناه اللّغوي ومفهومه الاصطلاحي، والذي تأسّس على عدد من المعاني أبرزها: الدَّليل والرَّاجح والقاعدة الكليَّة المستمرّة والمقيس عليه، كما أنَّها تُحدد الكيفية التي يجب أن يتبعها الفقيه للوصول إلى الحكم الشّرعيّ، فهذه المعاني في مجملها تُعد موجهات أساسيّة لاستنباط الأحكام الشّرعيّة

من أدلتها التّفصيليّة، وهذا لفهم دلالتها من خلال نقل حكم ثابت وصريح على واقعة جديدة لم يرد فيها حكم شرعي؛ لاشتراكهما في العلّة نفسها. إذًا؛ فمفهوم الأصل من منظور فقهي يُشير إلى الجدر الذي يستمد منه الفروع وجودها؛ حيث يعمل الفقيه على إجراء مقارنة بين الأصول والفروع عبر إدراك العلّة الّتي تجمع بينهما، ثم يقوم بنقل الحكم الأصل إلى الفرع؛ فهي عملية تمديد الحكم الذي اُستنبِط من الأصل ثم يُجريه الفقيه على المسائل الجديدة الفرعية لارتباطها بعلة التي يشتركان فيهما. ونستخلص مما سبق ذكره، أنّ الأصوليين توسعوا في شرح كلمة أصل أكثر مما توسع فيه النُّحاة.

5- أثر الأصل والفرع في بناء منهجية التّفكير النّحوي: إنَّ البحث النحوي عند النحاة قام على منهجية محددة تستند إلى فكرة الأصل والفرع التي وجّهت من البداية التفكير النحوي، وهذا من خلال التّميز بين أصولها وتحديد الفروع التي تفرعت منها؛ لاسيّما من حيث نوع العلّة التي تجمع بينهما حتى تقضى بنا إلى إصدار الحكم النحوي على هذه الظاهرة أو تلك. ويُقرّر هذا المعنى الأستاذ **عبد الرحمن الحاج صالح:** "كثيرًا ما يستعمل النّحاة كلمتي الأصل والفرع فيقول سيبويه مثلا:"لأنّ الأسماء كلّها أصول التذكير"(الكتاب22/1) وكذلك يقول عن المفرد فهو أصل للمثنى والجمع، وكذلك لأنّ المؤنث يتحصل بزيادة شيء على المذكر وكذلك هما المثنى والجمع بالنسبة للمفرد.أما أصالة الاسم فلأنّه يمكن أن يظهر وحده في الكلام، أما الفعل والحرف فلا يظهران أبدًا إلا مع الاسم أو مع كليهما. فالعناصر اللّغويّة مراتب على حدّ تعبيرهم ويعنون بذلك أنَّ كلّ كيان لغوي إما أصل يبنى عليه غيره، أو فرع يبنى على أصل، أو أصول**(على مثال سابق)**"[30]

ولذا، فإنّ أساس القواعد النّحويّة وأحكامها في النّحو العربي في مجملها تأسست على فكرة الأصل والفرع. وعلى العموم فإنّ الأصل من خصائصه الذاتية أنه يتصف بأسبقية الظهور، كما أنه لا يخضع لمنطق التحول والتبدل في جوهره الذاتية التي يتكوّن منها، فهو دائما يحافظا على كينونته الأصيلة أكثر من الفرع

الذي يعتريه التّحول والتّبدل. وإذا اعتمادنا أمثلة الأصوليين في هذا المجال نحو قولهم: **إذ حضر الماء بطل التّيمم** لكون أن الأصل في طهارة البدن يكون بالماء. وكذلك قولهم: **لا اجتهاد مع نص**؛ لكون النّص الشرعي أوثق حجة من باقي الأدلة الأخرى. ولهذا يمكن القول أنّ النّحويين اتبعوا منهجية علماء الأصول في مجال وضع القواعد الكلية التي سُميّت بالقواعد الفقهية أو الأصولية التي تندرج تحتها فروع جزئيّة، وهي تدل على أفعال المكلفين كقولهم: **(لا ضرر ولا ضرار)** فالضرر من فعل المكلف، والضرر يزول بفعل المكلف، أو مثل قاعدة **(المشقّة تجلب التيسير)** ومن فروعها التيمم للصلاة عند فقد الماء، وإفطار الصّائم المريض وغيرها، وكل ذلك من أفعال المكلفين. ومعنى هذا؛ أنّ القاعدة الأصوليّة بصفة عامة تختص بتناول أدلة الفقه الإجمالية بالتحليل والتفسير لأحكام الشرعية؛ كقولهم: الأمر يفيد الوجوب، وكقولهم: **(العام يحمل على الخاص)** والعموم والخصوص من أدلة الشرع وهكذا. ويتضح هذا الأثر الأصولي عند النحاة في بنائهم **القواعد النّحوية**؛ فهي تتعلق بتقويم اللسان من الخطأ أو اللحن وتركيب الجمل المفيدة تركيبا نحويًّا سليمًا، مثل**(كلّ حرف مبني)** وكقولهم: **(الفاعل ونائبه مرفوعان)** ومثل قولهم: **(الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة)** وأمثلة على هذا كثيرة.

ولذا؛ فإنّ النحاة اتبعوا طريقة الأصوليين في تقنين الظواهر النّحوية المتشابهة ضمن قواعد أصولية عامة لاسيما التي تتناول أدلة النّحو الإجماليّة كقولهم: **(السّماع الصّحيح حجة في إثبات حكم نحوي)** وكقولهم: **(يُعمل بالمُجْمَع عليه عند تعارضه مع المختلَف فيه)** وقولهم: **(إذا تعرض الاستصحاب مع دليل سماعي أو قياسي فلا عبرة به)** وقولهم: **(يجوز ترك القياس استحسانًا)** وغيرها كثير. لذا نجد كثيرًا من القواعد النحوية مقتبسة من القواعد الفقهية؛ حيث أشار

الدكتور **فاضل صالح السامرائي** إلى هذا التقارب بين هذه القواعد العامة في كلا العلمين؛ إذ أورد أمثلة على ذلك نحو قوله": أن ابن جنّي عنون في الخصائص بابا سمّاه **(حمل على أحسن القبيحين)** إذ عدّه **السامرائي** أنّ هذا العنوان يشبه القاعدة الفقهية **(يُرتكب أخف الضررين)** وكما ذكر **السامرائي** أن **ابن الأنباري** حينما تكلم عن القاعدة النحوية التي مفادها **(إذا تعارض المانع والمقتضى قدم المانع)** هي كذلك تشبه إلى حد بعيد القاعدة الفقهية التي تقول **(درء المفاسد مقدم على جلب النافع)**"[31] ومن خلال ما تم ذكره يتضح لنا بشكل جلي، أن النّحاة كانوا يسترشدون في بناء وصياغة القواعد النحوية الكلية بما يقدمه علم أصول الفقه من منهج ومصطلح التي تخص شروط ومقومات بناء القواعد الفقهية.

ولهذا ألفينا الكثير من النّحويين كانوا يتكؤن على مصطلحي الأصل والفرع في تحليل النّظام النحوي للعربية، حتىّ أصبحت ركيزة علمية ومنهجية النحاة في بناء القواعد النحوية التي تنتاب الظواهر النحوية. ويمكن بهذا العرض الموجز أنْ نُبيّن الأثر الذي أحدثته فكرة الأصل والفرع في بناء القواعد النّحوية من خلال هذا الجدول:

الأصل	**الفرع**
المفرد	المثنى/ الجمع
المذكر	المؤنث
الحركات الإعرابية الأصلية: الضمة، الفتحة، الكسرة	الحركات الإعرابية الفرعية: الواو والألف والياء
الفعل(أصل المشتقات عند الكوفة)	المصدر
المصدر(أصل المشتقات عند البصريين)	الفعل

الخاتمة: ومن خلال هذه المعالجة المستفيضة لصوّر التأثير الأصولي في الدّرس النّحوي يتبيّن لنا النحاة قد تأثروا بمنهجية علماء الأصول في جملة من المسائل أهمها:

1- استعانة علماء أصول النّحو بمنهج علماء أصول الفقه في يضبط المفاهيم الاصطلاحية لعلم أصول النحو؛

2- امتدت فكرة الأصل والفرع التي نشأة في ظلّ الدرس الفقهي إلى مجالات البحث اللغوي؛ من نحو وصرف وبلاغة، كما تطال أيضا المسائل الأصولية النحوية التي تستند إليها في بناء الأحكام وتقعيد القواعد وتقسيم الأبواب؛

3- يدّل مصطلح الأصول على مجموعة المصادر الأولى المعتمد عليها في استنباط الأحكام والقواعد الفقهية أو النّحوية، نحو: القرآن والسّنة والقياس والسّماع والإجماع؛

4- يُشيرُ مصطلح الأصول إلى كيفية الاستدلال وصياغة القواعد الأصوليّة سواء الفقهية أم النّحوية؛

5- يدل مصطلح الأصول إلى المنهج الاستدلالي الذي يبحث عن كيفية الاستنباط للأحكام التي تعضدها. وعلى ذلك، فإن علم الأصول في كلا العلمين يتركان في العناية بالقواعد الكلية التي تتحكم في الجزئيات وتنظيم المسائل الإجمالية التي يسترشد بها العلماء في بناء أحكامهم وصياغة قواعدهم.

الهوامش:

1- السيوطي، الاقتراح في علم أصول النّحو، تح: محمد حسن محمد حسن، دط. بيروت: 1971م، دار الكتب العلمية ص60.

2- السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النّحو، ص10.

3- المصدر نفسه، ص14.

4- المصدر نفسه، ص14.

5- صالح بلعيد، في المناهج اللّغوية وإعداد الأبحاث، دط. الجزائر: 2005م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع ص14.

6- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، دط. القاهرة: 1968، دار النهضة العربية، ص5.

6- محمود سليمان ياقوت، النّحو العربي تاريخه – أعلامه – نصوصه – مصادره، دط. مصر: 1994م دار المعرفة الجامعة، ص211.

7- أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي ط1. بيروت: 2000 م دار الكتب العلمية، ج2، ص504.

8- معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4. القاهرة: 1425هـ-2004م، مكتبة الشروق الدولية مادة (ح دّ)

9- أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تح: مازن المبارك، ط5. بيروت: 1406هـ ص46.

10- أبو البقاء عبد الله بن الحسين، مسائل خلافية في النحو، تح: محمد خير الحلواني، دط. بيروت: 1992م، دار الشروق العربي، ج1، ص45.

11- أبو المظفر منصور بن محمد عبد الجبار السمعاني، قوطع الأدلة في الأصول، تح: محمد حسن إسماعيل الشافعي ط1. بيروت: 1418هـ، دار الكتب العلمية، ج1، ص33.

12- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط3. مصر: 1988م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ص 13.

13- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دط. بيروت: دت، دار الجيل ص 503-504.

14- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1. لبنان: 1424 هـ- 2003 م، دار الكتب العربية، مادة(أ ص ل).

15- أبو الفضل الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دط. القاهرة: 1419هـ - 1998م، دار المعارف، مادة: (أ ص ل).

16- محمد مرتضى الحسينى الزبيدي، تاج العروس، تح: مصطفى حجازي، ط1. الكويت: 1431هـ- 1993م، التراث العربي، مادة: أصل.

17- محمد خان، مدخل إلى أصول النحو، دط. الجزائر: دس، دار الهدى للطباعة والتوزيع ص4.

18- حسن خميس الملخ، نظريّة الأصل والفرع في النحو العربي، ط1. الأردن: 2001، دار الشروق للنشر والتوزيع ص75.

19- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمد هارون دط. القاهرة: 1399هـ- 1979م، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، ج4، مادة (ف ر ع).

20- سعيد بن ناصر الشثري، الأصول والفروع حقيقتها والفرق بينهما والأحكام المتعلقة بهما ط1. الرياض: 1426هـ- 2005م، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ص189.

21- محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية، ط1. بيروت: 1405هـ- 1958م، مؤسسة الرّسالة، ص171.

22- حسن خميس الملخ، نظريّة الأصل والفرع في النحو العربي، ط1. الأردن: 2001، دار الشروق للنشر والتوزيع ص71.

23- نفسه، ص32.

24- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين،ج1، ص49.

25- أشرف ماهر محمود النواجى، مصطلحات علم أصول النّحو دراسة وكشف معجمي، دط. القاهرة: 2001 م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص13.

26- نفسه، ص13.

27- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط3. مصر:1988م، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ج1، ص13.

28- ابن جني، الخصائص، ج1، ص13.

29 – محمد حامد عثمان، القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين، ط1. الرياض: 1423هـ- 2002م، دار الزاحم للنشر والتوزيع، ص55.

30– عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، دط. الجزائر: 2007م المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، ص321.

31– فاضل صالح السامرائي، ابن جني النحوي، دط. بغداد: 1389 هـ– 1969م، دار النذير للطّباعة والنشر والتوزيع، ص187.

الحرف بين المفاهيم اللغوية والفاعلية النصية

أ. سليمان بوراس

جامعة المسيلة

ملخص

اهتم النحاة العرب الأقدمون بالحرف إذ جعلوه قسيما كاملا للاسم والفعل، وذلك لِمَا رأوا له من قيمة كبيرة، كما درسوا دور هذا الحرف في ربط العناصر اللغوية بعضها ببعض، وأدرجوا ذلك تحت مصطلح (التعليق) الذي أطلقه عبد القاهر الجرجاني، وقسموا الحروف إلى عاملة وغير عاملة انطلاقا من فكرة الاختصاص بالدخول على العنصر اللغوي الذي تدخل عليه، تعمل إذا كان واحدا وتعطل إذا تعدد، كما ذهبوا بعيد في استقراء معاني الحرف انطلاقا من ميزة الاقتراض اللغوي ؛ ويأتي هذا العمل ليثمن جهد الأولين ليربط هذا التراث الكبير بجهود علماء لسانيات النص، فيتناول دور الحروف في تحقيق الاتساق النصي من خلال قراءة جديدة لفاعلية الحرف وقدرته على الربط بين العناصر اللغوية، ونظرا لكثرة عدد الحروف في العربية وصعوبة تناولها جميعا فإننا نتناول بعضا منها وعليها يكون القياس.

Abstract

The ancient Arabs grammarians interested on the study of the "prepositions", so they made it at the same category as the "Noun" and "Verb", because of its great value. As well, they studied the role of "prepositions" in linking the lingual elements with each other, and they categorized that under the term "INTERLINKED" named by ***Abdul Kaher EL Jurjani*** *. Also they divided the prepositions into "* ***ACTIVE****" and "****INACTIVE****" from the idea of "specialty" by entering from the lingual elements that it uses, being active if it is alone, and inactive if it is multiple, as they went far in extrapolating the meanings of the prepositions from "borrowing language" feature , all this work comes to appreciate the efforts the first grammarians to link this great heritage with the efforts of "textual linguists" , in dealing with the role of prepositions in making the" textual cohesion" through a new reading of the effectiveness of the prepositions and its ability in linking between the lingual elements, and due to the large number of "prepositions" and their difficulty in Arabic Language , here we study some of them.*

مفهوم الحرف: تناول النحاة العرب الحرف بالدراسة والتحليل، وعنوا به عناية كبيرة، كما كان للسانيين النصيين المحدثين اهتمام كبير به، وذلك لأن أهمية هذا العنصر اللغوي في الميدانين كبيرة، فالحرف ذو قيمة عند النحاة بالنظر إلى الدور الذي يؤديه لفظيا، وذو قيمة عند علماء البلاغة نظرا لما يؤديه من معنى، وذو قيمة عند اللسانيين نظرا للفاعلية النصية المتمثلة في دلالته على الاتساق النصي.

وقد استعمل النحاة مصطلح (حرف)، وجعلوه الحرف قسيما للاسم والفعل حينما قسموا الكلم، وداخل دراساتهم في هذا القسم استعملوا مصطلح (حرف) واستعملوا مصطلح (أداة) من لدن سيبويه، واختلفوا في نطاقهما فمنهم من يجعلهما متساويين كسيبويه في الكتاب، ومن ذلك أنه حينما تحدث عن القَسَم قال: وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر[1]، ومنهم من يفرد الحرف بمعنى والأداة بمعنى آخر، ومن خلال ذلك تكون الأداة في بعض أحوالها شاملة الحرف وغيره[2]، وقد توسع هذا المفهوم عند المحدثين حتى شمل النواسخ الفعلية ككان وأخواتها [3] .

أما النصانيون فقد اهتموا بذلك من خلال قدرة الحرف على أن يكون ملاط الجملة ؛ فبالحرف يظهر اتساقها، وذلك من خلال فاعلية الحرف وقدرته على إحداث اتساق النص، ونود في هذا العمل أن نتناول الحرف من زاوية المعنى النحوي، كما نتناوله من خلال القيمة اللسانية التي يحوزها، غير أننا ــ ونظرا لكثرة الحروف ولتشابه ما تقدمه هذه العناصر اللغوية من دور نحوي وما تقدمه من فاعلية لسانية ــ سوف نتحدث عن بعض منها لا عنها كلها، وهذا من باب التمثيل لا الحصر، وعلى الذي نذكر يقاس الباقي، فلعل هذا العمل المتواضع البسيط يكون ميدانا جديدا لعمل علمي آخر أكبر منه .

لا يختلف اثنان في أن الحروف والأدوات من أهم الروابط للجملة العربية بل وللتراكيب جميعا، وتنقسم هذه العناصر اللغوية، ومن حيث الأصالة إلى قسمين ــ الأداة الأصلية وهي الحروف ذات المعاني كحروف الجر والنسخ والعطف الخ..."[4]، فمن جهة المعنى "تنحصر وظيفتها في الوصل بين الكلمات في الجمل

وأشباه الجمل لتبيان العلاقات بينها كحروف الجر وبعض الظروف وحروف العطف"[5]، فهي تعلق العناصر اللغوية بعضها ببعض، إذ من خلالها يبدو ذلك الاتساق الذي تعنى بدراسته اللسانيات النصية، فالتعليق الذي تربطه الدراسات النحوية واللسانية بحروف الجر ليس في الحقيقة مهمة حروف الجر وحدها دون بقية الحروف بل تسهم الأدوات جميعا في تحقيق هذا المطلب اللغوي، والتعليق لا يقتصر على الظرف والجار والمجرور وإنما هو وظيفة الأدوات جميعا"[6].

وأما الأدوات غير الأصلية أو المحولة، فقد تكون ظرفية وذلك حين تُستَعملُ الظروف في تعليق جمل الاستفهام والشرط، أو اسمية كاستعمال بعض الأسماء المبهمة في تعليق الجمل مثل كم وكيف في الاستفهام، والشرط أيضا، أو فعلية لتحويل بعض الأفعال التامة إلى صورة الأداة بعد القول بنقصانها مثل كان وأخواتها وكاد وأخواتها، أو ضميرية كنقل من وما وأي إلى معاني الشرط والاستفهام والمصدرية والظرفية والتعجب "[7].

وأصل الحروف أن تكون عاملة، لأنها ليست لها معان في أنفسها، وإنما معانيها في غيرها، وأما الذي معناه في غيره وهو الاسم، فأصله أن لا يعمل في غيره وإنما وجب أن يعمل الحرف في كل ما دل على معنى فيه، لأن اقتضاءه معنى فتقتضيه عملا لأن الألفاظ تابعة للمعاني[8]، وهذا الأثر الإعرابي لا يكون حتى يكون الحرف مختصا به ؛ إذ الأصل في كل حرف يختص أن يعمل في ما اختص به، وفي كل حرف لا يختص ألا يعمل[9]، فحروف الجر مختصة بالدخول على الأسماء فهي عاملة فيها، و"لم ولن" مثلا عاملتان في المضارع لاختصاصهما به، و(قد) لم تعمل لدخولها على الماضي والمضارع، و(هل) الاستفهامية حرمت العمل لأنها قد تدخل على الاسم كما تدخل على الفعل"[10].

ولكل واحد منا أن يتصور تركيبا لغويا لا يتضمن حرفا ؛ كيف سيكون التلاحم فيه، إنه قد يمكن أن يتشكل التركيب اللغوي الكامل دون الحاجة إلى الحرف، بل قد يمكن أن يتشكل مع الاستغناء عن الحرف في هذه المنظومة

البسيطة من التراكيب، لكننا لن نكون قادرين أبدا على أن يكون كلامنا جميعا مبعِدا الحرفَ من أن يكون واحدا من أهم المكونات له، إذ "التعليق بالأداة أشهر أنواع التعليق في اللغة العربية الفصحى، فإذا استثنينا جملتي الإثبات والأمر بالصيغة (قام زيد، وزيد قام، وقم) وكذلك بعض جمل الإفصاح فإننا سنجد كل جملة في اللغة الفصحى على الإطلاق تتكل في تلخيص العلاقة بين أجزائها على الأداة"[11].

أما من الزاوية النصية فالحروف كما يرى الدكتور الأزهر الزناد تأتي لتقديم خدمات لغوية متنوعة كالسببية والتعليل، أو تأتي حروف الجر لإضافة عنصر إخباري جديد"[12].

ومن الحروف التي تؤدي هذا الربط الكلامي في المنظومة الكلامية العربية حروف الجر، وهي الحروف التي ينظر إليها في الدرس اللساني النصي على أنها تأتي لإضافة عنصر إخباري جديد[13]، وهي حروف عاملة لتوافر شرط الاختصاص فيها إذ "الأصل في كل حرف يختص أن يعمل في ما اختص به، وفي كل حرف لا يختص ألا يعمل"[14]، وحروف الجر مختصة بالدخول على الأسماء فهي عاملة فيها، وحروف الجر من حيث دلالتها يقول عنها الرضي الأستراباذي: "حروف الجر: ما وضع للإفضاء بفعل أو شبهه أو معناه إلى ما يليه"[15]، فهي الرابطة للأفعال وأشباهها بما يليها من العناصر اللغوية، ويسميها بعضهم حروف الإضافة... أي تضيف الأفعال إلى الأسماء أي توصلها إليها [16]، ونود أن نتحدث في حديثنا عن الحروف العاملة عن نماذج من حروف الجر محاولين أن نستدل من خلالها – لما تتوافر عليه من القدرة على الربط والتعليق – على ميزة الاتساق التي تعد من أهم ما تعنى به اللسانيات النصية الحديثة، وحديثنا بالاقتصار على البعض دون البعض الآخر مرده أن الحديث عنها جميعا لا يتسع له مقال، فحسبنا أن نتحدث عن البعض وعلى البعض يكون القياس، أو على الأقل يكون ذلك مما يمهد الطريق للباحث حتى يلج باب البحث في هذا الذي بدأنا العمل فيه، ويؤسس هذا المنطلقُ بدايةً لدراسة جديدة .

1ــ كاف الجر: من حروف الجر الحرف (ك)، وقد بدأت بهذا الحرف واخترته ليكون المثال لأنه الحرف الأكثر تقاطعا مع اللسانيات النصية من خلال إحداثه للمقارنة النصية التي تعد من أهم ما يدرس في باب الاتساق وهو حرف قال عنه سيبويه ممثلا رأي النحاة "وإنما تجيء الكاف للتشبيه فتصير وما بعدها بمنزلة شيء واحد"[17]، وقال عنها في موضع آخر من الكتاب وسار على نهجه ابن هشام في المغني "وكاف الجر التي تجيء للتشبيه"[18]، ويختص بالدخول على الأسماء ويضيف عنصرا إخباريا جديدا[19]، فإذا أخذنا كاف التشبيه في قول أمري القيس الكندي (طويل):

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فإننا نجد أن استعمال امرئ القيس للتشبيه الذي شبه فيه (الليل) بـــ (موج البحر) يضيف معنى جديدا يعبر عنه النصانيون بأنه إضافة عنصر إخباري جديد هو هذا الذي يسميه البلاغيون المشبه به، وحينما تتجلى صحة المعنى ومقبوليته نحويا وجماله بلاغيا في وجود حرف الجر (الكاف) يكون كل ذلك أمارة كبيرة على وجود اتساق في هذه العبارة، فمتى كان التشبيه في عبارة وكلن ذلك التشبيه مقبولا لغة، عد دليلا على ذلك، لأنه جمَعَ الأمرَ بالأمر الذي يشترك معه في خاصية أو في مجموعة من الخصائص، وكل ذلك جاء عن طريق المقارنة التي تتشكل من خلال التشبيه والتي يعدها اللسانيون "بناء لغويا معبرا عن قيمة عالية لدى المبدع، لتقديم رؤيته وتشكيلها اعتمادا على عالمين يصنعهما بذاته، ويقدمهما لمتلقيه بعيدا عن لغة المعنى المكشوف"[20]. ولربما عد الأمر كذلك لأن الحرف (الكاف) جاء ليربط بين اللفظين (ليل) و(موج) وكانت هذه الكاف موقع العقدة بينهما، فقد حقق حرف الجر الكاف المقارنة بين عنصرين لغويين لأن ذلك من قدراته ولأن من معانيه التشبيه[21].

على الجارة: من حروف الجر أيضا بل ومن الحروف الأكثر استعمالا الحرف (على)، وله معنى أصيل، كما أنه يخرج إلى معان أخرى، يعينه على

أخذها السياق والحيز الذي يتواجد فيه، ولكن مع هذا التغير في المعاني فإننا نلاحظ أن هذا الحرف كحروف الجر جميعا يحقق اتساق التركيب من جهة إضافة عنصر إخباري جديد[22]، أما النحاة فيقولون عن الحرف (على) أما على فاستعلاء الشيء ؛ تقول: هذه على ظهر الجبل، وهي على رأسه"[23]، فالمعنى في مثالي سيبويه أنها فوق الجبل، أو أنها تعلو الجبل، أو هي على رأس الجبل، وهذا هو المعنى الأصلي الذي يأتي عليه الحرف الجار (على)، ولكن قد تكون (على) بمعنى مع[24]، نحو قوله تعالى: ﴿**وآتَى المَالَ على حبِّه**﴾ (البقرة 177)، فالمعنى أعطى مع حب المال[25]، ولو رحت تجرب المعنى الأصلي للحرف لما وسعك المقام، ولما استقام لك الكلام، ولرفض الحرف ذلك المعنى، وذلك لأن السياق كان له كلمته هنا وانظر إلى قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الرعد 6)، لو لم يكن للحرف (على) معنى (مع) لما وجدت المعنى المراد يتبين ويتضح، فلما أُعْطِيَ هذا المعنى استقام، كما تكون (على) بمعنى اللام[26] نحو قوله تعالى: ﴿ **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (البقرة 185)، فالحرف الجار (على) في هذا الموضع يفيد التعليل[27]، أي كبروا الله لأنه هداكم، فهي تفيد التعليل والتبرير، ومن معانيها التي ترد عليها أيضا المجاوزة [28] كعن نحو قول القُحيف العقيلي:

إذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها

والمعنى إذا رضيت عني بنو قشير، لأن الفعل (رضي) يتعدى بحرف الجر (عن) ولا يتعدى بالحرف الجار (على) إلا إذا خرج الحرف الجار (عن) عن معناه وهو هنا قد خرج عن المعنى الأصلي له، ولذلك جاز أن يكون التركيب كما هو.

كما تأتي للظرفية نحو قوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**﴾ (القصص 15).

ولعل الذي يجمع هذه الحروف جميعا في أدائها للمعاني أنها تربط ما قبلها بما بعدها، فالفعل يتجه بقوته وقدرته النحوية إلى الأمام فيشكل مع الحرف جزءا من المعنى، والحرف يجر إليه الاسم بعده ويرتبط به، ومن خلال هذا التلاحم يقع التماسك والترابط، بل ويحدث الاتساق الذي نهدف إلى دراسته من خلال هذا الهمل المتواضع .

من الجارة : (من) حرف من حروف الجر ذوات الدلالة الأصلية والأخرى فرعية، ودلالته الأصلية ابتداء الغاية الزمانية والمكانية[29]، فمن المكانية قولك: مشيت من المسجد إلى البيت فاللفظ (المسجد) يفيد البداية المكانية التي بدأت منها المشي، وانطلقت منها، وأما الزمانية فنحو قولك: صمت من الفجر إلى المغرب فاللفظ (الفجر) هو البداية الزمانية الحقيقية التي بدأت منها الصيام، وتأتي بمعنى(عن)[30] نحو قوله تعالى: ﴿ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ (الأنبياء 97)، فهي في الآية تفيد معنى (عن) أي قد كنا في غفلة عن هذا، والسياق كما يبدو هو الذي بين معنى الحرف، ولو أننا حاولنا أن نعطي لهذا الحرف معنى أخر غير هذا لوجدنا المعنى لا يستقيم ولا يقر، وتأتي للتبعيض[31]" وتعرف (من) التبعيضية بأن يكون هناك شيء ظاهر هو بعض المجرور بمن نحو: خذ من أموالهم صدقة"[32] أي خذ جزءا من أموالهم بمقدار ربع العشر ولا تأخذ الأموال كلها، ومنه قوله تعالى: ﴿**لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ (الأنبياء46)، فقوله (من) يفيد التبعيض للدلالة على رحمة الله تعالى إذ يعذب بنفحة فقط وهذه النفحة بعض من العذاب من الرب الرحيم[33]، وتأتي بمعنى (في) نحو: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الجمعة 9)، ففي الآية الكريمة جاء الحرف (من) بمعنى في، أي (في) يوم الجمعة[34]، وانظر كيف يسهم سياق الآية في تبيين معنى الحرف الجار (من)، ولولا ذلك السياق ما كنا قادرين على توجيه الفهم هذا

التوجيه، كما تأتي للتبيين[35]حينما تكون الأجناس متداخلة أو مختلطة ويصعب أن يتميز واحدها لدى السامع أو القارئ دون أن يكون له متكأ يستند إليه ليتميز لديه المعنى الذي قصده المتكلم، ويريد إيصاله إلى المتلقي، ويأتي هذا الحرف الجار (من) للتبيين، فإن الدور الذي يؤديه داخل المنظومة الكلامية هو آن تبيين أن نوعا واحدا أو جنسا واحدا هو المقصود، ولذلك نجد أن بعض كتب النحو تقول عنها إنها لبيان الجنس، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ (الحج 30)، وتأتي للبدل[36]، وذلك حينما يكون لدى المتحدث أمران ترك أحدهما أو هو في حكم المتروك فإن الحرف الجار (من) يتصل بالمتروك، كما تتصل الباء بالمتروك حينما تكون بمعنى البدلية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ (التوبة 38)، فالحرف الجار (من) قبل لفظ (الحياة) في الآية الكريمة جاء بمعنى البدلية، فكأن المعنى أرضيتم بالحياة الدنيا بدلا من الآخرة، والمعنى يبين أن المتروك هو ما كان بعد الحرف (من)، أما ما جاء قبلها فهو المتمسك به فالمعاتبون في الآية تمسكوا بالحياة الدنيا وتركوا الآخرة، كما يأتي الحرف الجار (من) وهو يحمل معنى الباء[37] نحو قوله تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ** ﴾ (الشورى 45)، فوسيلة النظر عندهم هي العين أو الطرف، وهم يستعملونه وسيلة للنظر، وهذه الوسيلة تستعمل بطريقة معينة ذكرتها الآية، وهي الطرف الخفي، فكأن المعنى ينظرون بطرف خفي، كما تأتي بمعنى (على) نحو: ﴿**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (الأنبياء 77)، فالمعنى كما هو باد جلي، ونصرناه على القوم الذين كذبوا، لأن الفعل (نصر) يتعدى بالحرف (على) ولا يتعدى بالحرف (من)، إلا إذا كان الفعل (نصر) قد اقترض المعنى من الفعل (نجّى) فحين ذاك يتعدى بـــ (من)، ومهما يكن من أمر فإن الحرف (من) واستعماله يؤدي إلى إظهار

أن النص الملفوظ أو المقروء متسق، فلو تصورنا أن النص جاء بغير هذا الحرف لكان هذا النص متفكك الأوصال، ولكننا لما استعملنا الحرف مهما كان معناه شرط الصلاحية للوقوع في الموقع الذي وقع فيه اتسق المعنى وصلح، واكتمل التركيب.

ومن جهة لسانيات النص كان لهذا الحرف الجار (من) في هذا الموضع كما كان له في غيره دور أن يجعل التركيب متسقا متلاحما، ومهما تعددت المعاني التي حملها هذا الحرف من ..... فقد صلح التركيب اللغوي به وبغيره من العناصر اللغوية التي ورد معها، ففي كل محطة من محطات المعنى نجد أن الحرف قد أضاف للتركيب عنصر جديدا من المعنى لذلك يصلح أن يقال عنه فعلا إنه يضيف عنصرا إخباريا جديدا فوجود هذا الحرف تلمسنا به الاتساق ولولا ذلك الحرف لكنا مطالبين بأن يكون التعبير غير هذا حتى يكون المعنى متسقا.

الحروف غير العاملة : إذا كانت الأدوات العاملة هي الأدوات التي تختص بالدخول على العنصر اللغوي المعين والتي يهبها هذا الدخول القوة على العمل في هذا العنصر، فإن الأدوات غير العاملة هي التي لا تختص بالدخول على العنصر الواحد، بل يتغير الدخول بين الأسماء والأفعال من جهة، وبين الفعل الماضي والفعل المضارع من جهة ثانية، فهي تتعدد من حيث لفظها كما تتعدد من حيث العنصر اللغوي المدخول عليه، وذلك أن من الحروف حروفا لا يذكر بعدها إلا الفعل ولا يكون الذي يليها غيره، مظهرا أو مضمرا"[38]، كما أن من الحروف ما لا يليها إلا الاسم.

وتشترك الأدوات جميعا في أنها لا تدل على معان معجمية، ولكنها تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق ثم تختص كل طائفة منها تحت هذا العنوان العام بوظيفة خاصة كالنفي أو التأكيد"[39]، وهذه الأدوات هي التي ذكرها السيوطي فقال: وفي كل حرف لا يختص ألا يعمل"[40]، وهي التي جاء عليها الأستاذ إبراهيم مصطفى في إحيائه فقال "إن الحرف لا يعمل في نوع من الكلمات حتى يكون مختصا به ؛ "فلم ولن" عاملتان في المضارع لاختصاصهما به، وقد لم تعمل

لدخولها على الماضي والمضارع، و(هل) الاستفهامية حرمت العمل لأنها قد تدخل على الاسم كما تدخل على الفعل"[41]، فالأدوات كما ذكرنا إذا كانت مختصة بالأسماء عملت وإذا كانت مختصة بالفعل المضارع عملت أما ما لم تكن كذلك فهي غير عاملة لأن إمكانية تواجدها في حيز الأسماء ممكن كما أن تواجدها في حيز الأفعال ممكن كذلك، وهذا ما حرمها قوة العمل.

ولا يعني هذا أن الأدوات غير العاملة لا قيمة لها في التركيب اللغوي بل إن لها من القيمة ما لها، ولعل أهم ما يمكن أن يكون لها هو قضية التعليق فالتعليق بالأداة أشهر أنواع التعليق في اللغة العربية الفصحى، فإذا استثنينا جملتي الإثبات والأمر بالصيغة (قام زيد، وزيد قام، وقم) وكذلك بعض جمل الإفصاح فإننا سنجد كل جملة في اللغة الفصحى على الإطلاق تتكل في تلخيص العلاقة بين أجزائها على الأداة "[42]، والحرف لا علامة له، فإن اختص بفعل أو اسم عمل، وإلا فلا ويستثنى من الأول (هل) التي في حيزها فعل، ومن الثاني (ما) و(لا) و(إن) النافيات"[43] ذلك لأن (ما) و(لا) و(إن) النافيات فإنها لا تختص، ومع ذلك تعمل لأن لها شبها بـــ (ليس) في أنها للنفي وللحال وتدخل على المبتدأ والخبر فألحقت بها"[44]، فأنت تقول: ما الطفل رجلا، فقد عملت الرفع والنصب، وما حضر الرجل، وتقول: لا رجل في الدار، فقد عملت النصب، وتقول لا ينجح الكسول وتقول في إن: إن محمد إلا رسول.

وعلى الرغم من أن الحرف غير المختص لا يعمل في المدخول عليه، إلا أنه يؤدي وظيفة لغوية إبلاغية، ومن الحروف التي لا تعمل نونا التوكيد الخفيفة والثقيلة وهي التي قال عنها سيبويه: "هذا باب النون الثقيلة والخفيفة اعلم أن كل شيء دخلته الخفيفة فقد تدخله الثقيلة. كما أن كل شيء تدخله الثقيلة تدخله الخفيفة وزعم الخليل أنهما توكيد كما التي تكون فصلا، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكد وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشد توكيدا"[45]، ومنه قوله تعالى: ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله، فالنون التي اتصلت بالفعل (نقولن) نون لا عمل لها، ومع ذلك أدت

وظيفة التوكيد، ونمثل للحروف غير العاملة بحروف العطف لأنلها الكثرة ولها قوة التقاطع مع السانيات النصية.

حروف العطف: من الحروف التي لا تختص بالدخول على عنصر لغوي معين، وذلك ما يجعلها غير عاملة حروفُ العطف، إذا كما قلنا إن الأصل وفي كل حرف لا يختص ألا يعمل"[46]، وحروف العطف من الأدوات التي تدل على معاني يحددها التركيب والسياق، وكما ذكرنا سابقا أن الأدوات تشترك في أنها لا تدل على معان معجمية ولكنها تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق ثم تختص كل طائفة منها تحت هذا العنوان العام بوظيفة خاصة كالنفي أو التأكيد"[47].

وحروف العطف لا تفيد المعنى إلا في حال وجود معطوف ومعطوف عليه "فلا يكتمل معنى العطف إلا مع المعطوف[48] هذا المعنى يتج من ربط حروف العطف للجمل فكما يقول كريستال أن الجمل المركبة تتكون من عبارة أساسية بسيطة وعبارة أو عبارات أخرى بسيطة تعتمد على الأولى، ويربط بين هذه العبارات كلها أدوات العطف"[49]، وهذه الحروف (حروف العطف) كأنما تلفت نظر الدارس أو المتمعن في اللغة إلى تكرار العامل فالشيء لا يعطف على نفسه لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل لأنك إذا قلت قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو، والثاني غير الأول" [50].

أما إذا تناولنا هذا من زاوية الدراسات النصية فإن الأمر يتحدث عنه الدكتور إبراهيم الفقي وهو يدرس النص القرآني فيقول "ومن ناحية التماسك النصي نرى أنه كلما ازداد عدد أدوات العطف ازدادت قوة التماسك بين مكونات النص القرآني، بين كلماته وعباراته وجمله وقصصه وسوره لتخرج في النهاية نصا محكما متماسكا"[51]

وسنحاول أن نتناول بعضا من حروف العطف واحدا واحدا بحسب المقام ونذكر هنا أننا نتناول بعضا منها لأن المقام لا يسع ذلك

الواو من أكثر حروف العطف استعمالا، وأكثرها تواجدا في النص العربي ولربما يرجع ذلك على أنها ذات مرونة كبيرة في الاستعمال اللغوي إضافة إلى حاجة التراكيب اللغوية كثيرا إلى هذا الحرف، فهي لا تدل على الترتيب ولا التعقيب تقول صمت رمضان وشعبان"[52]، بل تفيد إشراك الثاني في ما دخل فيه الأول وليس فيها دليل على أيهما كان أولا"[53]، فهي كما يقول السيوطي عنها وتبعه كثير من العلماء: إنها "لمطلق الجمع[54]، ولا دلالة في لفظها على تقديم ولا تأخير[55]،

وغذا نظرت إلى هذا الحرف نصيا فإن الواو تأتي لتعاقب الذكر"[56] فتربط بين الشيئين اللذين لهما نفس الحالة (المكانة)، ... وهي علاقة إضافة سابق للاحق[57]، وتعاقب الذكر في عرف النصيين مفهوم لساني واسع تدخل تحته بعض أحرف العطف كالفاء وثم اللتين تفيدان أن الثاني مرتبط بالأول ارتباطا ترتيبيا تعاقبيا، فالثاني منهما يعقب الأول، مع اختلاف في الزمن الفاصل بين الأسلوبين وذلك ما يسميه علماؤنا في تراثنا العربي الترتيب والتعقيب.

وإذا مثلنا لذلك فبقوله تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ (الكهف 46)، فقد اشترك المال مع البنين في أنهما زينة الحياة الدنيا، وذلك يدل على أن بين العنصرين اللغويين ترابطا، وأن ذلك الترابط ذو قيمة كبيرة في الدرس اللساني النصي، وأما الفاء فمن حروف العطف أخوات الواو غير أنها تختلف عنها من جهة الدلالة حرف الفاء يقول عنها صاحب الكتاب"، والفاء، وهي تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو غير أنها تجعل ذلك متسقا بعضه في إثر بعض[58]، فهي تفيد الترتيب مع التشريك كما قال كثير من علماء اللغة[59]، ولها قيمتها النصية[60] فالفاء من جهة النص تفيد تعاقب الذكر الذي تحدثنا عنه سالفا مع تلك الاعتبارات التي ذكرناها في باب الواو إذ (الفاء) تفيد الترتيب والتعقيب دون مهلة زمنية[61]، أما (ثم) تفيد الترتيب والتعقيب مع وجود مهلة زمنية "والفاء، وهي تضم الشيء إلى الشيء كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقا بعضه في إثر بعض"[62] فهي كما قال السيوطي

وغيره: للتشريك في الحكم والترتيب[63]، نحو قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (المائدة 93)، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ (الأعراف 11)

ومن الحروف التي لها وزن لساني لأنها تفيد التخيير الحرف (أو)، وهي إنما يثبت بها بعض الأشياء وتكون في الخبر والاستفهام يدخل عليها على ذلك الحد"[64] وهي لأحد الشيئين أو الأشياء[65] وقال عنها ابن القيم: (أو) وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه من حيث كان الشك ترددا بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر"[66]، وتكون بمعنى الواو[67] في مثل قوله تعالى: ﴿**فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ (البقرة 74)، كما يفيد هذا الحرف الإباحة والتخيير نحو قوله تعالى: ﴿**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (المائدة 89)، ففي الآية الكريمة نجد الشرع يطالب بالإطعام من أوسط ما يطعم منه الأهل، والأمر الثاني الكسوة على التخيير، أي اختر الإطعام أو الكسوة، ثم التخيير بين الكسوة والإطعام مع تحرير الرقبة مؤمنة، ونحو قوله تعالى: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾ (البقرة 196)، ففي قوله ففدية من صيام أو صدقة أو نسك وقع التخيير بين الصيام والصدقة والنسك والحرف الذي أفاد ذلك التخيير هو (أو) ولإفادتها التخيير في الحيز الذي تقع فيه ولا يؤدي حرف من الحروف ما تؤديه، فالحيز حيزها، فهي مؤشر للاتساق حينما توجد، بحكم موقعها في اللسانيات النصية[68].

"وأما (بل) فلترك شيء من الكلام وأخذٍ في غيره"[69]، فالتركيبة اللغوية التي ترد فيها بل لا بد أن تتوافر على جزأين الأول يكون متروكا مهملا كأنما بديء فيه ثم أعرض عنه وأضرب وبديء في غيره ولذلك قالوا هي للإضراب فهي حرف إضراب عما قبلها، وإثبات لما بعدها[70]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ (المؤمنون 70)، فالمعنى فيها أنهم قالوا به جنة فهو مجنون لكن النص القرآني يضرب عن هذا ويأتي بما هو حقيقي فقد جاءهم بالحق وأكثر الذين كفروا للحق كارهون، ومن قوله تعالى أيضا: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** ﴾ (الأنبياء 26)، فالكافرون قالوا إن الرحمان اتخذ ولدا لكن البارئ سبحانه يترك هذا ويخبرهم ويبين أن هؤلاء الملائكة عباد مكرمون بالملائكية.

فهذه الأدوات التي توقفنا عند بعضها في هذه العجالة العاجلة، وحاولنا أن نتبين معانيها انطلاقا مما كتب الأولون، واستنارة بما أنتج المتأخرون، تؤدي إلى أن يتماسك النص لفظيا، ومن خلال ذلك يجد دارس اللسانيات ما يقوله عنه في باب الاتساق النصي، وإننا إذ نقول هذا الكلام فإننا نود أن ينتبه دارسونا إلى أن هذا الذي تعنى به لسانيات النص اليوم، كان في غالبيته الغالبة نقاط درس لدى علمائنا الأولين وأن الذي يفرق الدرس النصي اليوم عن كثير من الطروحات العربية القديمة أن هو إلا المصطلح، فوجب علينا اليوم أن نعيد تأصيل الدرس النصي رابطين ذلك بكتب التراث المتعلقة بالبلاغة والتفسير والإعجاز والنحو، فلنا في ذلك الخير الكثير، وإننا لنود أن يكون هذا العمل البسيط بداية لدراسات بعده تصلح عوجه وتقيم صلبه وتتخذ لها الطريق بعد ذلك إلى بناء مدرسة عربية لسانية نصية.

هوامش وإحالات

1 ــ سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) الكتاب دار الجيل بيروت لبنان، الطبعة الأولى دت ج 3، ص 496.

2 ــ محمد أحمد خضير، الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الأولى 2001، ص 8.

3 ــ انظر محمد أحمد خضير، الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 8.

4 ــ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر العربية 1979، ص 123.

5 ــ نايف خرما أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، ص 257.

6 ــ تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 127.

7 ــ انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 123.

8 ــ ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ضبط نصه وخرج آياته أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1994، ج 1، ص 26.

9 ــ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1998، ج 1، ص 40.

10 ــ إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، دون ذكر دار الطبع القاهرة مصر العربية الطبعة الثانية 1992 ص 26

11 ــ تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، ص 123

12 ــ انظر الأزهر الزناد، نسيج النص، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب 1993، ص 56، انظر صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، الطبعة الأولى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، مصر 2000، ج 1، ص 263.

13 ــ انظر الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 56، انظر صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي ج 1، ص 263.

14 ــ السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 1، ص 40.

15 ــ رضي الدين الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب تقديم إميل بديع يعقوب الطبعة الأولى 1998دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ج4، ص 264.

16 ــ الأستراباذي (رضي الدين) شرح كافية ابن الحاجب، ج4، ص 264، انظر حاشية الصبان حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، ج 2، ص 302.

17 ــ سيبويه الكتاب، ج 2، ص 171.

18 ــ سيبويه الكتاب، ج 4، ص 217، انظر ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت لبنان الطبعة الأولى 1991، ج 1، ص 299

19 ــ انظر الأزهر الزناد نسيج النص، ص 56، انظر صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي ج 1، ص 263.

20 ــ فتحي رزق الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري ثنائية الاتساق والانسجام، الطبعة الأولى دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص، 66.

21 ــ انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2، ص 337، انظر السيوطي همع الهوامع، ج 2، ص 362، صبري المتولي علم النحو العربي، ص 187.

22 ــ انظر الأزهر الزناد نسيج النص، ص 56، انظر صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي ج 1، ص 263.

23 ــ سيبويه الكتاب، ج 4، ص 230، انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 237، وانظر الأستراباذي (رضي الدين) شرح كافية ابن الحاجب، ج4 ص 332، انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2 ص332، انظر السيوطي همع الهوامع ج 2، ص 355، وانظر السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون تحقيق أحمد محمد الخراط دار القلم دمشق سوريا دت دط، ج 1، ص 68 وانظر أيضا ممدوح عبد الرحمن الرمالي العربية والوظائف النحوية طبعة 1996 دار المعرفة الجامعية الأزريطة الإسكندرية مصر العربية، ص 105، انظر نور الهدى لوشن، حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة المكتب الجامعي الحديث، طبعة 2006 مصر العربيـــــة ص 66، انظر لمهدي محمد الجلي المنجم في الألفاظ النحوية، إصدارات مجلس الثقافة العام طبعة 2006 سرت ليبيا، ص 214، انظر يوسف الصيداوي، الكفاف، الطبعة الثانية، 2006 دار الفكر دمشق سوريا، ج 1، ص 473، انظر سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للنشر والتوزيع عمان الأردن الطبعة الأولى 2003، ص 248، محمد سويرتي النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم دار إفريقيا الشرق المغـــــرب طبعة 2007 ص 124، انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن الطبعة الثالثة 1980 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 4، ص 284.

24 ــ انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 238، انظر السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج1، ص 68، انظر يوسف الصيداوي

الكفاف ج 1، ص 473، انظر سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ص 248، انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 284.

25 ــ انظر محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة الطبعة الأولى 2001، بيروت لبنان، ج 3، ص 125.

26 ــ انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 239، انظر السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج1، ص 68، انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 284.

27 ــ انظر محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ج 3، ص 169.

28 ــ انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 238، محمد سويرتي النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم، ص 124.

29 ــ انظر المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) المقتضب تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة 1994 الطبعة الثالثة لجنة إحياء التراث، ج 4، ص 136، انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 514، انظر الأستراباذي (رضي الدين) شرح كافية ابن الحاجب، ج4، ص 269، انظر التبصرة والتذكرة ابن إسحاق الصيمري، ج 1، ص285 انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2، ص 313، ابن الدهان النحوي، كتاب الفصول في العربية تحقيق فائز فارس مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ودار الأمل إربد الأردن الطبعة الأولى 1988 ص 30، انظر المرادي الجنى الداني في حروف المعاني تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1992، ص 308، انظر نور الهدى لوشن، حروف الجر في العربية، ص 62، انظر المهدي محمد الجلي المنجم في الألفاظ النحوية، ص 313، انظر سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص 246، انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 418 محمد أحمد خضير الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 17.

30 ــ انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 420.

31 ــ المبرد المقتضب، ج 4، ص 136، انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ج 1، ص 516، انظر التبصرة والتذكرة ابن إسحاق الصيمري، ج 1، ص 285، انظر المبرد المقتضب، ج 4، ص 136، انظر السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج1، ص 96، انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2

ص312، ابن الدهان النحوي، كتاب الفصول في العربية تحقيق فائز فارس، ص 30، انظر المرادي الجنى الداني في حروف المعاني، ص309، انظر نور الهدى لوشن، حروف الجر في العربية، ص 64، انظر سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، ص 246

32 ــ الأستراباذي (رضي الدين) شرح كافية ابن الحاجب، ج4، ص 269، انظر ابن إسحاق الصيمري التبصرة والتذكرة، ج 1، ص285، انظر المبرد المقتضب، ج 4، ص 136، أبو حفص الدمشقي الحنبلي اللباب في علوم الكتاب، ج 10، ص 163.

33 ــ انظر أبو حيان الأندلسي تفسير البحر المحيط تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وشارك في التحقيق زكريا عبد المجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ،ج 6، ص 294.

34 ــ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ج 29، ص 310.

35 ــ الصيمري التبصرة والتذكرة، ج 1، ص285، انظر السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج1، ص 96.

36 ــ انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 519، انظر الأستراباذي (رضي الدين) شرح كافية ابن الحاجب، ج4، ص 270، انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2، ص315، انظر المرادي الجنى الداني في حروف المعاني، ص 310.

37 ــ انظر ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج 1، ص 521، انظر الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 2، ص 316.

38 ــ سيبويه الكتاب، ج 1، ص 98.

39 ــ تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، ص 125.

40 ــ السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج ، ص 40.

41 ــ إبراهيم مصطفي إحياء النحو، ص 26.

42 ــ انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 123.

43 ــ السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 1، ص 39.

44 ــ السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 1، ص 40.

45 ــ سيبويه الكتاب، ج 3، ص 508.

46 ــ انظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع السيوطي، ج 1، ص 40.

47 ــ انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 125.

48 ــ انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 126.

49 ــ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج 1، ص 258.

50 ــ انظر ابن قيم الجوزية بدائع الفوائد، ج 1، ص 156.

51 ــ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج 1، ص 258.

52 ــ انظر ابن قيم الجوزية بدائع الفوائد، ج 1، ص 26.

53 ــ المبرد، المقتضب، ج1، ص 148، انظر محمد أحمد خضير، الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 23.

54 ــ السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 3، ص 155، انظر الصيمري التبصرة التذكرة، ج 1، ص 131، ابن شقير البغدادي: المحلى وجوه النصب، ص 264، ابن الدهان النحوي، كتاب الفصول في العربية، تحقيق فائز فارس، ص 37، انظر محمد أحمد خضير الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 23.

55 ــ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 3، ص 155.

56 ــ انظر الأزهر الزناد نسيج النص، ص 56، انظر صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي ج 1، ص 263.

57 ــ حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة مصر العربية الطبعة الثانية 2009، ص 95.

58 ــ سيبويه الكتاب،ج 4، ص 217، انظر محمد أحمد خضير الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 26.

59 ــ انظر مثلا السيوطي همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 3، ص 161، انظر الصيمري التبصرة التذكرة، ج 1، ص 131، ابن الدهان النحوي، كتاب الفصول في العربية تحقيق فائز فارس، ص 37.

60 ــ حسام أحمد فرج نظرية علم النص، ص 96.

61 ــ سيبويه الكتاب، ج 4، ص 217.

62 ــ سيبويه الكتاب،ج 4، ص 217.

63 ــ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 3، ص 164، ابن الدهان النحوي كتاب الفصول في العربية تحقيق فائز فارس، ص 37، صبــري المتولــي علم النحو العربي ص 164.

64 ــ سيبويه الكتاب، ج 3، ص 169.

65 ــ السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج 3، ص 173، انظر الصيمري التبصرة التذكرة، ج 1، ص 131، ابن الدهان النحوي، كتاب الفصول في العربية تحقيق فائز فارس، ص 37، محمد سويرتي النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم، ص 116، انظر محمد أحمد خضير، الأدوات النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم، ص 28.

66 ــ ابن قيم الجوزية بدائع الفوائد، ج 1، ص 26، محمد سويرتي النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم، ص 116.

67 ــ القرطبي (أبو عبد الله محمد) الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 205.

68 ــ حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص 85.

69 ــ سيبويه الكتاب، ج 4، ص 223، انظر المهدي محمد الجلي المنجم في الألفاظ النحوية، ص 94.

70 ــ انظر يوسف الصيداوي، الكفاف، ج 1، ص 442.

هل النحو العربي أصعب أم النحو الألماني؟

أ. الخثير داودي
جامعة ميلة

الملخّص: *تتغيّا هذه الورقة البحثية تبيان أن قضيّة صعوبة النحو العربي، كانت يوما ما سلّما لطرحه، والانتقاص من شأن الفصحى، ثم وقفة مع أشهر النحاة الأوائل الذين أقرّوا بصعوبة النحو، ثم قراءة متأنيّة في أسرار صعوبة النحو العربي، لماذا هو صعب؟ وهي خاصيّة لا تنفرد بها العربية وحدها من بين سائر اللغات، بل هناك من اللغات ما هو نحوها أصعب بكثير من نحو العربية، كالنحو الألماني مثلا، ونظرا لوجود تشابه بين اللّغتين، ذكرنا أمثلة ونماذج من النحو الألماني، أثبتنا من خلالها أنه أصعب بكثير من النحو العربي.*

Résumé: *Le but de cet article est de montrer que la difficulté de la grammaire arabe était une fois une des causes pour négliger cette langue. Puis un aperçu sur les premiers célèbres grammairiens qui ont reconnu la difficulté de sa grammaire, puis une lecture attentive des mystères de la difficulté de la grammaire arabe, pourquoi est-il difficile? Une caractéristique qui n'est pas spécifique pour la langue arabe uniquement. Nous vous citons l'exemple de la langue allemande, en raison des similitudes entre l'arabe et l'allemend en matière de difficulté grammaticale, nous avons mentionné des exemples et des modèles de l'allemand afin de bien démontrer ce point.*

قبل أن نعقد المقارنة بين النحو العربي والنحو الألماني، يجدر تبيين أمر مهمّ –رغم تراحبه– للقارئ المتخصص، وسأوضّحه مختصرا في ذلك أشدّ الاختصار، وهو تفسير تذمّر بعض علماء من التعقيد الذي يلوح من نحو الصنعة ودوافع انتقاداتهم له. فمنذ أن استوى النحو أمّةً لوحده إلى يوم الناس هذا والمشتغلون بالعربية يتكلّمون عن قضية صعوبته، فسالت في هذه القضية ذات النبض والخفقان أودية من حبر، حتى احتمل هذا السيل زبدا ربيّا، ومن هذا الزبد

الرّابي الذي عكّر على العربية صفوها، الكتابات التي اتخذت صعوبة النحو مرقاةً للتهجّم على العربية والحطّ من شأن علومها.

فقبل ثورة ابن مضاء (ت:592 هـ)، على النحو العربي، كانت هناك طائفة تصدّى لها عبد القاهر الجرجاني (ت:474 هـ)، وهم "من المعتزلة، من أهل العلم، في بلدته جرجان وفي زمانه، كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة "إعجاز القرآن."[1] وهم من أتباع القاضي عبد الجبار (ت:415 هـ)، كما حقّق في أمرها الأستاذ الكبير أبو فهر محمود محمّد شاكر ومما قاله الجرجاني على لسانهم "وأمّا النحو، فظنّته ضربا من التكلّف، وبابا من التعسّف، وشيء لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد فيه على معرفة الرفع والنصب ومما يتّصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا، ولا تحصل منه على فائدة."[2] حتى عُدَّ البحث فيه ضرب من الأباطيل والأضاليل لا لشيء إلا لصعوبة شكيمته، ولقد ناصب الجرجاني لهم العداء وكان لهم بالمرصاد في كل ما يقولونه، بعدما اكتشف منهم الخلفيات الفكرية التي ينطلقون منها لتحقيق أبعادهم الاعتقادية المغطشة –ليّا لأعناق النصوص– فخشي هنالك الجرجاني على حياة اللغة والنحو من هؤلاء الشرذمة الذين تنفّخوا واستطالوا على من قبلهم من النحو والنحاة.

وعلى أكبر الظنّ والترجيح أن الطائفة التي كان يعاني منها الجرجاني، كان لها امتداد إلى عهد الزمخشري (ت: 538 هـ) بحكم الزمن المتقارب بينهما وبحكم تحقيق أبي فهر للجماعة الأولى، ولقد ضاق الزمخشري ذرعا بما يكتم تجاههم من نص طويل له، منه قوله هذا: "ولعل الذين يغضّون من العربية ويضعون من مقدارها. ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها. حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه، ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج."[3] بحيث نرى أن هناك تقارب بين الوصفين من حيث المضمون للإمامين.

ثم إن إماما بحجم الزمخشري لا يمكن أن يرفع عقيرته إلا إذا أحسّ بخطر جلل يداهم النحو الذي كان يسمّى عند بعض العلماء قديما باسم "العربية" بمعنى من أنكر النحو فقد أنكر العربية.

ويقول مرة أخرى عنهم، من نفس النص: "فهم ملتبسون بالعربية أيّة سلكوا غير منفكين منه أينما وجّهوا، كلّ عليها حيثما سيّروا ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها (...) فهم في ذلك على المثل السائر: الشعير يؤكل ويذم، (...) فإن صحّ ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأسا والإعراب، ولا يقطعون بينهما الأسباب."[4] وكما هو واضح في أسرّة هذه العبارات أن هذه الطائفة المتطرّفة لها إمارة في العلوم الإسلامية التي لا يُتولّج فيها إلاّ بعلم النحو وهو رأس علوم الآلة فإذا طُرِحَ دَبْرَ أذن الاهتمام، فإن هذا الطرح مدعاة للوهم ومضلّة للفهم.

ومهما يكن؛ فلقد عضبوا علم النحو وأعطوا صورة داجيّةً عنه حتى كأنّه ضرب من الرموز والحروز فأنّى يُعطى اللّيان والقياد لمن يسمع كلامهم ويأخذ به وذلك لأنّه أعياهم طول الكدح في إعمال الذهن ورشح الجبين في خلافات مسائله وإنه لا يأخذ بأقوالهم إلا آفك مثلهم بقانون العربية، وإن كنّا نجد صدى هذه الآراء منذ ذلك الوقت البعيد إلى اليوم، بطريقة أو بأخرى، ككتاب "لتحيا العربية، يسقط سيبويه!"، للشريف الشوباشي، نشره سنة (2004) الذي يعد آخر من قذع العربية بهذا الوصف الحالق بكتابه هذا الذي أشاعه للناس في العصر الحديث استهانة برموز اللغة والنحو.

ثم إنه لولا تفطّن الجرجاني وبعده الزمخشري آنذاك لهم وغضبتهم المضريّة في التصدي لهم لأظلمت ليالي العربية القمراء وتجهّمت أيامها الضحواء! كيف وأنهما ألّفا في علمها أثمن الكتب وأغلى الرسائل يفلّان بها هذه المزاعم المتهالكة. ومن جهة أخرى تفسّر هذه الردود من الإمامين على من أرادوا هدم بنيان النحو أن النّحو العربي حقّا صعب، وقد أصدع أكباد العلماء، فإذا لم يحمل المتولّج فيه

نفسه على مكروه المراكب الوعرة في مسائله، يظلّ أبد الدهر غريبا عن الفهم الصحيح الذي به يميّز بين الرغوة والصّريح، وهذه الصعوبة في قواعده كما يرى عبد السلام هارون أنما هي لـــ: "علو هذه اللغة وضخامة شأنها واتّساع مراميها وتشعّب أساليبها."[5]

إذن؛ عود على بدء، فمن أبرز العلماء العربية الأوائل الذين أقرّوا بصعوبة النحو العربي وأنه لا يمكن الإحاطة بكل تمفصلاته؛ عالم العربية الأوّل **الخليل بن أحمد الفراهيدي، (ت:175 هـــ)** الثبت الحجّة، الذي شهد فيه ابن المقفّع بأنه "رجل عقله أكثر من علمه"، والذي أعلن بقوله كفاحا من دون تردّد، في خاتمة منظومته النحوية حيث يقول:

"النحـــو بحرٌ ليس يُـــدرك قعره وعرُ السبـــيل عيونه لا تنضبُ
واقصدْ إذا ما عمت فـــي آذيّه فالقصدُ أبلغُ في الأمور وأذربُ
واستغن أنت ببعضه عن بعضه وصن الذي عُلّمتَ لا يتشذّبُ"[6]

فهذا كلام خرج من أحضان الخبرة والممارسة، بحيث يُنَظّرُ فيه "**الخليل**" للمتعلّم غير المتخصّص في هذا العلم –الذي شمخ بأنفه عن مقعد الهمّة في العربية– بالعمل بهذا المنشور، فالواجب أخذ الأهم فالأهم، الذي يحفظ اللّسان والقلم من الوقوع في اللحن لكي لا يتيه في أوديته وشعابه، فهذا هو المنهج التعليمي الذي يراه صالحا ومجديا.

أما صاحب الاختصاص المتفرّغ الذي أراد أن يخبر هذا العلم، فإنه يوجّه له قاعدة محكمة تدلّ على فكر نفاذ إلى مبطنات النحو، يكشف بها الغمّة بأوجز عبارة، حيث يقول: "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه."[7]

بمعنى أن النحو علم متكامل في أبوابه ودقائق مسائله كالهرم الواحد، فلا يمكن للفكر النحويّ أن يتتامّ إلا إذا اجتمعت أبوابه وتراسلت قضاياه، وهذا لمن

أراد أن يكون في سلّم الصعود في فهم العربية ومعرفة جمالها المتبرّج المسفر وجمالها المتخفي المندس، أساليبا وتراكيبا، ولعلّ العمل بهذه المقولة النحوية تستلزم تفرّغا كاملا وهذا لمن أراد أن يدرك صورة النحو وهيولاه بفهم عميق يدنو منه كل بعيد، وإن كان الوصول إلى هذا الشرف من العسر بمكان كيف وقد روى لنا التاريخ أن كبار النحاة ماتوا وفي أنفسهم أشياء من النحو لم يعرفوا الحكمة منها.

ولقد شكى حديدية النحو كبار علماء العربية منهم: **الجاحظ**، (ت:255 هـ) وهو الأديب الحصيف، يشكو من طريقة النحاة في كتبهم وصعوبة تناولها المادة النحوية، والنحو في عهده لا يزال عربيا أصيلا في قرونه الأربعة الأولى، وذلك قوله: "قلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخّر بعض المفهوم."[8]

إذن؛ فهذا مثال من أمثلة كثيرة، كافٍ ومجزئٌ في البرهنة على صعوبة النحو وعسره لأنّ الجاحظ أديب اخصّائيّ له من المؤهلات ما يستطيع أن يضبط جميع علوم اللسان العربي ضبطا متقنا ومع ذلك يخامره هذا الشعور ويستكين لصولة هذا العلم الذي قد تلتوي فيه الأفكار وتنزوي منه النفوس، وتغور منه الأرواح، لا لشيء إلا لجبريته الرياضية التي تتمثل في معياريته الصارمة.

ومن كبار العلماء الاخصّائيّين في العربية اللذين أقرّوا بصعوبة النحو، **أبو حيان الأندلسي** (ت: 745 هـ)، وذلك أنه لما أحسّ بشموخ كتابه "تفسير بحر المحيط" على طلاب العربية، والذي اتخذ فيه علم النحو كوسيلة لفتح مغاليق النصوص، ووسيطا لاستكشاف أسرار التراكيب والفصوص، تراجع فيه بتأليف كتاب آخر لطلاب العربية لعلهم يذهنون له، وهو كتاب: "النهر المادّ من البحر المحيط" للتسهيل، وذلك أنّه أحسّ في قرارة نفسه ببعد العهد بين تفسيره والقارئ له، فكيف إذا كان هذا القارئ من المبتدئين، وربّما حتى ولو كان ذا قدم في اللغة

والنحو، يقول في مقدمة نهره: «وهذا النهر مدّه من بحر ليس له جَزْرُ، فتعسر ورده على من حظّه في النحو نَزْرُ.»[9] فهذه العبارة على قصرها عميقة المغزى بحيث يُستشفّ منها أن لعلم النحو أمواج رجّافة يصعب التولّج فيها من لم يكن له عمر مديد في مباحثاته وصبر على مشكلاته الإعرابية التي عليها أكثر المعنى لإتقان أصوله وفروعه.

ولو ذهبنا إلى تفقّد حالة النحو في عهد النحاة المتأخرين الذين ظهروا بعد ابن هشام الأنصاري (ت:761هـ)، لرأينا أنه كلّما زاد على النحو ركام السنيين كلّما أزمت مسائله وقضاياه، فالنحو في عهد متأخري المتأخرين تكلّست قواعده وانتكست مناهجه، وكما قال الإمام بدر الدين النعساني، أنه في هذه الفترة "صار أعقد من ذنب الضبّ، فربّما اشتغل به طالبه وهو في قماطه، ومات بعد أن جاوز أرذل العمر، وهو لم ينته إلى أوساطه، وهذا من سوء اختيار المتوسّطين وشدّة جمود المتأخرين."[10]

فالشاهد من هذا، قوله: "صار أعقد من ذنب الضبّ" وهذا بسبب عدول النحاة عن غاية النحو التصويبية والاستنباطية التي وجد لأجلها، وبسبب زحف العلوم العقلية عليه كالفلسفة وعلم الكلام والمنطق، فزادت إلى صعوبته التي طبع عليها تعقيدات أشدّ، فبدا عوار التشقق يظهر في جوانب عدّة، ولاسيما إذا ضربت هذه العلوم العقلية مواطن الأصول كالقياس مثلا.

مع أن "الشكوى من النحو ولدت مع التصنيف فيه، وظلّت تنتقل من جيل إلى جيل، وتترفع الصيحات مطالبة بتيسير النحو التعليمي."[11] غير أن الشكوى من النحو في قرونه الأربعة الأولى، كانت خفيفة، لأن النحو في هذه الفترة كان عربيا أصيلا، وإن تسرّبت إليه بعض الفلسفيات لكنّها كانت قليلة، أما بعد القرون الأربعة إلى عهد الأشموني (ت: 929 هـ) فإنه قد تغيّر وأصبح نحوا عربيا خامّا وأصبحت كل مسألة فيه لها أكثر من تخريج في العربية.

- ✓ **<u>من أشهر الكتب النحوية التيسرية عند القدماء:</u>**

1. مقدمة في النحو، لخلف الأحمر، (ت: 180هـ).
2. مختصر في النحو، للكسائي (ت: 198هـ).
3. موقف الجاحظ في "كتاب المعلّم"، من تعليم النحو للصبيان (ت:255هـ).
4. الموجز في النحو، لابن السراج (ت: 316 هـ).
5. التفاحة في النحو، لأبي جعفر النحاس، (ت: 338 هـ).
6. الواضح في النحو، للزبيدي (ت: 379 هـ).
7. موقف شيخ المعرّة(ت: 449 هـ)، الساخر من التأويل والتقدير في رسالتي: "الغفران"، و"عبث الوليد".
8. الضروري في صناعة النحو، لابن رشد القرطبي، (ت:550 هـ).
9. المقرب، لابن عصفور، (ت: 669 هـ).
10. المقدمة الآجرومية، لابن آجروم، (ت:723 هـ).
11. إبن خلدون في مقدمته، (ت: 808 هـ).
12. المقدمة الأزهرية، لخالد الأزهري، (ت:905 هـ).

فهذه لمحة ببليوغرافية خاطفة عن الحركة التيسيرية للنحو عند القدماء من خلال عناوين كتبهم، تدل على صعوبة النحو، ابتداءً من مقدمة خلف الأحمر (ت:180 هـ)، إلى مقدمة خالد الأزهري (ت: 905 هـ)، وهذه الكتب التيسرية أكثر من أن تحصر هنا، والشيء الذي نريد أن نثبته أن كل نحويّ يسّر النحو حسب عقليات زمانه حفظًا للمقامات والظروف، فلو قارنا مثلا، بين مقدمة خلف الأحمر، (ت:180هـ). وبين مقدمة خالد الأزهري، (ت:905هـ). لرأينا أن مقدمة الأزهري كأخر نحويّ وضع كتابا في التيسير، أسهل بكثير من مقدمة خلف الأحمر، لأن بينهما سبعة قرون ونيّف، بمعنى العربية كانت في هرم النزول منذ

نشأة النحو، وبالتالي تلامذة الأزهري غير تلامذة خلف الأحمر، ولهذا يحتاج التيسير إلى تيسير.

ولو عرضنا مقدمة الأزهري التيسيرية على ذهنيّات طلاب علم العربية اليوم، في عصر التزويقات، لرُمِيَ الأستاذ بأنه يدرس الأحجبة والحروز والخرفات، ولهذا تضافرت الجهود على الجهود في تيسير النحو أفرادا وجماعات عند المحدثين ابتداءً من رفاعة الطهطاوي، صاحب: "التحفة المكتبية لتقريب علوم العربية"، الذي نشره سنة (1869)، إلى زكريا أوزون صاحب: "جناية سيبويه الرفض التام لما في النحو من أوهام"، الذي نشره سنة (2002).

وقفة متأنيّة مع أسرار صعوبة النحو العربي: من الملاحظات التي تستحقّ وقفة معرفية متغلغلة ولنتأكّد بها على أن النحو لما ارتقى إلى مستوى الصناعة والعلم المضبوط الدقيق شمخ وصعب، فعندما ننطلق من قول الأعرابي العفوي الذي فتح به بابا للاجتهاد، وذلك أنه لما مرّ على جماعة من النحاة يتناقشون فيما بينهم لهم دويّ كدويّ النحل من شدّة الجدل، فوسوس لكلامهم وأطرق، فحكم عليهم بأن قال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس في كلامنا.»[12]

فهذا الحجم القليل من الكلمات، العميق في المعنى يثبت أن ظواهر التصدع الذي كان بين النحاة في النحو كان سببه الأول طبيعته الصعبة، "فالكلام في قوله: "تتكلمون بكلامنا" يعني اللغة كأداة تعبير بين الجماعة، والكلام في قوله "في كلامنا" يعني اللغة كموضوع للحديث والبحث، والكلام في قوله "ليس من كلامنا" يعني أن الألفاظ المستخدمة والتي هي من شائع ما يتداوله الناس قد أضحت لها دلالات اصطلاحية خاصة، وهذا بديهي لأن الأعرابي عندما كان يسمعهم يقولون: الرفع والنصب، والفتح، والكسر، والجزم، والسكون، إنما كان يذهب في فهم هذه الألفاظ إلى معانيها التي يعرفها، وهي معانيها اللغوية الأولى التي مازلنا نصادفها حين يقول: رفعت من شأنه، ونصبت الخيام، وفتحت الأبواب، وكسرت الأعراف

وجزمت بصدقه، وسكنت النفس بعد طول اضطراب."[13] فهذا هو الذي كان يتبادر إلى خواطر الأعرابي من المعاني اللغوية، ولا عهد له بالمعاني الاصطلاحية التي اتفق عليها النحاة.

والجدير بالذكر في هذا المقام، في التعليق على انطباع الأعرابي، التفاتة بارعة لأبي حيان التوحيدي عندما تعامل مع نادرة الأعرابي بفكر وقّاد، يقول: "إن الكلام على الكلام صعب. لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحسّ ممكن، وفضاء هذا متسع والمجال فيه مختلف. فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو."[14]

فالشاهد من هذا الكلام النفيس الذي يدل على اللبّ الحاضر والفهم الوافر في التعليق على قول الأعرابي قوله "فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو" وهذه المشقّة كما كانت على المبتدئين محنة فكذلك كانت على الكبار النحاة، كيف لا وقد مات سيبويه وفي نفسه شيء من "حتى" التي اصطكت لها ركب النحاة قرون متطاولة بعده، وهناك من أكابر النحاة من مات ولم يعرف حدّ "نعم وبئس" بين الاسمية والفعلية، و"ليس" بين الفعلية والحرفية، والأمثلة في هذا الباب غزيرة.

ولهذا ظلّ رهان من كانوا يمارسون مهنة التعليم يتوسّلون بشتّى الطرق في استبانة ما غمض منه على ذهن المتعلّم فقد كانت "الشكوى من بعض قواعد النحو ونظرياته قديمة فليست كل الأذهان تتقبل قواعد الإضمار والتقدير والحذف، وتزداد هذه القواعد صعوبة في الفهم عندما تكون موجّهة للناشئة المبتدئين بتعلم العربية"[15]، والطفل في المرحلة الابتدائية ورقة بيضاء يستطيع المعلم أن يخطّ فيها ما يشاء، فإذا تعاملنا معه بالتلقين المستبد لمادة النحو، فإنه لن ينشط ذهنه في تشرّب هذه المادة العصيّة، وقد تكون هذه المادة سببا في كره المعلم وكل ما يدرّسه

من مواد أخرى، ولهذا قال الجاحظ "وأما النحو فلا تشغل قلب الصّبي به."[16] بمعنى لا تكثر على الصبي من النحو إلا بما يعصم لسانه وقلمه من اللحن ولا تزيد. وهذا منهج سلوكي نفسي في التعليم ينصح به الجاحظ وذلك مراعاة لمراحل العمر التي تخضع لها مراتب الاكتساب والطلب وذلك أن النحو مادام أنه عقل من نقل، فمنطقيّ جدا أن يكثر فيه الجدل والخلاف والتقابل والتضاد، وهذا يشقّ على قلب النشء.

حقيقة أخرى، وهي أن "الشكوى من العلوم المختلفة ظاهرة طبيعية لكنّها تبرز بوضوح في دراسة قواعد اللغة –أيّا كانت– لأن دراستها على مستوى ما مطلب قومي لحفظ اللغة، وقد يكون مطلبا قوميا ودينيا، كما في دراسة العرب المسلمين مستوى ما من قواعد اللغة العربية، فلأن دراسة اللغة مطلب عام كانت الشكوى من بعض قواعدها بارزة واضحة، ولو كانت دراسة الهندسة مثلا مطلبا يعمّ الناس جميعا لعمّت الشكوى منها، ومع ذلك لم تعن الشكوى منها حذف نظرياتها، وأسسها الصحيحة بحجة التيسير."[17]

فهذا هو السرّ المغيّب من أسرار الشكوى من النحو فالنحو لما كان مادة مقرّرة في جميع مراحل الطلب والتعلم حتى وإن لم يكن اختصاص الطالب "اللغة والنحو" من حفظ المتن إلى حيازة الفن فقد يتابعه طورا من السنيين أما عندنا اليوم في العصر الحديث فإنه مادة مقرّرة بنسب متفاوتة بين الشعب والاختصاصات في وزارة التربية الوطنية، في كامل أرجاء الوطن العربي إذا فالنحو طبع على الصعوبة حتى إن معلّمه طبع على الضعف فيه وعقدة النقص تجاه هذه المادة العلمية.

"ومن سنة الله في خلقه ألا تنشط بعض العقول لفهم بعض العلوم، فقد روي أن الأصمعي –على ذكائه– شرع في تعلّم العروض على الخليل ابن أحمد فتعذر

ذلك عليه فيئس الخليل منه، وسأله عن المعضوب الوافر، فقال له، يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر:

إذا لم تستطع أمرا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعي أن الخليل فد تأذّى لبعده عن علم العروض، فلم يعاوده فيه."[18] والأصمعي (ت:216 هـ) هذا، من حَفَظَةِ اللغة فقد "حفظ ثلث اللّغة ولولا أنه شغل نفسه بحفظ الأخبار والأشعار لحفظ اللّغة كلها."[19] ومعلوم أن الأصمعي من أمراء العربية المشهورين الثقات الذين يحتج باجتهادهم ومع ذلك لم يوفّق في تعلّمه.

<u>هل النحو العربي أصعب أم النحو الألماني؟</u> قد أثبتنا بالبرهان عقلا ونقلا أسرار صعوبة النحو العربي، فهل يكون هذا الأخير أصعب من النحو الألماني، أم العكس؟ أول صعوبة تواجهنا في الحديث عن النحو الألماني هي إشكالية تحديد بدايته وواضع لبناته فإذا كان عمر اللغة الألمانية لا يتجاوز القرنين على أوسع تقدير وتوسيع، فعمر نحوها يكون أقل من تقدير سنّها، معلوم أن "اللغة الألمانية ليست لها في الأصل قواعد، ولكن جهد النحاة الألمان في إدخال القواعد اليونانية عليها لمنهجتها، لأنها لغة دائمة التغيّر، وعلى يد جهود علمائها في صناعة نحو لها، خضعت اللغة الألمانية للقواعد بشكل كبير، حتى صار الإعراب في اللغة الألمانية سمةً بارزة فيها ومهمّة، بل ويكاد يغيّر المعنى المقصود كلياً، وهو مستخدم بكثرة."[20] غير أنّ العلامات الإعرابية في اللغة الألمانية ليست حركات فتحة وكسرة وضمة كما في اللغة العربية، وإنما هي أحرف توضع في نهاية الكلمة أو تغيير يطرأ على أدوات التعريف والتنكير والضمائر وما إلى ذلك، وهذا يدل على أن الألمانية ليست لغة مرنة.

لماذا النحو الألماني؟ لأن هناك مواطن تشابه بين العربية والألمانية، ولهذا أرتأينا أن نقارن بين النحوين بحيث أن كلا منهما يحتوي على المعرب والمبني مثلا الكلمات المعربة في الألمانية:

1. Substantiv (Nomen) : الاسم مثل Buch والتي تعني كتاب.
2. Verb : الفعل مثل lesen والتي تعني يقرأ، تقرأ، يقرؤون... إلخ.
3. Adjektiv : الصفات مثل groß تعني كبير. للملاحظة: هناك بعض الصفات مبنية لكنها قليلة مثل rosa والتي تعني وردي.

أما الكلمات المبنية مثل:

1. Präposition : حروف الجر مثل über, unter, auf, von.
2. Adverb: الظروف مثل beispielsweise والتي تعني "على سبيل المثال"، وقد تكون الظروف في الغالب صفات لا يتم إعرابها مثل schnell والتي تعني كظرف "بسرعة"[21]

أما إذا جئنا إلى إثبات صعوبة النحو الألماني، فلنأخذ مثلا البنية الصرفية للغة الألمانية، فأهم ما يميّز الكلمة في اللغة الألمانية "هو إمكانية تجميعها من عدد كبير من الكلمات الأخرى لتكوّن كلمة طويلة لها معنى مخصص أكثر من آخر كلمة في سلسلة الكلمات المركبة. من الأمثلة على الكلمات المركّبة: Lösungsverfahren تعني: "أسلوب الحل"، وكذلك جملة Hausmeistertätigkeiten تعني: "واجبات المسؤول عن المنزل"[22]،

وانظر في الألمانية خاصية أخرى، فقد تصل الكلمة في هذه اللغة إلى خمسة عشر حرفًا مثلا كلمة: enstschuldigung بمعنى "معذرة". وهذه خاصية صعبة في الألمانية لا توجد في العربية، ووما يتولّد عن هذه الخاصية صعوبة نطق الكلمات وخاصة لدى المبتدئ. فمن أبرز موائز العربية أن أكثر ألفاظها ثلاثية في الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة التي يدخلها التصريف، ولهذا جعلوا الميزان الصرفي

من حروف ثلاثة (ف ع ل). وهذا دليل على خفّة الكلمة العربية على اللسان وأسرع للوقت والفهم وأخصر للكتابة وأوفر للجهد.

ومن مواطن الاختلاف بين العربية والألمانية أن الفعل في اللغة الألمانية أساسي في بناء الجملة ويأتي دوماً في المرتبة الثانية ولا يمكن تكوين جملة ألمانية صحيحة بدون فعل على خلاف الجملة الاسمية في العربية، وهذا من ضيق اللغة الألمانية وعسر نحوها.

فإذا جئنا إلى الإعراب، الذي وسم بأنه أصعب ما في النحو العربي، فإنّ العربية الفصحى لا تنفرد به، "بل إنّ هناك لغات كثيرة، لا تزال تحيا بيننا، وفيها من ظواهر الإعراب المعقّد، ما يفوق العربية بكثير، فاللغة الألمانية، تقسم أسماءها اعتباطا إلى مذكر ومؤنث وجنس ثالث لا تعرفه العربية وهو: "**المحايد**" وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة، أربع حالات إعرابية، هي حالات: الفاعلية والمفعولية، والإضافة، و**القابلية**، وهذه الحالة الأخيرة لا تعرفها العربية، وهي إعراب المفعول الثاني، فهي من حالات المفعولية في العربية، وليست حالة خاصة فيها. تلك هي حالات إعراب الاسم المفرد المعرف في الألمانية. والمفرد والمنكر له أربع حالات أخرى، وكذلك الجمع المعرّف والجمع المنكر."[23] فهذه بعض الأمثلة فقط، تبين كم هي حجم الفجوة بين طراز النحو العربي وطراز النحو الألماني فالفروق ماثلة وصريحة ولا رغوة عليها.

وإذا عقدنا مقارنة بين النحوين، من حيث الجملة فإننا سنحمد للعربية نحوها فـــ"بناء الجملة في اللغة الألمانية، له نظام صارم، فالفعل يحمل فيها المرتبة الثانية دائما، إلا في الجمل الفرعية، كالجمل التعليلية مثلا، فإن الفعل يؤخر فيها إلى نهاية الجملة. وإن من يشكو من كثرة جمع التكسير في العربية، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا الجمع فيها، سيحمد للعربية الاطراد النسبي في هذه القواعد، إذا درس اللغة الألمانية، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها، وفقدان القاعدة التي تخضع لها

تماما، إلى درجة أن كل كتاب في تعليم قواعد الألمانية، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة: "**احفظ مع كل اسم، أداة تعريفه، وصيغة جمعه، لأنه ليست هناك قاعدة لذلك**."[24]

إذن؛ فمهما يكن النحو العربي ذو صبغة حديدية في قواعده، فإن النحو الألماني ذي صبغة فولاذية، فلو عرف كل باحث من بحّاثة العربية الذين تولوا دعوة التيسير ما في لغته من مزايا وفضائل لأدّى زكاة ما يتعلّمه بترغيبها إلى قلوب النشء وشكرها لهم، ولأغمض على الذي تجلمد عليه من النحو والتصريف مهما كانت مسائلهما مغفلة، ولم يهن في نصر العربية وعلومها قاطبة، كيف وأن هو ناموس العربية الذي تسير عليه حيث سار لسلطانه النافذ عليها.

"فليست العربية إذن، بدعا من اللغات في صعوبة القواعد، غير أن شيئا من هذه الصعوبة، يعود كذلك إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها، فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي، وبعدوا عن وصف هذا الواقع إلى الممحكات اللفظية."[25] بمعنى آخر فأزمة النحو قد كانت كذلك في المنهج من حيث الاختيار والانتقاء لمعلّم النحو ولمواد النحو التي تدرس حسب المراحل، وليست الأزمة كلها في النحو نفسه من حيث أنه صعب، ولقد كان الجاحظ على حقّ كما سبق ذكر قوله، عندما قال: "أما النحو فلا تشغل به قلب الصبي"، فقد يكون من العبث تدريس باب الاشتغال للغلمان وإن كانوا في طور الثانوي، ففي مثال قول النحاة:"إن أخاك قابلته فأكرمه"، قالوا في نصب أخاك أنه منصوب على الاشتغال أو أنه اسم "مشغول عنه" ومعنى ذلك أن الفعل بعده "قابلته" قد نصب ضمير الاسم المتقدم "أخاك" فلم ينصب واشتغل بنصب ضميره فنصبه إذن على الاشتغال وهو مشغول عنه، والأصح كما يرى إبراهيم السامرائي أن الاسم منصوب لأنه مفعول به قدّم على فعله والضمير في قابلته هو اسم إشارة عائدة على الاسم المتقدّم ولا حاجة أن نقول أنه في محل نصب."[26] وهذا المثال إذا لقّن للصبيان فإنه يشتت

قلوبهم عن حبّ اللغة والقراءة، وما يقال عن هذا الباب كذلك يقال على باب التنازع وباب التعجب، وغير ذلك.

كلمة أخيرة:

وإذا كان الألمان يهتمون بلغتهم الصعبة والعصيّة، والتي لو سألت ألمانيا معاصرا أن يقرأ فقط نص مكتوب بالألمانية عمره قرن لاستشكل عليه الأمر قراءة وفهما ووقع في حيص بيص، لأنها لغة دائمة التغيّر العقد والعقد، والتي لولا جهود نحاتها ولغويها لصارت في عداد اللغات الموات، وهم يحاولون إحياءها بدءً بالاهتمام بالمعلّم الذي يشرف على تعليم أطفال اليوم وهم رجال الغد، لأنهم آمنوا أن الاهتمام بالمعلّم هو الاهتمام بالطفل بطريقة أو بأخرى، ثم إنه مهما أهتم الألمان بلغتهم للتواصل والتعلم والتحضّر، ولأنها لغتهم الرسمية في الدستور، ومهما ارتفع شأن هذه الأهمية بالنسبة إليهم، فإنهم بإمكانهم الاستغناء عنها بلغة من اللغات المنحدرة من اللاتينية بحكم تشابه الحروف الألفبائية كتابة ونطقا بينها وبين الألمانية.

بينما العربية بالنسبة إلينا ليس لنا محيد عنها لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه ليس لنا بديل تواصلي آخر عنها، والذي يعنينا ويهمنا نحن العرب من لغتنا أهم بأضعاف كثيرة من الذي يهمّهم من لغتهم الألمانية بحيث إن ارتباط العربية بالنصين الدينين القرآن والسنّة الذين عليهما مدار الدنيا والآخرة، فلو أخذنا مثلا ظاهرة الإعراب في النحو التي هي من أخطر الظواهر في تحوّل المعنى الذي إذا تغيّر أثّر ذلك على مفهوم النص، وإذا أثّر على هذا الأخير أثّر على الاعتقاد بطريقة أو بأخرى، فمن هذا الاختلاف الجذري في الرؤية إلى النحو فينبغي أن نقضي على الفكر المأفون الذي يذر المخضرّ المورق مصفرّا ثم هَشِيمًا تَذْرُوه الرِّياح.

ثم إن للنحو العربي نشوة علميّة لا يعرف قدرها إلا من تذوّقها وقرّت في قلبه وروحه وعقله ولسانه، ومن يتذوّقها حتما يدرك جلال العربية وجمالها، وإن

معرفة النحو تمام المعرفة على عقابيله وعراقيله يرشدنا إلى معرفة طاقة اللغة المتجددة في كيفية حملها المعاني في أصواتها وحروفها وفي تعانق كلماتها التي تشكل أنواعا من الجمل والتراكيب بخيوط بيانية سحيلة تؤدي بدورها وظائفا شتى لا يراها إلا المتضلّع في علم العربية. ألم يقل نابغة العرب وشيخ العربيّة الأول الخليل بن أحمد، كما سبق أن أشرنا إليه، في الإحالة رقم ستّة: "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه."

فتأمّل هذا القول بعين معدّلة بعيدة عن الأغراض والهوى، وتدبّره بحجة العقل المنير، فستدرك أن النحو كلّه من "**كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيْدٌ كَاسْتَقِمْ** إلى **وَالْتُزِمَ الإدغَامُ أَيْضًا في هَلُمّ.**"* تسكن كل مسألة من أختها "مَكَانَ الكُلْيَتَينِ من الطِّحَالِ" كما قال الشاعر العربي قديما، ولأصبح النحو عندك موموقا ومحبوبا، حينها تدرك أن هذا الرجل الذي طلب العلم على حساب رزقه، سبق زمانه حقا بألف سنة، كما نظّر له عبد الرحمن الحاج صالح وسمى عليه النظرية الخليلية والتي يقودها أكثر من أربعة عقود، ومن أحضان هذه النظرية تشكّلت فكرة الذخيرة اللغوية العربية القومية، وهي مشروع الألفية الثالثة فإن نجح فسيكون للعرب شأن ولو بعد حين.

مرجع الإحالات:

1 – دلائل الإعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، ط3، 1992، ص: 9.

2– **المصدر نفسه، ص: 8.**

3 – المفصل في علم العربية: لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل بيروت، ط1، 2003، ص: 06.

4 – المصدر نفسه، ص: 5.

5 – قطوف أدبية حول تحقيق التراث: لعبد السلام هارون، مكتبة السنّة، القاهرة، ط1، 1988 ص: 147.

(6) المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، دراسة وتحقيق: د، أحمد عفيفي، دار المصرية، القاهرة، ص: 253.

7 – **نقلا عن: الصورة والصيرورة (بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي):** د، نهاد الموسى، دار الشروق، عمان، ط1، 2003، ص: 63.

8 – النحو الغائب: د، عمر يوسف عكاشة، دار الفارس، ط1، 2003، ص: 38.

9 – النهر المادّ من البحر المحيط، للإمام أبي حيّان الأندلسي، تحقيق: عمر الأسعد، دار الجيل بيروت، ط1، 1995، ص: 24.

10 – انظر في الهامش: المفصل في علم العربية، ص: 06.

11 – النحو العربي بين الأصالة والتجديد: د، عبد المجيد عيساني، دار ابن حزم، لبنان، ط1 2008، ص: 62.

12 – نقلا عن: قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية: د، محمد عيد، عالم الكتب القاهرة، 1989، ص: 57.

13 – العربية والإعراب: د، عبد السلام المسدي، مركز الجامعي، تونس، 2003، ص: 15.

14 – الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: هيم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية بيروت، ط1، 2003، ص: 139.

15 – نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين: د، حسن خميس سعيد الملخ، دار الشروق، عمان، ط1، 2000، ص: 214.

16 – رسائل الجاحظ، تحقيــق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ج3 ص: 38.

17 – نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، ص: 214.

18 – المرجع نفسه، ص: 215.

19 – الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: لأبي هلال العسكري، تحقيق:عبد المجيد ديّاب دار الفضيلة، القاهرة، 1997، ص: 93.

20 – اكتب على صفحة الانترنت (قوقل): قواعد اللغة الألمانية الحديثة، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

21 – انظر: الموقع نفسه.

22 – انظر: الموقع نفسه.

23 – **فصول في فقه اللغة:** د، رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6 1999، ص: 418.

24 – **المرجع نفسه**، ص: 416، 417.

25 – **المرجع نفسه**، ص: 417.

26 – **انظر: من سعة اللغة العربية:** د، إبراهيم السامرائي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994 ص: 211.

* الشطران هما من ألفية ابن مالك باعتبارها تمثّل خلاصة النحو العربي نظما، وقد جرت العادة في التصنيف عند القدماء بدْءً من سيبويه (ت: 180 هـ) إلى الأشموني (ت: 929 هـ) كأخر نحوي عرفه التاريخ، أن يبدؤا من أقسام الكلم ويختموا بباب الإدغام، بل هذا التبويب ظل جاري إلى عباس حسن صاحب "النحو الوافي" الذي نشره سنة (1960) في العصر الحديث.

العلامة اللغوية واشتغال الدلالة
من السيميائية إلى التفكيكية

أ. أحمد العزري
جامعة تيزي وزو

لقد درج الدرس اللغوي التقليدي على التعامل مع العلامة اللغوية والمعنى بمنطق الثبات، بمعنى الإطمئنان إلى معانٍ ثابتة ومحددة قبلياً، لكن هذا الثبات لم يلبث أن ضُرب في الصميم بدايةً مع بروز طروحات بيرس، ولسانيات دي سوسور وصولاً إلى طروحات التفكيك، التي بلغت حداً مبالغاً فيه من الاحتفاء بالسيرورة اللامنتهية للدلالة، حتى بلغت حد العدم، المفضي إلى غياب المعنى الذي حلّ محله التأويل، وقبل وصول الفكر اللغوي والنقدي إلى هذا الحد من التطرف في التعامل مع المعنى والنص والدلالة، مرت العلامة اللغوية بعدة مراحل، ولعل من أهم المراحل التي مرت بها المرحلة اللسانية مع دي سوسور(Dé Saussur) والمرحلة السيميائية ممثلة في شارل سندرس بيرس (C S Peirce) وصولاً إلى المرحلة التفكيكية ممثلةً في جاك دريدا (J Dérrida)، وعلى الرغم من الاختلاف الجذري بين هذه الطروحات إلاّ أنّها ترتبط فيما بينها، برابط التأثير والتأثر ولعل هذا الأساس سنحاول في هذه الصفحات الضغط على نقاط الاحتلاف والتشابه بين كلٍ من دي سوسور وبيرس من جهة، ودريدا من جهة أخرى، في التعامل مع قضية المعنى والدلالة.

أولاً: اللحظة البيرسية: يعد بيرس علامةً فارقة في تاريخ الفلسفة الغربية وقد انفرد عن غيره من الفلاسفة في بحوثه المتعلقة بالمنطق؛ إذ أسس لما يسميه المنطق علم الواقع، وقد بنى نظريته هذه رداً على مبادئ المنطق الصوري

بوصفها عمليات ذهنية خالصة ورداً على المنطق التجريبي القائم على أنّ المعرفة رجوع إلى الواقع أي رجوع إلى الأشياء ذاتها ليخلص إلى نتيجة ينفرد بها مفادها أنّ المنطق لا يقوم إلاّ وفق علاقة بين عاقل ومعقول أي بين ذات عارفة وموضوع. "إنّ فهم بيرس العميق للصلة الوثيقة بين المنطق والفلسفة قاده للقول بأنّ المنطق يجب أن يكون علم الواقع، وليس البحث في صورة الفكر فحسب كما أنّ الواقع المذكور لم يكن بالنسبة إليه الواقع الحسي الذي قال به التجريبيون وإنّما هو واقع معقول أيضاً".[1] إنّ المنطق من ىحيث هو علم الواقع حسب بيرس يقوم على دراسة الواقع والدنو منه، قصد اكتشاف علله وقوانينه من خلاله هو أو بعبارة أخرى: ما يقوله هو عن نفسه وما يشير إليه ممهداً بهذا لمقولاته التي اشتهر بها وهي علم العلامات، إذ يخلص وفق هذا المسار الذي اتخذه في المنطق إلى أنّ الإنسان يفكر بالعلامات ليبين وفقاً لذلك أهمية العلامات واللغة. "لقد انطلق بيرس في هذا المجال من فهم عميق للصلة التي تربط المنطق باللغة فسعى للبحث عن أصل تلك اللغة التي ينقل عن طريقها الواقع بكل ما فيه إلينا وقد تبين له بعد تحليل عميق للفكر البشري أنّ لحمة كل تفكير وكل بحث هي الإشارات وحياة الفكر والعلم هي الحياة الكامنة في تلك الإشارات، لكن لما كان علم المنطق في أحد معانيه هو دراسة الفكر الإنساني وطالما أنّ كل تفكير يتم عن طريق الإشارات فقد رأى أنّ طبيعة المنطق ترتبط بشكل أساسي بالطريقة التي تعبر بها الإشارات عن الواقع وتشكل هذه النقطة نظريته في الإشارات".[2] نظراً للأهمية التي تحتلها الإشارة (العلامة) اللغوية وغير اللغوية في المشروع البيرسي شرع بيرس في إرساء نظريته السيميائية والمسماة (sémiotique) سيميوطيقا التي قدم فيها عدة مفاهيم للعلامة وأنواعها وأساليب اشتغالها، غير أنّ العلامة الفارقة في سيميوطيقا بيرس تكمن في تحديد أركان العلامة وطرق اشتغالها وتلقيها وتأويلها، إذ يقسم بيرس العلامة تقسيماً ثلاثياً كالآتي:

1 الممثل: وهو الشكل الذي تتخذه الإشارة وهو ليس بالضرورة مادياً مع أنّه يعتبر عادةً كذلك ويسميه بعض المنظرين حامل الإشارة.

2 تأويل الإشارة: وهو ليس مؤولاً (ذاتاً) إنّما هو الأثر الذي تحدثه الإشارة.

3 الموجودة: وهو الشيء الذي تتبني على وجوده الإشارة وترجع إليه (المرجع).[3] إنّ الحديث عن المعنى عند بيرس ليس سوى الحديث عن منطق اشتغال العلامة، إنّه نتاج المبادلات الحاصلة بين الأقانيم الثلاثة للعلامة، ويسمي بيرس هذه المبادلات الحاصلة بين الأركان سيرورة المعنى أو السيميوزيس (sémiosies).[4] ويستخدم بيرس مصطلح سيرورة (صناعة المعنى) بخاصة للإشارة إلى التفاعل بين الممثل والموجودة والتأويل.[5] يشتغل السيميوزيسالبيرسي وفق نظام محدد، فكلٌّمن أركان العلامة إلاّ ويحيل على طرف آخر وكل معنى ينتج عن هذا التفاعل الحاصل يحيل إلى معنى آخر في سيرورة متتالية بحيث يصبح كل معنى يوصل إليه علامة في حد ذاته. "فالعلامة أو الممثل هو الأول الذي ينوب عن الثاني الذي يسمى الموضوع، والممثل يحدد الثالث الذي يدعى المؤول، وهذه العلاقة الثلاثية الأصيلة، أي شيء يحدد شيئاً آخر هو مؤوله بحيث أنّ المؤول يحيل إلى موضوع، وهذا الموضوع يحيل بدوره على موضوع آخر بنفس الطريقة، أي أنّ المؤول أصبح هو نفسه علامة وهكذا إلى ما لانهاية".[6] يفتح هذا التحديد البيرسي لنظام اشتغال العلامة الباب أمام نقطتين في غاية الأهمية

الأولى: كل معنى ينتج عن علامة ما هو إلاّ معنى محتمل أو لنقل تأويل محتمل وليس حقيقة مطلقة، إنّه نفي واضح لأحادية المعنى.

الثانية: أي تأويل يعطى للعلامة لا يوقف سيرورة السيميوزيس، بوصفه انفتاحاً لا منتهياً للمعنى. وهذا ما جعل أحد أهم أقطاب السيميائيات المعاصرة وأحد أهم قراء بيرس، وهو المنظر الإيطالي إمبرتو إيكو يراجع المفهوم الشائع عن العلامة يقول: "الشرط في العلامة ليس شرط الاستبدال (شيء يقوم مقام شيء) بل وجوب تأويل محتمل، ويقصد بالتأويل ما كان يريده بيرس حين يعترف أنّ كل

مؤول لا يترجم فحسب ومن جديد الموضوع المباشر أو مضمون العلامة ولكن يوسع من مفهومه فالتأويل يسمح بالانطلاق من علامة لقطع كل دائرة توليد الدلالة المرحلة تلو الأخرى".[7] لكن السؤال المحوري الذي تثيره قراءة السيميوزيسالبيرسية، هو: هل يبقى انفتاح السيميوزيس انفتاحاً لا مشروطاً وسيلاً جارفاً لا يمكن إيقافه؟. إنّ الإجابة على هذا التساؤل تفرض مراجعة مفهوم المؤول في فكر بيرس كيف عرّفه؟ وكيف قسّمه؟ لنكشف في ضوء ذلك طبيعة انفتاح السيميوزيس. في الواقع هناك تعريفان للمؤول يرمي الأول إلى الإعتقاد بأنّ المؤول عبارة عن دليل ثانٍ يترجم الذي قبله ويرمي الثاني إلى أنّ المؤول فكرة تعطى بموجبها سلسلة من الأدلة، ويقسم المؤول عند بيرس تقسيماً ثلاثياً كالتالي:

1 المؤول المباشر: أو ما يعادل في البحث الدلالي العام مفهوم المدلول ويتخذ في غالب الأحيان معناً حرفياً قاموسياً.

2 المؤول الدينامي(الحركي): وهو الأثر الذي أنتجه الدليل وتبدأ منه السيميوزيس في انفتاح يبدو للوهلة الأولى أنّه غير منته.

3 المؤول النهائي: وهو المؤول الذي يكف من الانفتاح الفائض الذي ولده المؤول الدينامي.[8] يعد ما قيل هنا عن موضوع السيميوزيسالبيرسية تبياناً مختصراً ومدخلاً نظريا لجدل فكري ونقدي حول موضوع التأويل وطبيعة العلامة وانفتاح الدلالة. وقد وقع الجدال والتباين في وجهات النظر بين تيارين، قدم كل منهما قراءة مختلفة للسيميوزيسالبيرسية، ألا وهما تيار السيميائيات الثقافية ممثلاً في إمبرتو إيكو والتيار التفكيكي ممثلاً في جاك دريدا. فقراءة إيكو تقوم على استثمار مقولة المؤول النهائي المستند إلى مقولة العادة (habitude) والتي يسميها إيكو بعالم الخطاب.[9] ينبثق عن هذه القراءة ما يعرف في المشروع الإيكوي بحدود التأويل المستندة بالأساس إلى مفهوم الموسوعة؛ والتي تعد السياق العام للعلامة أو الخطاب. أما قراءة دريدا فقراءة من نوع آخر، قراءة قائمة على نهائية الدلالة وغياب المدلول النهائي، إذ ليس هناك مدلول مطلق تقف عنده آلة الدلالة فبورس

في منظومة دريدا ذهب بعيداً في الاتجاه الذي يسميه دريدا تفكيكية المدلول."فهذا المدلول الذي سيقوم في لحظة ما بوضع حد نهائي للإحالة من علامة إلى أخرى إنّ الأمر هنا متعلق بشيء مثل التمركز الذاتي وميتافيزيقا الحضور المجسدة في الرغبة القوية و النسقية التي لا يمكن كبح جماحها، فما يطلق العنان للدلالة هو ما يجعل توقفها أمراً مستحيلاً".[10] إنّ قراءة دريداللسيميوزيس قائمة على تحدي ميتافيزيقا الحضور ورفض مقولة المدلولات النهائية أو المباشرة، غير أنّ المشكلة تكمن في كيفية تعامله مع مقولة المؤول النهائي عند بيرس الذي يرى دريدا أنّه لا يمثل مدلولاً مطلقاً وإنّما تأويلاً محتملاً لا ينفي حضور تأويلات أخرى وبالتالي لا ينفي مقولة الآخر وهذا ما يتيح الانتقال من التمركز إلى الاختلاف، إنّ الركيزة التي اعتمدها دريدا هي "السلطة التي تمتلكها اللغة المتجلية في أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرةً".[11] وهنا يمكن أن نقف وقفة مع قراءة دريداللسيميوزيسالبيرسية. ونتساءل هل كانت قراءة دريدا قراءةً يحتملها السيميوزيس، أم أنّها كانت قراءة تعسفية دفعته إليها نزعته الفلسفية؟ وهذا ما يعيبه إيكو على دريدا إذ يقول: "إنّ القول بأنّ العلامة تشكو من غياب مؤلفها ومرجعها لا يعني أنّها محرومة كلية من مدلول مباشر، إنّ غاية دريدا هي ممارسة فلسفية أكثر منها نقدية تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنّها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح، إنّه لا يريد تحدي معنى النص فحسب بل يطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي".[12]

إنّنا إذا نظرنا بعين العقل والإنصاف إلى محور الخلاف بين إيكو ودريدا حول قضية السيميوزيس، فإنّنا سنجد مرد الخلاف إلى طرق كل واحد منهما في القراءة والتأويل. ما يعيبه إيكو على دريدا أنّه قرأ السيميوزيس بمعزل عن فلسفة بيرس الكلية إذ أنّ بيرس "فيلسوف غائي براغماتي"[13]، لذلك فإنّ السيميوزيس تخضع لشرط التواصل الذي يفرض وجود مدلول مباشر وبالتالي فإنّ السيميوزيس في منظومة إيكو نص يجب أن يقرأ وفقاً لسياقه العام والمتمثل في فلسفة بيرس

البراغماتية وهذا ما يطلق عليه إيكو عالم الخطاب كما سبق الذكر والنتيجة أنّ دريدا وقع فيما يسميه إيكو بالتأويل الخاطئ أو استعمال النصوص وذلك بإسقاط آراء قبلية ومعتقدات شخصية على النّص. وهذه الآراء القبلية هنا هي فلسفة دريدا التي طوع السيميوزيس حسب معطياتها. صحيح أنّ السيميوزيسالبيرسية مفهوم معقد ونص يحتمل عديد التأويلات، هذا ما يقر به إيكو غير أنّه يرى قراءة دريدا قراءةً تعسفية لا تحتملها السيميوزيس، إذ يقول: "أنا لا أ ريد أن أبين ما يجب أن تكونه السيميوزيس بل ما لا يمكن أن تكونه"[14]. لكن قراءة دريداللسيميوزيس كانت قراءة تفكيكية، فالسيميوزيس من حيث كونه نصاً أو علامة والعلامة في فكر دريدا منفصلة عن المؤلف والمرجع، ومن ثم حتى وإن وقع دريدا فيما يلمح إليه إيكو (الاستعمال)، فإنّ فصل السيميوزيس عن سياقها العام وهو فلسفة بيرس ما كان ليعدو محاولة التعامل مع نصٍ يمكن أن يقول أكثر مما يريد له مؤلفه. لم يكن حديثنا عن السيميوزيسالبيرسية يهدف إلى تحديد القراءة المثلى لها ولا إلى فض النزاع القائم بين إيكو ودريدا، وإنّما كان الهدف منه تبيان الأثر الهام لفلسفة بيرس على التيار التفكيكي ثم تبيان الحيز الهام الذي نالته السيميوزيس في الفكر التفكيكي لدى دريدا.

ثانياً: اللحظة السوسورية: إنّ ممّا يسترعي الإنتباه في الدرس اللغوي الحديث هو أهمية طروحات العالم السويسري فرديناند دي سوسور، الذي أرسى لمنهج جديد في الدرس اللغوي أسماه (linguistique) اللسانيات الذي قام على مخالفة العديد من مرتكزات الدرس اللغوي التقليدي، كما شكلت مقولاته الأساس والمرتكز لظهور الاتجاه البنيوي في النقد الأدبي والعلوم الإنسانية وامتدت إلى مقولات ما بعد البنيوية؛ في السيميائية والقراءة والتفكيك. ويمكن اختصار ما قدمه مشروع سوسور اللساني لمنظومة النقد المعاصر في المفاصل الآتية:[15]

- إعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول.
- التفرقة بين اللغة والكلام.

- مفهومي التزامن والتعاقب.
- الدراسة الصوتية.

تعد هذه المفاهيم والأسس، التي قدمها دي سوسور تقويضاً للدرس اللغوي التقليدي، فبِعَدِّهِ اللغةَ نظاماً من الإشارات التي تعبر عن الأفكار قوض فرديناند دي سوسور أصول الدرس التقليدي للغة الذي كان يرى فيها وسيلة معبرة عن الأشياء،[16] ويعد هذا الجانب التقويضي عند دي سوسور من أهم الجوانب التي أثرت في التيار التفكيكي فنقض الفلسفات السابقة وتقويضها يعد المرتكز الأساس أو الروح، التي قامت عليها التفكيكية. وبالإضافة إلى هذا الجانب يمكن الحديث عن مقولتين أساسيتين في فكر سوسور كانتا مجالاً خصباً للفكر التفكيكي ألا وهما اعتباطية الدليل اللساني ومفهوم الاختلاف

1- إعتباطية الدليل اللساني: من المسلمات اللغوية الأساسية التي قوضها سوسور في الدرس اللغوي التقليدي. طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، التي اتسمت قبله بنوع من الثبات والشرطية بحيث أنّ كلإسم يقابله مسمى بشكل حتمي ومباشر."فاللغة عند سوسور تمثل الجانب النسقي من اللسان الذي يشكل بنية الكلام والكتابة والعلامة ذات الوجهين الدال والمدلول، وسوسور أقام هذه اللغة بوصفها نظاما كليا مستقلا عن الواقع الخارجي منطلقاً من افتراض السلوك الاعتباطي (arbitraire) بين الدال والمدلول، الأمر الذي مهد لدارسي ما بعد البنيوية من تناول طرفي العلامة بطرق مختلفة حيث تابع نقاد ما بعد البنيوية فعالية الدال المتواصلة في تشكيل سلاسل وتيارات متقاطعة مع إهمال المتطلبات التقليدية للمدلول الداعية لمقابلة كل دال بمدلوله".[17] إنّ ما ينبغي الالتفات إليه ونحن نقلب النظر في مفهوم اعتباطية الدليل اللساني لدى دي سوسور هو القطيعة الابيستيمولوجية التي سجلها الفكر السوسوري، حول تصور اللغة فلم تعد اللغة لائحة من الدوال تقابلها لائحة أخرى من المدلولات، بل ينتظم كل من الدوال والمدلولات وفق قانون نسقي يسميه دي سوسور النظام (systeme). أثرت هذه

النقلة في نقاد ما بعد البنيوية واستثمرت لتجاوز فكرة المعنى الأحادي الناشئ عن مسلمة اقتران كل دال بمدلوله في صورة تطابقية تنتهي بها عملية التأويل في مهدها، ليس من الغريب إذاً أن يستثمر الفكر ما بعد البنيوي فكرة الاعتباطية لينحاز وفقاً لذلك إلى كفة الدال مستثمراً فعاليته لقتل الجمود التأويلي فاسحاً المجال لفكرة انفتاح الدلالة والتأويل، وعلى هذا يكون الفكر ما بعد البنيوي قد قدم قراءة جديدة للدليل اللغوي بمختلف تياراتها وكانت النتيجة الأساسية التي توصلت إليها القراءة ما بعد البنيوية للفكر اللساني هي فكرة انفتاح الدلالة والتأويل، التي يسميها أحد أقطاب النقد ما بعد البنيوي رولان بارث ثورة السيميولوجيا، إذ يقول: "إنّ صرح اللسانيات أصبح يتفكك من شدة الشبع أو من شدة الجوع، وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي ثورة السيميولوجيا".[18] كما اتخذ منها دريدا منطلقاً لمشروعه في نقد التمركز العقلي. ودريدا بالموازاة مع غيره من نقاد مابعد الحداثة كان له موقفه من اعتباطية الدليل اللساني، إذ يرى أهميتها في فتح الباب على مصراعيه لمقولة من أهم المقولات التفكيكية ألا وهي مقولة الاختلاف التي أشار إليها دي سوسور في تعريفه للغة.

2. الاختلاف السوسوري: الاختلاف أو المخالفة أو التخالف (différence) مصطلح صاغه دريدا في ضوء أبحاثه في نظرية سوسور والبنيويين الخاصة باللغة، وفي حين تجشم سوسور عناء كبيراً لبيان أنّ اللغة في أعم أشكالها يمكن أن تفهم على أنّها نظام اختلافات من دون حدود إيجابية.[19] وإذا عدنا إلى مفهوم الاختلاف في المنظومة البنيوية أو كما أراد له سوسور. فمفهومهأنّ كل عنصر في النظام اللغوي يكتسب معناه من خلال اختلافه مع بقية العناصر في النظام. "فاللغة تشكل نسيجاً من الاختلافات قد تكون لا نهائية وبذلك تكون صلة سوسور بأبحاث ما بعد البنيوية صلةً وثيقة تجعل من الطرح السوسوري أساساً للمرحلة النقدية لما بعد البنيوية والقول بأنّ سوسور كشف عن التمييز المبدئي بين البنيوية وما بعد البنيوية فالبنيوية تسعى إلى اكتشاف النسق في

حركة البنى داخل النص في حين تسعى ما بعد البنيوية إلى استبدال النسق المتناغم بالنسق اللانهائي الناتج عن سلسلة من الاختلافات"[20]. إنّ السؤال الذي يمكن أن يثار حول الفكر السوسوري ووفقاً لطبيعة البحث: كيف يمكن أن يكون الفكر السوسوري أساساً للطرح البنيوي المحايث في الوقت نفسه الذي يكون فيه رافداً من روافد فكر ما بعد الحداثة، ومنه التفكيكية القائمة على النسبية والاختلاف؟ إنّ وجهات النظر حول الفكر السوسوريوتباينها بغض النّظر عن جديته ومتانة طروحاته كانت نابعة من خلفية المتعاملين معه كميدان للبحث والدراسة، لقد أصبحت اللسانيات السوسورية أشبه ما يكون بالنص الفلسفي أو الأدبي الذي تتعدد تأويلاته بتعدد قرائه و تباين تحيزاتهم الفكرية والفلسفية، وعلى هذا كانت قراءة دريدا لدي سوسور قراءة مخالفة لغيره كما هو الحال في مفهوم الاختلاف، إذ: "يشير دريدا إلى أن المضامين التامة لمثل هذا التصور (الإختلاف) لم تقدّر كما يجب، الاختلاف من دون حدود إيجابية يعني أنّ هذا البعد في اللغة يجب أن يبقى غير مدرك حسياً، إذ أنّه بتعبير صارم جداً غير قابل للصياغة عن طريق المفاهيم". [21]

ثالثاً: اللحظة التفكيكية: إنّ مفاهيم العلامة والنّص والمعنى ومايتداخل معها من مفاهيم كالقراءة واللغة، مفاهيم متشابكة ومتداخلة إلى درجة أنّنا لا نستطيع الحديث عن أحدها، دون أن يجرنا قصراً للحديث عن الموضوع الآخر. فلا يمكن التعرض للغة دون الإشارة إلى مفهوم العلامة، ولاعن النّص دون البحث في القراءة والدلالة. فإذا ما أردنا تحديد مفهوم اللغة في المنظومة التفكيكية، وجب علينا العودة إلى مفهوم العلامة كونهاالوحدة الأساسية في النظام اللغوي والنّص والحديث عن العلامة ماهو إلاّ حديث عن الدال والمدلول، وطبيعة العلاقة التي تربط بينهما، التي اتسمت في الرؤية التقليدية بنوع من الثبات والوضوح غيرأنّ هذا الثبات لم يدمفما لبث أن توالت الضربات لتقويضه ليحل محله التغير والسيرورة ومن هنا ينبثق الطرح التفكيكي، الذي أحدث نوعاً من التباعد الذي

يصل إلى حد الانفصال بين قطبي العلامة ليتحقق اللعب الحر للمدلولات ولانهائية المعنى. وهذه النظرة مفادهاأنّه لايوجد في حقيقة الأمر مدلولات وإنّماهناك دوال فقط[22]. هذا مايحول المدلول إلى شيء مراوغ يصعب تثبيته، في نطاق دلالة محددة، فهو دائماً في حالة هروب وقذف إلى الأمام، بحيث يستحيل تحديد معنى ثابت، لأنّه حينما يتخذ القرار تظهر السلطة[23]. هذه السلطةالتي ترتكزعلى العادات والتراث الميتافيزيقي وهذااللاثبات الذي يسم المدلول في المنظومة التفكيكية،هو مايفتح المجال رحباً أمام أهم المقولات التفكيكية، وهي مقولة الاختلاف المرجيء "الذي يمثل التأجيل المستمر للدلالة".[24] يبدو للوهلة الأولى أنّ هذا الانفصال قضيةلغوية بسيطة. لكن هذا الانفصال الحاصل بين الدال والمدلول قضية لغوية في البداية ووجودية في النهاية، ذلك أنّ انفصال الدال عن المدلول، هوانفصال العقل عن الواقع " فعلاقة الدال بالمدلول هي في واقعالأمر علاقة العقل بالواقع والإنسان بالطبيعة والذات بالموضوع والخالق بالمخلوق، فالبعض يرى أنّها قوية ومركبة فعلى الرغم من أنّه لاتوجد علاقة تطابق بين الواحد والآخر، وعلى الرغم من أنّه توجد مسافة تفصل بين الدال والمدلول أي أنّ اللغة ليست شفافة تماماً، فالدال جزء من النظام الإشاري اللاشخصي وله قواعده ومنطقه، أما المدلول فهو جزء من نظام المعنى وتسري عليه قواعد مختلفة، ويختلط فيه المنطق باللامنطق، على الرغم من كل هذا إلاّ أنّه توجد وسائل وآليات لتحسين الآداء اللغوي للوصول إلى مانسميه بالحقيقة أوعلى الأقل جزء منها، وهذا يعني أنّ العقل قادر على إدراك الواقع"[25]. لكن هذا ماتنفيه أغلب اتجاهات مابعدالحداثة، وبالخصوص التفكيكية التي لاتؤمن بوجود حقيقة ثابتة؛ وهذا مآل انفصال الدال عن المدلول، وهي عبارة اصطلاحية تستخدم في علم اللغة أساساً ولكنّها أصبحت "مقدمة فلسفية للكثير من النتائج التي يتأسس عليها النظام المعرفي مابعدالحداثي، بكل مايضمر من عدمية فلسفية والعبارة تعني أنّ الأسماء لاعلاقة لها بمسمياتها، وإن وجدت مثل هذه العلاقة فهي علاقة واهية خلافية كل هذا يعني أنّ العقل ليس له علاقة كبيرة

بالواقع، كما يعني أنّ النسق اللغوي ذاته يسقط في قبضة السيرورة والعدم"[26] إنّ هذا التغير الذي مس العلاقة بين الدال والمدلول، والمدلول ونتج عنه هذا الخلل المعرفي والفلسفي يؤدي في حقيقة الأمر إلى نظرة جديدة للغة: "على عكس التعريفات والمفاهيم التي وضعت اللغة في خانة ربطها بالمجتمع والوجود وفصلها عن الكلام، غير أنّ جاك دريدا يغوص أعمق من ذلك عندما يتعامل مع اللغة، فهو لا يرى الوجود إلاّ من خلال اللغة، وهو يدعو إلى نظرة جديدة للغة نظرة يتحول فيها الواقع إلى مجموعة من الأقنعة البلاغية، فاللغة هي التي تنشئ مفاهيمنا عن العالم"[27]. وبما أنّ اللغة تحت حكم التعدد والاختلاف، فإنّ الوجود بأكمله يصبح رهين قبضة السيرورة كون اللغة هي التي تحكم نظرتنا للعالم كما أنّها تنشئ الواقع بالكلمات بقدرما تتحول هي إلى وقائع لها آثارها ومفاعيلها[28]. الظاهر أنّ مفاهيم جاك دريدا حول العلامة واللغة مرتبطة بمفهوم الغراماتولوجيا، الذي طرحه كآلية من آليات تفكيك ميتافيزيقا الحضور واللوغومركزية، كون الكتابة تخضع للسيرورة ومنفصلة عن السياق والمؤلف، وبالتالي تحمل على لانهائية الدلالة. وهذا مايريد أن يثبته دريدا في حديثه عن اللغة والنّص، إذ "إنّ مفهوم الكتابة هذا قد بدأ يتجاوز مدى اللغة ويفيض عنه، كما لوكانت الكتابة تنطوي على اللغة بجميع معاني هذا الفعل لا لأنّ مفردة لم تعد على دال للدال، وإنّما لأنّه بدأ يتضح تحت ضوء غريب أنّ تعبير دال الدال نفسه قد يكون كفّ عن الإدلال عن الازدواجية أوالثانوية المنحطة بل بالعكس أصبح تعبير دال الدال يصف حركة اللغة نفسها بالذات"[29].

نتج عن هذا التصور أنّ إيفانكوس ينفي أن تكون التفكيكية نظريةً في اللغة الأدبية ويؤكد على كونها طريقة في قراءة النصوص من وجهة نظر تختلف عن كل الطرائق التي تنطلق من فكرة أنّ كل نص يتضمن أسس قراءته الملائمة من قبل[30]. أمّا النّص فلا نكاد نجد له تعريفاً واضحاً ومتفقاً عليه إلاّ أن يقال: "إنّه كل مايلفظ باللغة"[31]، مع ما تتميز به اللغة في المنظومة التفكيكية من التعدد والسيرورة، بحيث يمكن سحب هذه الهلامية على مفهوم النّص كونه كياناً لغوياً

وبناءاً على هذا "لن يعود النّص كياناً متكاملاً أو مفهوماً يحده كتاباً وهوامش بل شبكةً مختلفة، نسيج من الإشارات التي تشير بصورة لا نهائية إلى أشياء أحرى غير نفسها إلى آثار واختلافات، وهكذا يجتاح النّص كل الحدود المعينة له حتى الآن، إنّه لا يمحو تلك الحدود بل يجعلها أكثر تعقيداً"[32] إنّ كيان النّص، لم يعد كياناً مستقلاً وثابتاً، بل تحول إلى مجموعة من العلامات تشير إلى علامات أو آثار أخرى وهذا ما يدعوه دريدا بالتكرارية وهومفهوم يلغي به دريدا وجود حدود بين نص وآخر، وتقوم هذه النظرة على مفهوم الاقتباس ثم تداخل النصوص[33]. هذا هو مفهوم التناص، الذي اشتهرت به جوليا كريستيفا، وهو ما يجعل تحديد كيان مستقل للنص ضرباً من العبث، لذلك فما يهمنا من الطرح التفكيكي حول مفاهيم النّص واللغة، هو التفسير والتأويل، إذ لا يمكن فصل التفسير والتأويل في هذه الحال عن المقولات التفكيكية كالاختلاف وانفتاح الدلالة وغياب المعنى الأحادي "فالتفسير التفكيكي للنصّ هو الحوار الديالكتيكي بين القارئ والنص عبر دائرة هيرمينوطيقية مغلقة تستبعد كل الثوابت والتقاليد الجامدة، وتتعامل مع العلامة اللغوية بعد أن ابتعدت أقصى درجة ممكنة عن دالتها على أساس أنّ المبدأ الوحيد الذي يحكمها هو اللعب الحر"[34]. نظراً لغياب المعنى والحقيقة تحل محلهما في المنظومة التفكيكية والتأويلية المعاصرة مفردة القراءة كتعبير عن نسبية المعنى والتغير المستمر، يقول علي حرب في هذا الصدد: "وتكتسح مفردة القراءة شاشة الرؤيا إلى درجة تكاد تزيح مفردة الحقيقة وتنزلها من عرشها الذي تخلّع من فرط التسبيح بحمدها"[35]. تطرح التفكيكية أنموذجاً جديداً للقراءة، يختلف اختلافاً جذرياًعن استراتيجيات القراءة في الاتجاهات النقدية الأخرى، كالمذاهب السياقية المؤمنة بوصاية الكاتب على المعنى أو النظريات البنيوية، التي ترى المعنى نتاجاً للتفاعلات الحاصلة بين البنى داخل النصّ، وتقوم القراءة التفكيكية على ذاتية الفهم والقراءة تبعاً لانفتاح الدلالة اللاّمشروط، لذلك فإنّها تلغي أي قانون يحكم التأويل أو يكبح حرية القراءة، غير أنّها تبقى تحتفظ ببعض معالم المحايثة البنيوية التي لا

مفر منها في النقد المعاصر" فالنقد الأدبي بنيوي في كل عصر، بفعل جوهر وبفعل مصير لم يكن ليعرف ذلك وأصبح يدرك الآن، وهويفكر اليوم في نفسه، في مفهومه في نظامه وطريقته"[36]. ما يجعل التفكيكية تنطلق في البحث الدلالي من النص بغض النظر عن قصدية المؤلف، فاللغة يحكمها اللعب الحر وتقول أكثر مما يريد لها صاحبها، هذا ما يؤكده دريدا ذاته حين يقول: "أعتقد أنّه من غير الممكن الانحباس داخل النّص الأدبي وإنّ المحايثة أو الباطنية الأدبية المحض، تقوم في نظري على الاحتماء ضمن الحدود المقامة تاريخياً، والتي تفترض مجموعاً كاملاً من العقود التاريخية المتعلقة بتأطير النصّ، وتحديد وحدته ومتنه وضماناته القانونية وما إلى ذلك من تحديدات اجتماعية – قضائية، يجب بالطبع بصورة مؤقتة على الأقل أن تتحرك داخل هذه الحدود، لدفع القراءة المحايثة إلى أبعد ما يمكن، لكنّها لا تستطيع في رأيي أن تكون جذرية تماماً، هذا شيء نابع من بنية النّص نفسه، إنّنا لا نستطيع أن نبقى داخل النّص... أعتقد بين داخل النّص وخارجه توزيعاً آخر للمجال أو الحيز، وأعتقد أنّه سواء في القراءة الباطنية أم في القراءة التفسيرية للنّص عبر مسيرة الكاتب، أوتاريخ الحقبة، يظل شيء ما ناقص دائماً "[37]. هذا ما يدفعنا إلى الحديث عن قضية الداخل والخارج في النقدالأدبي، إذ يقسم كل من أوستين وارين

وروني ويليك كل المناهج النقدية إلى اتجاه داخلي واتجاه خارجي، وهو التقسيم الذي يستند إلى أسس إبيستيمولوجية مختلفة[38]. غير أنّ التفكيكية قامت على تقويض هذه الثنائية وتبيان مفارقاتها، فالفصل بين الداخل والخارج هو من أثر فلسفة الحضور، إنّ العناصر لاتنقسم بهذا الوضوح الساطع إلى داخل وخارج لأنّها ترتبط بعلاقات معقدة، فلا وجود لداخل خالص ولا لخارج خالص، بمعزل عن شبكات العلاقات المتداخلة[39]. وهذا مايؤكد عليه دريدا حين يقول: "فالخارج عرضة باستمرار لأن يصبح موضوعاً داخل تقاطب الذات/ الموضوع، أو ليصبح الواقع الآمن خارج النّص، وهناك بعض الأحيان داخل يكون مزعجاً بقدر مايكون

الخارج مهدئاً، وهو شيء لايلزم تجاهله في حملة النقد الموجهة ضد الطوية والذاتية، فنحن هنا داخل منطق بالغ التعقيد"[40]. إنّ القراءة التفكيكية للنصّ على الرغم من كونها تنطلق من اللغة وفق دائرة هيرمينوطيقية مغلقة تستبعد المؤلف والحدود العقلانية أو الميتافيزيقية، إلاّ أنّها لا تعد قراءة محايثة بالمعنى البنيوي كونها لا تؤمن بحضور المعنى في النّص، كما لا تعد مقاربة باطنية كما هو الحال في التأويل الصوفي كونه يؤمن بمركزية المعنىاللاهوتي، إنّ القراءة التفكيكية خاضعة دائماً لسيرورة المعنى واللعب الحر للمدولات. تحدث في الزمن ولاتخضع إلا لحالة المتلقي وذاتيته، وهي في حالة تغيروسيرورة دائمة.

الهوامش:

1- حامد خليل، المنطق البراغماتي عند شارل سندرس بيرس مؤسس البراغماتية، دار الينابيع دمشق، 1996 ص 41.

2- المرجع نفسه، ص 57.

3- دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت، 2008، ص 69.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص 71.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 447.

6- أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1 بيروت والجزائر، 2008، ص 56.

7- إمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، ط1 بيروت، 2005، ص 109.

8- وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل قراءة في مشروع إمبرتو إيكو النقدي، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت والجزائر، 2007، ص59- 60.

9- المرجع نفسه، ص 109.

10- إمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ص 126.

11- المرجع نفسه، ص 124.

12- المرجع نفسه ص ن.

13- وحيد بن بوعزيز، المرجع السابق ص، 111.

14- إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية ص 137.

15- سعد الله محمد سالم، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، دار الحوار، ط1، اللاذقية 2008 ص120.

16- ينظر: عبد الله إبراهيم، التفكيك الأصول والمقولات، منشورات عيون المقالات، ط1 بغداد 1990، ص 7.

17- محمد سالم سعد الله، المرجع السابق، ص 121

18- بارث رولان، درس السيميولوجيا، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط3، الدار البيضاء، 1993 ص 21.

19- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ترجمة: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، د.ت. ص 223. 224.

20- محمد سالم سعد الله، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، ص 120.

21- جون ليشته، خمسون مفكرً أساسياً معاصراً، ص 224.

22- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة الكويت، 1998 ص 304.

23- ينظر: المرجع نفسه، ص 254.

24- عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه دراسة في سلطة النّص، سلسلة عالم المعرفة(298) وزارة الثقافة، ط1 الكويت. 2003، ص 154.

25 عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، ط1 دمشق 2004، ص 31-32.

26- المرجع نفسه، ص 35.

27- عبد الله إبراهيم، التفكيك الأصول والمقولات، ص 84.

28- ينظر: علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1 بيروت ودار الفارس عمان، 2005. ص 21.

29- جاك دريدا، نهاية الكتاب وبداية الكتابة، ضمن كتاب الكتابة والاختلاف ص 103.

30- ينظر: عيّاط إيناس، إستراتيجية التلقي في الفكر النقدي المعاصر، رسالة ماجيسنير جامعة الجزائر، ص 213.

31- عبد الله إبراهيم، التفكيك الأصول والمقولات، ص 85.

32- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 320.

33- ينظر: الغذامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، ص 52.

34- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، ص 301.

35- علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، ص 10.

36- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 133.

37- المرجع نفسه، ص 81.

38- ينظر: رينيه ويليك، أوستين وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1987. ص 75.

39- ينظر: محمد بوعزة، إستراتيجية التأويل بين النصية والتفكيكية، منشورات الاختلاف، ودار الأمان، ط1 الرباط والجزائر، 2011. ص 30.

40- جاك دريدا، مواقع، ترجمة: فـريد الزاهـي، دار توبقـال، ط1، الدار البيضاء، 1992. ص 65.

حضور الصورة في الكتاب المدرسي

كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط نموذجا

أ. عبدالله بوقصة

جامعة الشلف

أضحى تأثير الصورة في التواصل اليوم أمرا مسلّما به، إذ تعتبر الثقافة البصرية المكوّن الحاسم لجلّ عمليات التواصل. ذلك لأنّ الصورة من شأنها أن تقوم بدور فعال في إنجاح الرسالة التعليمية نظرا لما يتوفّر فيها من خصائص مهمة.

ومن هذا المنطلق اعتادت لجان تأليف الكتب المدرسية المقررة لتلاميذ المدارس إرفاق بعض الصور والرسومات بالنصوص المعتمدة المختارة للقراءة والمطالعة.. وهذا حرصا منها على أن تخدم هذه الصور الخطاب الذي ينبغي نقله إلى المتعلمين. لذا ارتأينا قراءة واقع الصورة في الكتاب المدرسي الجزائري لنقف على صيرورة حضورها وآليات اشتغالها ومدى تحقيقها للأهداف المرجوة.

وحتىّ يكون عملنا أقرب إلى التطبيق منه إلى التنظير، اعتزمنا أن نورد بعض النماذج من قراءات محتملة للصور المرافقة لنصوص كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط.، مع تأكيدنا على أن لكلّ قارئ قراءته الخاصة للصورة الواحدة، حيث تتعدّد القراءات وتتجدّد على الدوام.

مقدمة: لم يعد الكتاب في الوقت الراهن تراكما معرفيا فحسب، بل تجاوز ذلك إلى مظاهر الإنتاج وصور الإخراج، بالنظر إلى الحجم ونوعية الورق، إلى جانب التقنيات الموظفة في تنسيق الصفحات كالخطوط والرسوم والألوان والصور وما إلى ذلك من إشارات دالة. وهكذا راح محللو النصوص يهتمون بكل هذه المظاهر: كشكل الحروف، وعلامات الترقيم، وتوزيع الفقرت، وعلاقة البياض

بالسواد، والفضاء النصي، والفضاء التصويري، إذ النص حيز ينطوي على بياضات وفراغات، وتخترقه شقوق وفجوات تستدعي القارئ للتفاعل معها وتأويلها بملء تلك الفجوات والشقوق.. وهي علامات تحكمها قصدية المؤلف أو المنتج ولكنها تبقى شرطا من شروط التواصل الناجح والتسويق الرائج.

ولمّا كانت الصورة مجموعة إشارات موزعة ضمن فضاء مؤطّر، يمكن تحديدها بواسطة الأداء الانتقائي، والحكم الإدراكي البصري. إذ تتبادل هذه الإشارات مجموعة من العلائق الناتجة من خصائصها الذاتية من جهة، ومن طبيعتها الشكلية من جهة ثانية، مثلها مثل سائر العلامات ذات الحمولة الدلالية. فما طبيعة الصورة من حيث هي علامة دالة؟ والفرق بينها وبين العلامة اللسانية؟ وكيف يمكن للصورة كعلامة أيقونية أن تؤثر في الكلمة كعلامة لسانية؟

طبيعة الصورة: من نافلة القول إنّ الصورة علامة من العلامات المطروحة في الطريق، بمعنى أنّها دال ومدلول، الأمر الذي أماط عنه اللثام "فرديناند دي سوسير" مؤسس السيميولوجيا، وضبط مفاهيمه "شارل سندرس بيرس" حينما وضّح الفرق بين ضروب العلامات:

- العلامة الأيقونية (Signes iconiques)
- العلامة الاقترانية (Signes indiciels)
- العلامة الرمزية (Signes symboliques)

فالصورة بوصفها علامة أيقونية لها خصائص مميزة عن الكلمة باعتبارها علامة لسانية، ويمكن لنا في هذا المقام أن نقتفي أثر خاصيتين اثنتين هما: الاعتباطية والإدراكية.

أولا: الاعتباطية وهي خاصية معروفة في العلامة اللسانية، منشؤها الاصطلاح والمواضعة، فلا ترابط ولا تشابه بين الدال والمدلول. بخلاف العلامة الأيقونية التي تخضع إلى ائتلاف الدال والمدلول، وارتباطهما بالمشابهة والتماثل. بل هناك صور تكاد تطابق الواقع الذي تحيل عليه، كالصور الفوتوغرافية مثلا.

غير أنّ ذلك الائتلاف سرعان ما يتضاءل عندما يتعلّق الأمر بالصورة الذهنية التي يتدخل الخيال في تشكيل معالمها.

ثانيا: الإدراكية وتكون جزئية في العلامة اللسانية، إذ يقوم الذهن خطيا بتركيب الأجزاء والمكوّنات، وبناء الروابط والعلاقات قبل أن يثبّت عليها دلالة معينة وفق خلفيات السياق. بينما العلامة الأيقونية تُدرك دوما إدراكا كليا. ذلك لأنّ وحدة العمل الفني التشكيلي تكمن في تآلف كلّ الخصائص الضرورية كالخط والمساحة واللون والضوء، في إحداث ملخص كلّي منسّق ذي مكوّنات متفاعلة. فالهدف الأساسي للمصوّر سواء الفني أو الفوتوغرافي "هو تحويل عناصر الشكل والمكان والإيقاع واللون، وغيرها من المكوّنات إلى تعبير متماسك يضمّنه رسالة توضّح مادته، وقد تمثّل شيئا أو توحي به أو ترمز إليه"[1].

وتأثير الصورة في التواصل اليوم أضحى أمرا مسلّما به، إذ تعتبر الثقافة البصرية المكوّن الحاسم لجلّ عمليات التواصل.[2] ذلك لأن الصورة من شأنها أن تقوم بدور فعال في إنجاح الرسالة التعليمية، نظرا لما يتوفر فيها من خصائص أهمها:

ا- التشويق إثارة اهتمام التلميذ

ب- الدقّة في توضيح الأفكار

ج- تقريب الشيء البعيد من حيث الزمان والمكان

د- التشجيع على الملاحظة والتفكير والنقد

غير أنّ هذه الفوائد التي يمكن أن يجنيها المتعلّم من خلال توظيف الصورة لا تتحقق إلاّ بمراعاة جملة من المعايير في اختيارها منها: الوضوح، الملاءمة الثراء، الدقّة...ألخ

ومن هذا المنطلق اعتادت لجان تأليف الكتب المدرسية المقررة للتلاميذ إرفاق بعض الصور والرسومات بالنصوص المعتمدة المختارة للقراءة والمطالعة حرصا منها على أن تخدم هذه الصور الخطاب الذي ينبغي نقله إلى المتعلمين.

ولذا لابدّ أن توكل مهمة اختيار هذه الصور أو تصميمها إلى مبدعين يدرسون النصوص دراسة معمقة.

ولكي تكون الصورة خادمة للدلالة [3]، لابدّ من التقيّد بما يلي:

ا- عدد الصور المرافقة للنص

ب- موضع كل صورة في النص

ج- موضع كل صورة في الصفحة

د- مكونات كل صورة (الجزء المركزي/الألوان/الخطوط/ملامح الشخصيات)

هـ- المشاعر والأحاسيس التي توحي بها الصورة

و- مدى انسجام الصورة مع النص

وحتى يكون جهدنا أقرب إلى التطبيق منه إلى التنظير، اعتزمنا أن نورد نماذج محتملة للصور المرافقة لبعض نصوص **كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط**.. مع ضرورة التنبيه إلى أن لكل قارئ قراءته الخاصة للصورة الواحدة حيث تتعدد القراءات وتتجدد.

قراء ة في صورة الغلاف

أول ما يصادفنا قبل تصفح الكتاب صورة الغلاف، وهي عتبة مهمة من عتباته التي يمكن أن تحيلنا على الدلالة التقريبية. فليس الهدف من الغلاف أن يستر الكتاب فحسب، بل هو يلعب - بما يحمل من صور- دورا مهما في التلقي والإثارة والإغراء.

وتمثل صورة غلاف كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط لوحة تشكيلية هي بمثابة نص بصري يختزل النص الحقيقي في دلالات مكثفة..[4] إذ إنّها تحمل بين طياتها قلم حبر أنيق بريشته الحادة الجذابة متأهب للكتابة، وأسفله يد بشرية تسعى إلى التقاط ريشته. يرمز هذا القلم المتعالي الذي يسمو على الأيدي إلى سلطان العلم الذي خضعت له البشرية برمّتها.

واقع الصورة في كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط: ولقراءة واقع الصورة في كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط، ينبغي أن نقف على صيرورة حضورها وآليات اشتغالها، ومدى تحقيقها للأهداف المرجوة. فإذا كان هذا الكتاب المدرسي قد اعتمد على لغة واضحة وبسيطة، فإنه أيضا وظف صورا وتخطيطات ملائمة لموضوعاته قصد إثارة دافعية القراءة. فلم يعد للصورة دور تزيين الكتاب وتسلية القارئ بل أصبحت جزءا لا يتجزأ من تضاريس النص.

ولا محالة في أنّ متصفح الكتاب يلاحظ بغير عناء حضور الصورة المصاحبة للنص القرائي بكثافة.. وتتراوح الصورة الموظفة في هذا الكتاب بين مجالين اثنين:

أ- **الصورة الفوتوغرافية:** وغالبا ما تكون صغيرة متفاوتة في الصغر فتشغل حيزا يسيرا من فضاء النص، وتكون في أحيان كثيرة في أعلى الصفحة على يسار المتصفح.

ب- **الرسوم اليدوية:** وهي كذلك مختلفة الأحجام بين الكبر والصغر متباينة المواضع بين اليمين والشِمال.

ومن مظاهر التطور في توظيف الصورة في الكتاب المدرسي وضع صور فوتوغرافية لشخصيات تتمحور حولها النصوص القرائية كما في نص "**الفنان محمد تمّام**" **ص54**

إذ نجد صورة الفنان مصاحبة للنص، وكذا في **نص** "**موزار الموهبة النادرة**" **ص58** نعثر على صورة موزار ذاته على يسار النص.. والأمر نفسه في **نص** "**زرياب مبتكر الموسيقى الأندلسية**" **ص137** الذي تحاذيه صورة تخطيطية تقريبية لزرياب ولو أنها من وحي الخيال.

أمّا سؤال الصورة التعليمية ، فإنّه غالبا ما يتأرجح بين مطلبين أساسين:

أ- ملاحظة الصورة والتعليق عليها

ب- إيجاد علائق بين الصورة وعنوان النص أو مضمونه

وعندما نتحدث عن الصورة التعليمية ، ينبغي البحث عن قصدية توظيفها فمعظم الصور الموظفة ليست منتجة لتعتمد بين ثنايا كتاب مدرسي.

ففي **نص** "**سيارة المستقبل**" **ص08** على سبيل المثال، وردت صورة فوتوغرافية مصاحبة جاءت في أعلى يسار النص، وهي صورة لسيارة عصرية يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح، لكنها تبدو عادية، لا تتماشى كثيرا مع موضوع النص الذي يتناول نموذج لسيارة مستقبلية ذاتية القيادة..

وفي **نص** "**المدنية الحديثة**" **ص 19** تظهر صورة لبناية عالية لكن ما يسترعي الانتباه هو أنّها مائلة نوعا ما، ومن المفروض أن تكون قائمة، وقد يوحي ذلك بأمور عدّة منها:

إنّ حضارة الغرب مهما تقدّمت و بهرت، فإن ازدهارها مادي يشوبه الكثير من النقصان، خاصة الاعوجاج الروحي الذي يعاني منه الغرب، والذي ينبئ بقرب انهيار مدنيتهم.

وهكذا يبدو المبنى الماثل في الصورة عريضا من الأسفل رفيعا من الأعلى مما يؤكد وجهة نظرنا السابقة المتمثلة في أنّ الحضارة الغربية، كلما ارتقت وازدادت سموا كلما غاب بريقها وفقدت الكثير من خصوصياتها.

أمّا في **نص** "**تمقاد**" **ص95** فقد اختارت لجنة تأليف كتاب اللغة لعربية للسنة الرابعة متوسط أن تضع صورة فوتوغرافية لآثار مدينة "تمقاد" الرومانية الواقعة ضواحي ولاية باتنة الجزائرية.. وهو أمر متوقع نظرا لكون موضوع النص يدور حول آثار "تمقاد". فثمّة علاقة وطيدة بين الصورة ومضمون القصيدة الشعرية، إذ يقف الشاعر محمد العيد آل خليفة على أطلال تمقاد واصفا إياها وصفا دقيقا ومفصلا. ومن حيث الألوان يطغى على صورة آثار "تمقاد" اللون الأبيض الحجري، كما هي على أرض الواقع تماما، وقد أحاط بها اللون الأخضر الذي يشير إلى خصوبة أرض الجزائر المعطاء.

وفي **نص "زرياب مبتكر الموسيقى الأندلسية" ص137** تحضر صورة يدوية تخطيطية تقريبية لزرياب حاملا عوده بلباقة ومهارة، وهو منهمك في أداء وصلاته الغنائية، وهذا دليل على تمجيد التراث الفني العربي الأصيل.

والملاحظ أن صورة زرياب سالفة الذكر تغلب عليها الخطوط المنحنية والانسيابية التي ترمز إلى السهولة واليسر، على عكس الخطوط المنكسرة التي ترمز إلى الضيق والتأزم. واختيار نوعية الخطوط يبدو موفّقا إلى حدّ بعيد باعتبار زرياب عاش الرخاء والرفاهية في الأندلس، بعد تعرضه إلى مضايقة المنافسين من أمثال إبراهيم الموصلي ونجله إسحاق اللذين استأثرا ببلاط الخليفة أنذاك في بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وتتجلّى السهولة واليسر كذلك في العفوية والأريحية التي كان يؤدي بها زرياب فنّه.

هذه إذن قراءة وصفية تحاول إضاءة جوانب من حضور الصورة في التأليف المدرسي من جهة، ونقدية تسعى إلى تسجيل ملاحظات عن مدى جودة أو رداءة الصورة المعتمدة في الكتاب المدرسي من جهة أخرى. فقد آن الأوان لتتكاثف الجهود بكفاءة وأمانة قصد إصدار طبعات جديدة من كتب مدرسية تتماشى ومتطلبات العصر.

ومجمل القول فإن الصلات بين الصورة واللغة ما تزال معرفتنا بها غامضة وسطحية، وهو أمر راجع إلى أن البحث في مجال الصورة ما يزال في بدايته، إذ أن الباحثين ما زالوا في طور البحث عن الأدوات والمناهج الملائمة التي تسعفهم في الكشف عن طبيعة هذا الموضوع المنفلت وإبراز قواعد اشتغاله. ولن نتمكن من سبر أغوار هذه العلاقة إلا عندما يصل علم الإيقونولوجيا[5] إلى ما وصل إليه علم اللسان من تقدم في الوقت الراهن. كما أنّ كلا العلامتين اللسانية والأيقونية تتشابه في أوجه، وتختلف في أخرى. فإذا كانت العلامة اللسانية ذات منحى رمزي خالص، فإنّ نظيرتها الأيقونية تجمع ما بين الرمزي والمطابق للواقع، الأمر الذي يجعل تحليلها وقراءتها مهمة تحتاج إلى تكاثف جهود الدارسين.

هوامش

1 – شاكر عبد الحميد، العملية الإبداعية في فن التصوير، عالم المعرفة، الكويت، عدد109 يناير، 1987، ص14.

2 – عواد علي، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ص85.

3 – عطية العمري، فن قراءة الصورة...، مجلة رؤى تربوية، عدد23، مركز القطان، عمان ص130.

4 – عبد الفتاح كليطو، "الغائب" دراسة في مقامات الحريري، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987.

5 – الايقونولوجيا: هو علم دراسة الصور.

9 - Cinéaste hollywoodien du rêve et de l'enfance, il connaît le succès avec le célèbre film « Batman » en 1989.
10 - Le paratexte du logo est la publicité.
11 - L'Algérie s'incarne en la belle Nedjma (étoile an arabe).
12 - Dieu dit à ce sujet que : « c'est Lui qui vous a assigné les étoiles, pour que, par elles vous vous guidiez dans les ténèbres de la terre et de la mer. Certes, Nous exposons les preuves pour ceux qui savent! » (Coran, 6:97).
13 - « Nous avons effectivement embelli le ciel le plus proche avec des lampes (des étoiles) dont Nous avons fait des projectiles pour lapider les diables et Nous leur avons préparé le châtiment de la Fournaise. » (Coran, 67:5).

Bibliographie

Adam, J.-M. & Bonhomme, M. (2005). *L'argumentation publicitaire. Rhétorique de l'éloge et de la persuasion*. Paris : Armand Colin.
Barrie, J. (2003). *Peter Pan ou l'enfant qui ne voulait pas grandir*. Paris : Librio.
Caroll, L. (1990), *Les aventures d'Alice au pays des merveilles et de l'autre côté du miroir*. Paris, Gallimard.
Eco, U. (1988),*Le signe, histoire et analyse d'un concept*. Paris, Le livre de poche.
Flinders, p. (1931), *Egypt and Israel*. Londres, Society for Promoting Christian Knowledge.
Floch, J.-M. (2002), *Sémiotique, marketing et communication. Sous les signes, les stratégies*. Paris, PUF.
Fontanille, J. (2003), *Sémiotique du discours*. Limoges (France), PULIM.
Heilbronn, B. (2006), *Le logo*. Paris, PUF.
Peirce, C.- S. (1978), *Écrits sur le signe*. Paris, Le Seuil.
Pottier, B. (1992), *Sémantique générale*. Paris, PUF.
Saussure,F. (1995),*Cours de linguistique générale*. Paris, Payot.
Searle R.-J. (1996), *Les actes de langage. Essai de philosophie du langage*. Paris, Hermann.
Semprini, A. (1995), *La marque*. Paris, PUF.

---

1 - Première lettre de l'alphabet arabe.
2- La langue du film est familière, c'est de l'arabe algérien, nous avons jugé indispensable, dans notre traduction, de recourir au français familier car les deux langues ont la même légèreté et fluidité.
3- Le mot *hala* en arabe algérien, veut dire ravage en français. Faire des ravages plus exactement, c'est-à-dire susciter des passions amoureuses dans le cœur des Algériens.
4 - Elle est l'héroïne du roman *Alice au pays des merveilles* de l'Anglais Lewis Caroll, écrit en 1865. Comme dans le roman, les publicitaires créent un monde où ni le temps, ni l'espace, ni le langage ne ressemblent vraiment à ceux de la vie réelle.
5 - Nom d'une fée.
6 - Il est l'un des héros les plus célèbres dans le monde, il s'agit de l'histoire d'un garçon gracieux qui possède un pouvoir de voler et qui refuse de grandir ; ce personnage a fui le jour de sa naissance pour rester à jamais un petit garçon.
7 - Dessinateur et scénariste français de bande dessinée.
8 - Période allant de 1990 à l'an 2000 où des attentas terroristes ont plongé le pays dans la terreur meurtrière (le nombre des morts a atteint à peu près les deux cent milles).

- dans le monde des religions, l'on a l'étoile de David, qui est un symbole judaïque, une étoile à six branches faite de deux triangles superposés (elle représente les six jours de la création et le *shabbat* « samedi »). Dans l'islam les étoiles servent à décorer le ciel, à établir des jalons permettant l'orientation[12] et servent aussi à la lapidation des démons[13] ;

- pour Floch, l'étoile a : « Enfin une dernière qualité, qui n'est pas la moins importante en l'occurrence : c'est une figure lisible, reconnaissable et identifiable, immédiatement et par tous. Le logo qu'elle peut constituer sera figuratif, et non abstrait » (2002 : 78).

Conclusion

Nous déduisons grâce à cette courte étude que la problématique de la multiplicité de la référence se pose constamment en publicité, bien que les agences qui réalisent les messages publicitaires utilisent toute la science sémiotique, afin de ramener ceux-ci à une référence unique, ou du moins à une double référence comme le fait souvent Nedjma avec ses films publicitaires. Nous avons constaté que chaque référent (objet du monde, concept, êtres vivants…) est orienté vers l'univers de sa marque, en montrant à la fin le slogan et le logo qui leur servent de guides.Cependant, toutes ces stratégies peuvent être à l'encontre de la publicité quand le référent n'est pas clair. C'est pourquoi nous avons parlé de l'équivocité de la référence en publicité.

Nous avons insisté sur le fait que le médiateur principal entre la marque, le produit et le client n'est rien d'autre que le logo, perçu comme porteur de valeurs. Les valeurs et l'identité d'une marque sont des principes abstraits et fortement synthétiques condensés dans celui-ci. Elles n'ont d'existence que conceptuelle car en raison de cela, elles ne sont jamais immédiatement disponibles. Seul un processus d'interprétation et d'analyse permet de les expliciter et de les conceptualiser. Une marque comme Nedjma n'énonce jamais ses valeurs directement, elle les insère dans des narrations complexes, à l'intérieur desquelles les valeurs peuvent prendre vie et déployer tout leur sens.

présence de l'organisation ou la marque dans l'imaginaire de ses clients réels ou potentiels.

Nous avons parlé de plusieurs référents, parce quele nom du logotype « Nedjma » est soumis à plusieurs types d'interprétations possibles. Cela créerait des problèmes par rapport aux signifiés auxquels aspirent enraciner la firme dans l'imaginaire de ses clients. D'où il est justement nécessaire de recourir à « des paratextes[10] dont la fonction est justement de réancrer la signification du logo et de légitimer ce signe comme figure de représentation de l'organisation » (Heilbrunn, 2006 : 106). Nous allons donner quelques significations possibles que pourrait représenter le logo « Nedjma »:

- il est à proprement parler un astre doué d'un éclat propre dû aux réactions thermonucléaires dont il est le siège;
- le deuxième sens évoque chez les Algériens la fameuse étoile du drapeau national en rouge qui représente le sang des martyrs coulé pour l'indépendance du pays. Elle symbolise aussi le socialisme adopté après la libération car l'étoile rouge à cinq branches est un symbole du communisme et du drapeau de l'ex URSS ;
- elle seraitun nom propre qui désigne une femme[11], mais renvoie surtout chez les esprits lettrés au roman de Kateb Yacine;
- à l'ère de la globalisation où l'anglais est la langue universelle, un autre sens se joint à l'étoile : le lexème*star* dont la signification renvoie aux vedettes du cinéma, de la chanson ou tout autre domaine du spectacle, avant qu'il prenne lui aussi un sens ironique dans les expressions telles que : «vedette du monde politique, financier, etc. » ;
- en littérature comme en astrologie le mot concerne la chance et la destinée, comme nous pouvons le constater dans diverses locutions : « être né sous une bonne étoile », « croire à son étoile » ; il peut aussi s'agir de la renommée et de la réussite de quelqu'un « il voyait son étoile pâlir »;
- l'étoile sert de guide pour le marin et pour le nomade au désert :« l'étoile polaire » ;

rêves et devenir comme Peter Pan, c'est-à-dire avoir le capacité de planer comme un oiseau dans les cieux (de la concurrence). Pan est le nom donné à un dieu grec, mi-homme, mi-bête ; il est représenté comme le Diable, avec des cornes, une queue et des pieds de bouc d'une laideur à provoquer la panique ; il est surtout considéré comme le Dieu de la fécondité, ayant un appétit sexuel insatiable. Néanmoins, ce qui demeure le plus important à savoir, c'est que selon une légende, son nom qui signifie « tout » ne serait pas arbitraire, parce que tous les Dieux de l'Olympe s'étaient réjouis de son arrivée parmi eux pour lui offrir tout ce dont il avait besoin. À l'exemple de Pan, l'opérateur Nedjma cherche donc à être le bien aimé de tous les Algériens, tout en sachant que ce trait pourrait logiquement apparaître comme une laideur effroyable aux yeux de ses concurrents.*A fortiori*, la marque Nedjma dans son voyage initiatique s'identifie à Clochette, tant au niveau de la beauté qu'au niveau de la sage course vers la recherche d'un trésor. Elle se voulait surtout, à bien des égards, être la fée qui use de sa magie pour infléchir le destin des hommes, celui des Algériens meurtrispar « La décennie rouge »[8], autrement appelée « La guerre sans nom ».

Nedjma se serait inspirée également du monde fantastique d'« Edward aux mains d'argent » de Tim Burton [9] joué par l'acteur américain Johnny Depp en 1990 ; celui-ci y incarne un pierrot lunaire aux doits d'acier, maladroit et rejeté par la société dont la prestation a attiré plusieurs cinéastes. Tout à fait comme Edward qui faisait de ses doit-ciseaux, des sculptures topiaires, qui ont fait l'admiration de toute la ville, Nedjma a su réaliser des films publicitaires dignes des œuvres d'art avec ses propres moyens. Nous paraphrasons par là que le conte moderne met en exergue les thèmes éternels de la différence acceptée, de l'incompréhension et du racisme. Se voyant victime, Nedjma s'efforça de mettre en œuvre une fiction qui puisse amener les consommateurs à passer de l'organisation à sa représentation nous entendons par représentation, l'intensification de la

l'interprétation du logo n'a rien à voir avec la lecture et la compréhension, par exemple, d'un texte ou d'un slogan. Il serait plutôt compris ou «reconnu» comme on comprendrait un schéma ou une quelconque image abstraite. En d'autres termes, « le logo est un flash sémiotique, le bouton sur lequel en appuyant visuellement nous déclenchons instantanément tout l'imaginaire et les valeurs de la marque » (1995 : 75).

Le lancement de la marque d'une étoile éblouissante-Nedjma- répond à cette logique que nous venons de citer. Toutefois, il serait important de rappeler qu'une marque n'énonce pas seulement ses valeurs mais « raconte des histoires. C'est dans cette capacité à raconter deshistoires et dans son talent de narrateur, que résideune des plus importantes propriétés de la marquecontemporaine. » (Semprini, 1995 : 75). N'ignorant pas le secret du pouvoir de la marque, Nedjma s'inspire de l'histoire de la fabuleuse fée clochette[5] du dessin animé « Peter Pan[6] » de Régis Loisel [7] qui a su faire en 1990 l'adaptation la plus surprenante de la pièce « Peter Pan ou l'enfant qui ne voulait pas grandir », une comédie mythique qui fut écrite par le romancier britannique sir James Matthew Barrie (2003) dont la toute première adaptation revient aux studios Disney en 1953 qui l'ont sciemment plongée dans un univers idyllique.

Le parcours de Clochette recèle sans doute des analogies liées à l'avènement de Nedjma en Algérie du fait que toutes deux venaient de naître dans un monde sordide et se voient confrontées à la violence des adultes. Pour fuir la tyrannie des adultes, clochette décide de ne pas grandir ; cela dit, c'est le seul trait qui distingue les deux victimes car Nedjma a toujours naturellement espéré grandir au milieu des adultes tout en voulant garder jeune son image. Nous rappelons que l'opérateur Nedjma est tout jeune par rapport à ses deux concurrents sur le terrain algérien que sont Djezzy et Mobilis. *A fortiori*, lorsqu'il s'est installé sur le marché, à la recherche des abonnés, il s'est vu déjà concurrencé par ces deux géants. Alors, à l'instar de Clochette qui fait l'impossible pour fuir la dure réalité de la vie, Nedjma part à la quête de l'amour en tentant de semer des

Dans ce film, nous constatons que le véritable énonciateur n'est pas Abdelkader Secteur comme humoriste, mais c'est la marque. Nous voyons bien que son visage est sur la voie d'être effacé pour céder place à la vedette (Nedjma) symbolisée par une bougie blanche allumée sous l'œil gauche de l'énonciateur intermédiaire et la teinte orange qui se propage sur l'écran (qui a dit que les couleurs ne parlent pas ?). La petite bougie est une litote visuelle qui peut échapper à l'œil du téléspectateur. Par conséquent, il ne faudrait pas croire que le langage publicitaire de Nedjma fait de mal à une célébrité en répandant de la peinture sur son visage. Au contraire, Nedjmatente par cette voie de représenter l'état de quelqu'un qui devient son abonné ou son client, c'est-à-dire que de la lumière se répandra dans sa tête pour l'éclairer à la manière d'une bougie ou d'une étoile qui nous guident dans une nuit sombre, et le savoir qui nous guide dans notre vie, sachant que la bougie symbolise la science.

Nedjma, une histoire d'un logo aux référents multiples

Ce signe ouobjet (graphique, alphabétique, figuratif) qu'on appelle logo fonctionne toujours comme une figure qui est soit métonymique, soit métaphorique de l'organisation (entreprise) et de la marque qu'il représente (Heilbrunn, 2006) ; il permet d'instaurer du sens et un lien quasi matériel avec les consommateurs. Pour Adam et Bonhomme (2005), le logo est un signifiant composite qui remplit deux fonctions argumentatives : une fonction de saisie de la marque, c'est-à-dire qu'il est une identité visuelle, et une fonction de valorisation. *A fortiori*, « le logo rassure, il informe, il indique, mais surtout, il invite à agir il est un système factatif. […], un véritable "vendeur silencieux□. » (Heilbrunn, 2006 : 27).Semprini (1995), dans ce sens, écrivait qu'« un logo est un condensé de sens », non forcément en raison de sa petite taille, mais parce qu'il résume en quelques traits la philosophie de la marque, ses valeurs, son engagement vis-à-vis des clients réels ou potentiels. C'est la raison pour laquelle, le logo à l'instar de la métonymie donne accès à la totalitéde la signification d'une marque. La lecture ou

Internet. Les déictiques en effet ne sont déterminés que par l'instance de discours. Pour croire à sa petite aventure feinte, il nous assure que ce qu'il narre est vrai, que « c'est pas une blague », parce que sinon les téléspectateurs ne le prendront pas au mot. Pour ce faire, le protagoniste se donne l'apparence d'un pédagogue.

En effet, l'énonciateur joue le rôle d'un pédagogue, qui explique la leçon à ses apprenants, dont les poings serrés marquent la nervosité. En se plaçant de profil, on dirait qu'il essaie de dire l'indicible, de décrire l'indescriptible avec ses gestes éloquents ; ainsi les poings au niveau de la poitrine et les avant-bras pressant les côtes en disent long. En Algérie l'on a tendance à parler avec les gestes pour se faire comprendre, ce qui serait perçue comme une agression ou une dispute chez les français, par exemple, qui privilégient généralement la musique et les images dans leurs publicités pour transmettre le message. Cette publicité de Nedjma suit censément le raisonnement de la réclame car du début à la fin du film, nous remarquons la couleur orange qui se prolifère jusqu'à ce qu'elle couvre tout l'écran. Serait-ce une façon d'imposer la marque aux téléspectateurs ?

Nous avons remarqué que le solde est représenté par la peinture et la carte SIM téléphonique par le récipient aux formes carré et triangulaire. Il se dégage une fonction d'ancrage et de relais entre les images et la parole ; nous avons constaté que plus le peintre puise de la peinture dans le récipient, plus celui-ci se remplit contre toute logique. Mais ce qu'il est illogique dans le monde physique, ne l'est plus dans le monde métaphysique ou dans le monde du vraisemblable de la rhétorique. Ce réservoir inépuisable nous rappelle les notions de bénédiction et de charité divines dans le monde de la religion. Dans le Coran, par exemple, Allah dit aux croyants que chaque « *hassana* » (« vertu ») est récompensée par dix vertus égales à celle que l'on a accomplie. Nous nous rendons inconsciemment compte que cette abondance est réservée uniquement aux clients Nedjma.

la quiétude et le bonheur auxquels est destiné un pareil client. Mais pourquoi ce peintre est relégué au second plan ?

Nous dirons que le fait d'occuper cette place n'est pas un signe d'infériorité puisqu'il se trouve en parallèle avec le protagoniste du premier plan. Ce dernier vêtu d'un *tee-shirt* orange signifie qu'il vient tout juste de changer pour orange, celui en habits gris et blanc (le peintre) symbolise la sagesse et la lumière qu'offre Nedjma à ses clients ; cela est conforté par la présence du récipient transparent contenant la peinture orange. Rappelons que la transparence est une devise affichée de l'opérateur. Ce qui semble important dans ce film, et c'est pourquoi l'énonciateur du premier plan est rapproché, c'est que la joie de changer est éphémère, alors la figer par la peinture serait le meilleur moyen pour la graver dans la mémoire.

Enfin si Abdelkader est mis au premier plan, c'est que les publicitaires veulent transmettre un message fort coloré aux abonnés d'autres opérateurs par le biais de cette vedette des plateaux de la téléréalité algérienne. Le plan rapproché, que le film adopte, brise la communication différée et feint une communication directe. Il exhibe les moindres détails du langage du corps. La communication directe avec les énonciateurs qui se trouvent derrière l'écran n'est plus l'apanage du personnage d'Alice[4] de Lewis Carroll (1990), elle n'est plus une utopie, mais une vraisemblance car le développement technologique des moyens de communication nous permet de dialoguer *via* la *webcam* et la visiophonie.

Et pourtant, cet énonciateur, grâce à son langage de gestes et son discours haletant d'émotion, nous raconte une histoire qui n'a même pas duré le temps d'une journée, (voilà encore un exemple concret de la problématique que pose le référent), il nous dit qu'elle commence « aujourd'hui », mais de quelle aujourd'hui s'agit-il ? La linguistique de l'énonciation répondrait qu'un tel adverbe (aujourd'hui) ne renvoie pas à une journée particulière dans le temps, mais correspond à toutes les journées où le film publicitaire est diffusé à la télévision ou visionné sur

« T’es fou toi ! », cette interpellation sous-tend qu’un client qui ne change pas pour Nedjma est taxé de fou. En revanche l’énoncé de l’énonciateur peut ne pas être pris pour une insulte parce que le pronom personnel « tu » qu’il utilise, apparemment pris en charge, pourrait le désigner lui-même ; dirons qu’il se parle à soi-même du moment que son énonciation est suivie d’un geste qui le rend innocent (il pose son index sur sa tempe).

Les déictiques « tu » et « je » sont aussi universels que les noms propres du fait qu’ils sont présents dans toutes les langues du monde. Nous présupposons dans ce cas que l’énoncé « T’es fou toi ! » est adressée non pas à l’ensemble des téléspectateurs algériens, mais à chaque Algérien qui n’est pas encore client de Nedjma. Le contexte déterminecertes notre positionnement, mais sans le recours au cotexte (contexte linguistique) il manquera de rigueur à celui-ci. Passons donc sans plus tarder au cotexte précédant l’énoncé accusateur en haut qui est « Oui, moi aussi j’ai changé pour Nedjma. » ; celui-ci présuppose que l’humoriste n’est point fou car les fous, selon lui, rentrent dans la catégorie de ceux qui ne changent pas pour Nedjma. Et, même après cette assertion, l’énonciateur n’assume pas son énoncé, puisqu’il se rachète en rappelant aux téléspectateurs qu’il plaisante et qu’il n’est après tout qu’un humoriste du moment qu’il dit ceci : « attends, les blagues, c’est moi qui les raconte ». Que cela soit une blague ou une vérité, le film est doté d’une idéologie pas toujours facile à dévoiler.

L’idéologie de Nedjma se révèle ici dans son vouloir de construire une image puissante de sa marque en implantant des représentations dans l’inconscient du téléspectateur, chose qui n’est pas spécifique à elle. Dans ce film, le téléspectateur qui n’est pas client de l’opérateur est montré comme quelqu’un qui n’a rien fait de sa vie pour la rendre plus vivace et colorée. Néanmoins, pour cet opérateur rien n’est encore perdu : nous voyons bien que le fidèle client de Nedjma est représenté comme un peintre face une page blanche. Cette page blanche représente

téléspectateur qu'une fois qu'il devient un client de Nedjma, car l'offre est inscrite en blanc tout de suite après le slogan transcris en noir ; c'est le beau temps après la pluie.

Ce que nous avons dit *supra* s'applique aussi au discours icono-texte du film, d'après ce qui est proféré de la bouche d'Abdelkader Secteur :

/Ah, vous êtes ici !... aujourd'hui, je suis allé chez Nedjma pour m'offrir un solde de cent dinars. Oui, moi aussi, j'ai changé pour Nedjma. T'es [2] fou toi ! Le gars (vendeur) m'a dit : « pourquoi tu ne remontes pas ton compte à deux cent dinars ? » je lui ai rétorqué « et pourquoi vais-je recharger mon compte à deux cent dinars ? », il m'a dit : « la dernière fois, t'as rechargé trois cent dinars, et avec deux cent dinars de plus, tu atteindras cinq cent dinars par mois ». Je lui ai dit : « attends, ici tu m'as plongé dans la confusion là ! », mais il m'a tout de suite expliqué que quand j'atteins cinq cent dinars par mois, j'ai cinq cent dinars de solde offerts ; « ça veut dire qu'avec mes deux cents dinars, j'aurai droit à sept cent dinars de solde! » ; il m'a dit : « oui !», je lui ai rétorqué : « attends, les blagues, c'est moi qui les raconte ». Vous savez, c'est pas une blague, c'est ça le solde gratuit à vie de la star Hala[3]. Il s'oriente vers le peintre et lui dit : « et toi que fais tu ? », le peintre répond « j'ai changé pour l'orange, comme toi ». /

Le discours de ce protagoniste commence par ceci « Ah, vous êtes ici ! », c'est une accroche incontournable pour capter des téléspectateurs volatils que la télécommande incite au zapping incessant. C'est une exclamation familière qui réduit les intercessions entre la marque Nedjma et ses clients potentiels et réels. Dans ses mains un téléphone mobile lui sert de synecdoque (le mobile renvoie à l'univers de la téléphonie mobile Nedjma). Le mobile dans la main et le geste de son index présentent en eux-mêmes un pur matraquage publicitaire, mais comme ils viennent d'un humoriste, ces choses là passeraient inaperçues pour des téléspectateurs non avertis. Il s'agit d'un matraquage direct du fait qu'il s'adresse aux téléspectateurs par un reproche

propres, tel que nous l'apprend l'onomastique, peuvent renvoyer à une infinité de référents (un seul signifiant pour des milliers de référents). C'est pourquoi en publicité l'on exploite tous les moyens pour construire une référence singulière, pour non seulement guider le message intégralement, mais aussi pour graver le référent « la marque » dans l'imaginaire des consommateurs. Nous voudrions dire que si la couleur partage les caractères du nom propre dans ce film, le logo lui confère pragmatiquement une certaine forme et un capital symbolique afin de l'identifier, c'est-à-dire que le contexte joue un rôle important dans la signification.

Pourquoiles marques jouent sur les implicites, l'ironie et les sous-entendus dans leurs compagnes publicitaires ? Nous rappelons que dans un monde où la parole médiatique est sous contrôle de l'État, les publicitaires sont susceptibles d'être poursuivis en justice du moment qu'ils sont dans un cadre officiel régi par des règles d'éthique et de déontologie. Et puis ne pas masquer cette forme de concurrence déloyale serait perçu comme du matraquage pur de la part de leurs clients eux-mêmes. Dans ce cas, les marques font des consommateurs les acteurs principaux de l'interprétation.

Nedjma suggère par ce film publicitaire aux Algériens qui n'ont pas de cartes SIM oranges d'en posséder une afin qu'ils puissent profiter de la promesse qu'elle a tenue. La connotation dissimulée derrière cette suggestion serait facile à débusquer. Il nous suffit juste une petite réflexion pour nous rendre compte que les couleurs du film publicitaire ne sont que le déploiement de celles de la marque (le blanc, l'orange et le noir). En revanche, le syntagme « change pour l'orange » est inscrite en couleur noire. Comme celle-ci est ambivalente, nous devrions donner les deux significations contradictoires dont elle est sujette : elle pourrait être perçue négativement par le téléspectateur algérien car elle signifierait le doute, les sombres idées et le deuil ; ce qui le plongerait dans une situation dysphorique. Il paraît que les choses ne se clarifient pour ce

que si l'on achète une carte SIM Nedjma, l'on aura droit à un solde gratuit et illimité. La couleur orange ne désigne pas la couleur pour elle-même, mais réfère à la marque Nedjma. L'on sait grâce à la linguistique qu'un signe renvoie à quelque chose d'autre que lui-même. En réalité, le référent semble référer à lui-même d'abord, pour ensuite référer à la marque car le signifiant /*orange*/ n'est pas arbitraire, c'est-à-dire qu'il y a une relation de motivation entre la couleur et le logo de la marque. Nous allons représenter le processus de la référence de cette publicité avec le schéma suivant :

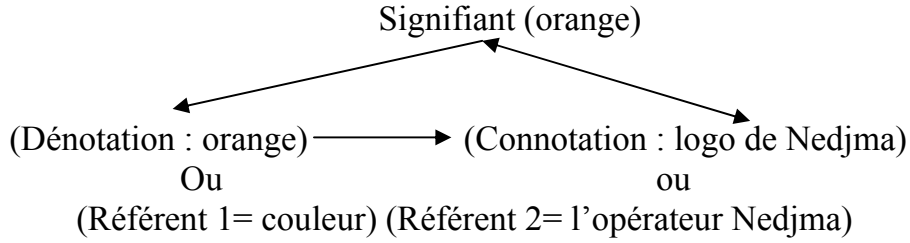

Schéma 1 : *La référence de la couleur orange*

Nous voulons dire, par ce schéma, que pour un spectateur averti (idéal) le signifiant orange renvoie immédiatement à la marque de cet opérateur, parce que la couleur noire que partagent analogiquement les signifiants « Nedjma » et ceux du slogan traduit de l'arabe « change pour l'orange » nous renvoient à la marque. Nous rappelons ici, que le signe est le signe d'un signe tel que nous l'apprend Peirce (1978), le référent d'un référent. Autrement dit, la couleur orange renvoie à la marque Nedjma. Ainsi, tous les signes de leurs publicités se voudraient être des auto-référents. Globalement, la couleur sert ici de médiatrice entre le spectateur et la marque ; elle a dans ce contexte la caractéristique du « nom propre » qu'est la désignation logique. Searle (1996 : 215), en recourant à l'expérience commune, écrivait qu'« À première vue, rien ne semble plus facile à comprendre en philosophie du langage que l'emploi des noms propres : voici le nom, voilà l'objet. Le nom représente l'objet ». Mais le problème c'est que les noms

l'existence du référent sans pour autant qu'il y ait de signes qui le désignent, c'est ce qu'on dénomme en littérature ou en philosophie par le terme de l'ineffable. L'ineffable est, par définition, de l'ordre de l'incommunicable, il relève esthétiquement de la nature sensorielle et de tout ce qui est sensationnel comme le sentiment de bien être, d'euphorie, etc. De même, la ferveur mystique, n'est absolument pas du domaine du dicible, c'est pourquoi les discours sur la passion et sur la foi nous laissent le plus souvent sur notre faim. En revanche, pour la publicité l'ineffable n'a pas droit d'existence de nos jours, grâce aux progrès informatiques et technologiques et aux techniques de trucage.

Pour illustrer cette problématique de la référence, nous verrons grâce à un film publicitaire comment la référence est prise en charge par les publicitaires pour qu'elle ne renvoie au bout du compte qu'à l'univers de la marque.

Le slogan « change pour l'orange » : changement de couleur ou d'opérateur ?

Notre analyse sémiotique s'effectuera de la manière suivante : nous allons du plus simple au plus complexe, comme l'exigerait la démarche cartésienne, afin de saisir les structures discursives du film, en les segmentant sans toutefois les dénaturer. Nous aurons à examiner globalement les structures sémantiques élémentaires, les structures actantielles et modales, les structures narratives et thématiques et les structures figuratives (Fontanille, 2003). Chaque niveau est supposé se superposer du plus abstrait au plus concret de telle manière qu'il pose une complexité de réarticulation. Ce parcourt génératif n'est qu'un modèle de catégorisation mis en œuvre dans le discours.

Pour commencer, nous dirons que « Change pour l'orange» est une publicité référentielle où le texte renvoie nécessairement à l'image. Dans le slogan en arabe de Nedjma que nous pouvons lire au début de ce film publicitaire, la notion de changement est évoquée sous une forme plus au moins impérative « change pour l'orange, solde gratuit pour toute la vie ». Le slogan dénoterait

monde est culturelle en ce sens qu'en recourant à une langue pour parler le monde, cette langue le réinvente à sa manière du moment qu'elle reconstruit à son propre usage les objets et les notions du monde extralinguistique. Pour le mot neige, par exemple, les esquimaux disposent d'une cinquantaine de termes pour le désigner.

Dans le domaine religieux et à travers Epicure, Lucrèce et les spéculations de Dante sur la langue qu'on parlait à l'Éden l'Antiquité et le Moyen Âge nous ont légué le problème de la langue adamique : les mots auraient une fusion intime avec les choses avant la confusion de Babel. Il serait évident que quelques traces linguistiques puissent rester de cette protolangue ne serait-ce que dans la langue chamito-sémitique qu'est l'arabe. Au sujet de cette fusion, l'égyptologue Flinders (1931) rapporte que les arabes, d'après la cabale, estimaient que l'*aleph*[1] est un symbole, un microcosme de l'univers, sa graphie représente un homme qui se prosterne enimplorant le ciel.

À y regarder de plus prés, l'univers extralinguistique ou extrasémiotique vers qui tend la notion de référence, ne va pas sans poser de problèmes à l'analyste, à commencer par l'existence même du référent du fait que l'univers ne se limite pas aux seuls objets perceptibles. Il y a des cas où le référent n'est pas fixe en dehors d'une instance dialogique spécifique ; nous citons pour exemple les pronoms personnels qui désignent la subjectivité imperceptible en dehors de l'énonciation. La réalité dans le cas des signifiants abstraits ne serait donc plus préexistante au discours mais construite par lui. Ainsi, le monde devient une véritable conceptualisation, tant il n'est qu'un monde perçu. Le monde référentiel tel que le décrit Pottier (1992) désigne aussi bien ce que nous voyons réellement par nos yeux, ce que nous entendons réellement par nos oreilles, que ce à quoi nous nous référons dans notre mémoire ou dans notre imaginaire. C'est-à-dire qu'à tous moments de notre fonctionnement linguistique, nous sommes en prise directe avec du référentiel (vu, rappelé, imaginé). Toutefois, il ya quelquefois

La problématique de la référence en publicité

La question de la référence, à l'origine, s'inscrivait particulièrement dans le domaine de la philosophie du langage. Les philosophes, selon Umberto Eco (1988), s'engagent toujours dans des nœuds de problèmes fondamentaux qui concernent la relation entre signes et réalité. Il a pu les organiser en cinq thèses principales :

- il y a une relation entre la forme des signes énoncés et les formes de la pensée ;
- il existe un rapport entre les signes simples et les choses auxquelles ils renvoient par l'intermédiaire des concepts;
- il y a une corrélation entre la forme des énoncés et la forme des événements qu'ils décrivent ;
- il y a une relation entre la forme du signe simple et la forme de l'objet du monde à quoi il réfère ; c'est l'objet qui sera ici la cause du signe et non l'inverse ;
- il n'y a qu'un seul rapport entre le signe et l'objet à quoi il renvoie effectivement.

Bien loin de l'idée des philosophes, Saussure (1995), en introduisant la notion d'arbitraire du signe, reste relativement évasif sur le statut du signifié (référent). De fait, il avait décrit la nature du signe linguistique comme une structure biface *signifiant/signifié*, n'ayant de valeur qu'à l'intérieur d'un système. Ainsi, ce linguiste a rejeté définitivement l'idée selon laquelle la langue était une nomenclature. Ailleurs, le signe reçoit une autre distinction ; il se compose, comme le triangle, de trois éléments (un signifiant, un référent et un signifié), que l'on retrouve chez Peirce (1978) dans une autre terminologie (interprétant, *representamen* et objet).

De son côté, la sémantique générale (Pottier, 1992) reprend à son compte *L'hypothèse Sapir-Whorf* qui soutenait que les conceptions des rapports spatio-temporels, des causes et effets changeaient d'ethnie à ethnie, selon les lois des structures syntaxiques de leurs langues. Chaque ethnie donc apprend à penser avec sa langue. En d'autres termes, la perception du

extralinguistique. Ce paradigme de référent, d'origine aristotélicienne, n'a cessé de passionner une tradition ontologique occidentale soucieuse de remonter l'origine de la vie en multipliant les recherches sur la genèse du langage. Depuis les années 60, elle est devenue le sujet de préoccupations majeures des publicitaires que nous pouvons formuler en questions : Quel est le rôle des référents publicitaires ? Renvoient-ils à eux-mêmes ou bien à la maque ? La machine publicitaire peut-t-elle fabriquer un référent unique ? Celui-ci serait-ce la marque ?

Afin de répondre cavalièrement aux différentes interrogations, nous recourons à la démarche transdisciplinaire qu'est la sémiotique. Notre objectif ne consiste pas à embrasser plusieurs sciences, mais à étudier la complexité de la notion de référence, à travers l'étude d'un film publicitaire de Nedjma dont les référents portant les valeurs de sa marque sont faciles à identifier. La référence concernerait *a priori*la marque dans le domaine publicitaire. La marque, comme vecteur de sens est de nature abstraite qui ne prend forme qu'en s'incarnant dans des supports réels et sensibles. Pour Semprini (1995) tous les sens peuvent véhiculer l'identité d'une marque : le toucher, l'ouïe l'odorat, le goût et la vue. Il ajoute que des cinq sens, à l'exception partiale de l'ouïe, c'est la vue qui a le rôle le plus important dans la construction de l'identité d'une marque et la plus grande flexibilité d'utilisation, parce que tous les autres sens nécessitent une proximité avec le produit, et sont trop éphémères ou trop subjectifs. Pour toute identification, il est important d'associer une image à chaque marque, formée d'un ensemble de stéréotypes positifs (euphoriques) qui procurent une sécurité émotionnelle aux consommateurs ; C'est pourquoi, les compagnes promotionnelles s'appuient d'avantage sur le côté affectif du public que sur les caractéristiques du produit. Nous allons voir qu'un tel univers positif dépond de la fiction condensée dans les logos des marques.

La marque comme référent ultime de la publicité

Atmane Seghir
l'Université de Bejaia

Résumé : *La quête de sens depuis la fin du XX^{e} siècle est passée d'une réalité transparente à une réalité embrouillée. En raison de ce babélisme sémantique engendré par le progrès des moyens d'information et de communication, la référence continue de préoccuper les sciences humaines et sociales. Elle est notamment le sujet capital de la machine publicitaire dont les agences sollicitent des sémioticiens pour créer des référents qui renvoient tous à la marque. Pour comprendre cette problématique, nous nous efforcerons dans cet article de montrer comment l'opérateuralgérien de la téléphonie mobile« Nedjma » fabrique des films publicitaires qui implicitement ou explicitement, caractérisent l'univers de sa marque. La référence singulière à laquelle il aspire, comme nous le verrons, constitue son identité et ses valeurs, bien qu'ellesoit tributaire des représentations et des stéréotypes des consommateurs.*

Mots-clés : *Référence, publicité, marque, logo, identité*

ملخص: *إن البحث عن المعنى منذ أواخر القرن العشرين قد انتقل من حقيقة واضحة وشفافة إلى حقيقة غامضة وهذا بسبب انتشار الدلالات البابلية الناتج عن تطور وسائل الإعلام والاتصال. من اجل هذا بقيت الدلالة تثير اهتمام العلوم الاجتماعية والإنسانية باعتبارها الموضوع الأساسي للآلة الإشهارية خاصة. حيث الوكالات الاشهارية تلجأ إلى علماء السميائيات لخلق مدلولات تشير كلها إلى العلامة التجارية. لفهم هذه الإشكالية سنحاول بقدر الإمكان توضيح كيف أن المتعامل الجزائري للهاتف النقال "نجمة" يصنع إعلانات اشهارية تشير صراحة أو مضمونا إلى عالم يخص علامتها التجارية. كما سنرى فان الدلالة التي يطمح الوصول إليها تكمن في هويتها وقيمها، على الرغم أنها تابعة للصور والقوالب النمطية للمستهلكين.*

كلمات البحث: *الدلالة، الإشهار، العلامة التجارية، الشعار، الهوية.*

La référence, telle qu'elle est généralement définie, est la relation qui unit un signe linguistique à un « objet du monde » qu'on appelle « référent » appartenant à une réalité

CULTURAL INFLUENCE ON THE TRANSLATION OF POPULAR POETRY: TRANSLATING LANGUAGE OR DIALECT?

Summary:

Translation holds an important place in Arabic thought and culture. This can be seen in the policies in effect in this field during the dynasties of Islam, the thousand-year-old theoretical reflection on the issues and the role played by translators in the transfer of know ledge from one culture to another. The Arabic speaking world constitutes a large field for linguistics studies but the sociolinguistics domain still occupy a marginal place as compared to the huge amount of dialectal works conducted on French and/ or/ English. This paper aims at showing the relation between translation studies and sociolinguistics domain, especially in popular culture.

We attempt to shed some fresh light on the translation problematic of dialectical expressions in popular poetry. So what can make translation of dialect problematic?

Key Words: *Translation, culture, linguistics, sociolinguistics, dialecte.*

BIBLIOGRAPHIE :

Beaussier, M. (1958) Dictionnaire pratique arabe français, ed Maison des livres Alger.

Belhalfaoui M. (1973) La poésie arabe Maghrébine d'expression populaire, ed François Maspero, Paris.

Bensimon, P (1996) Traduire la culture In Palimpsestes N°11 ,(pp.9-14) Presse de la Sorbonne Nouvelle , Paris.

Berman, A. (1984) L'Epreuve de l'étranger, Gallimard.

Bessaih, B. (1976) Etendard interdit, ed. Sindbad.

Calvet, L.J. (1993) La sociolinguistique, Presses universitaire de France, ed que sais- je ?

Cordonnier, J.L. (1995) Traduction et culture, Hatier-Didier, Paris.

Dragan, E. (2007) Société, Langue, Culture et Traduction, In La Franchopolyphonie, Langues et Identités, (pp.222-228), Ulim Moldova.

Ibn Khaldoun, (1967) Discours sur l'histoire universelle Al- Muqaddima, tome III E.Sindbad.

Mounin, J. (1963) Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard.

Nida, E. (1966) Linguistics and anthropology in translation problems, New York.

Peeters, J. (1999) La médiation de l'étranger ; une sociolinguistique de la traduction Artois Presses Université.

Sonesson, G., des modèles de la globalisation, la Havana, 2002.

Sonnek, M.C. (1902-1904) Chants arabes du Maghreb, étude sur le dialecte et la poésie populiarede l'Afrique du nord, Vol 3, Paris.

Strauss, L. (1973) Anthropologie structurale, librairie plon, Paris.

Vegliante, J.C. (1996) Décrire la traduction, Presse de La Sorbonne Nouvelle, Paris.

Wiet G., introduction à la littérature arabe, G. P Maisonneuve et Larose, Paris, 1966.

traditions populaires, les mœurs, les coutumes comme : la sorcellerie, la magie, les démons, les marabouts sont suffisamment évidentes dans les œuvres des écrivains qui ont jetés les fondements du roman algérien quoi que la maîtrise du traitement du matériau folklorique soit évidement différente d'un auteur à un autre selon le degré de maturité et de talent. C'est grâce à cette langue, ils ont pu montrer aux autres pays la richesse et ce patrimoine culturel populaire la poésie comme la prose.

CONCLUSION

La langue et la société sont deux concepts qui ne se conçoivent pas l'un sans l'autre. La culture est une somme de tradition, des coutumes et des mœurs, elle devient aussi un produit social. La multitude des langues s'explique par la multiplicité des civilisations qui devient un obstacle dans le processus de la traduction. Traduire une langue ou traduire un dialecte est toujours problématique car la polémique entre l'arabe classique et ses dialectes ne se datent pas d'hier. Mais cet obstacle n'est pas infranchissable, car on fait appel toujours aux moyens propres à la langue cible pour exprimer des notions propres à la langue source. Bien sur une connotation différente sera donnée au mot dans le nouveau contexte, sans oublier de citer le rôle joué par les traducteurs dans le transfert des connaissances des cultures d'une nation à autre. La traduction avec toutes ces nuances : réécriture, transposition, ou adaptation est toujours au service de la culture mondiale ; elle a eu dans tout les cas une fonction de jonction d'une part entre l'orient et l'occident et d'autre part entre l'antiquité et les temps modernes.

restée curieusement si proche, jusqu'à ne sent point distinguer parfois ; mais de nombreuses originalités, fruits d'une évolution naturelle, font d'elle une vraie langue sui generis et qui s'est en particulier illustré dans cette merveilleuse littérature poétique dont l'Afrique du nord possède un grand nombre incalculable de chefs- d'œuvres d'expression arabe dialectale, mais de facture classique (Belhalfawi, 1973, P35) comme par exemple : les proverbes, maximes, sentences, énigmes, contre populaire, les gnomes […].

Le mot (baraka) est largement utilisé dans l'arabe dialectale et même l'arabe classique, il est traduit par : bénédiction, grâce de dieu, influence bienfaisante produite par un saint ou un objet de nature spécialement sacré (Beaussier, 1958 : 54).

L'expression « Allah ibarak » souvent utilisé dans la littérature populaire donne l'équivalence suivante : que dieu bénisse les jours de notre dieu. Souvent le traducteur garde ou transcrit la même expression dialectale pour que le texte de départ reste identique à celui de l'arriver.

Après cette analyse nous pourront affirmer que la traduction du dialecte est toujours problématique et surtout pour l'arabe et ses parler moderne car pour établir les différences qui existent entre l'arabe littéral, celui dont le Coran est le type et l'arabe usuel dialectal, il faut considérer les profondes modifications que le temps, l'usage, le contact avec les populations vaincues et plus tard avec les turcs et les nations maritimes européennes, ont apportés à la langue de Modhar, ou arabe pur, parlé par les conquérants sortis de la péninsule arabique. Beaucoup de mots variant selon les localités et les conditions d'existence des populations. Il existe ainsi des différences marquées dans les locutions employées par les populations des villes et les populations rurales.

Les mots utilisés dans le parler égyptien ne sont pas les mêmes dans le parler algérien donc un traducteur égyptien trouvera des obstacles en traduisant un texte dialectal Maghrébin ici nous remarquons que le processus culturel joue un rôle important dans cette opération traduisante et combien une langue est elle liée à sa culture. Ainsi les traces de l'influence des

d'équivalence. Nombreuses sont ces expressions de l'arabe dialectal, qui traduites littéralement, non seulement peuvent devenir banalités, mais comportent un risque de grave contre sens. Dans la même expression, un mot traduit différemment donne à la phrase un sens nouveau, si bien que, sans la connaissance de l'époque et de sa culture, il est impossible de comprendre et de choisir. Il est certes impossible de retrouver en français en rythme poétique d'une langue dialectale, elle-même moins précise que la langue arabe classique ; il a due parfois inverser le vers pour le transmettre ce rythme et conserver au poème l'assonance de sa composition originale (Boualem 1976 :49).

Dans ses courtes remarques sur la traduction des dialectes D.Slobodnik notait qu'il est insensé de chercher à transposer mécaniquement une expression dialectale à l'aide d'un dialecte de langue d'arrivée (supposé équivalent) ; sauf peut-être dans les cas ou l'expression considéré à une valeur plus au moins comique (sociale) (Vegliante, 1996 :92).

C'est le cas dans la littérature Maghrébine à coté de la poésie populaire avec ces dimensions citadines et bédouines certains écrivains inclineraient à utiliser un langage qu'on pourrait appeler de bonne compagnie, dialectal sans doute, mais repoussant certaines formules comme trop vulgaire, et qui pourrait devenir la langue des revue et des conférences.

Nous le trouverons plus loin, l'intérêt, que des lecteurs français ne perçoivent pas toujours se patrimoine culturel. Mais des francophones, oui sans doute et la richesse et l'attention portée aux essais de traducteurs de dialecte. Celle-ci contient dirait-on, un surplus de sens aussi plus précieux que le symétrique moindre sens de traductions de surface (homophones/ou d'autres formes d'exercices traductifs restreins. Ou faut il souligner, l'exercice consiste toujours d'avantage à inventer qu'à tenter en vain quelques illusoire restitution (Viet 1966 :309).

La poésie dialectale est considérée comme un art d'un très haut niveau littéraire écrit dans cette langue savoureuse de Maghreb, parente directe de la langue de Quoraich, dont elle est

poésie populaire *(l'expression « poésie populaire » peut être prise dans deux acceptions différentes celle de poèmes écrits en dialectal par des rumeurs qui auraient ? Composer des vers savants, mais qui préfèrent avoir, grâce au langage parlé, une plus large diffusion. Il y est également des artisans cultivés, qui dans leurs poèmes font appel à des vocables de leur métier)* citadin et bédouin distinction qui se justifie par la différence de langues, de thèmes, de culture et l'idéal moral (Ibn Khaldoun 1967, III : 1274).

La poésie populaire citadine celle de Tlemcen et du Maroc en particulier dérive de la poésie classique de la décadence : celle de *Muwachchah's* et de *Djazal* (*le Muwashah et le Zadjal représentent la poésie populaire espagnole composée par Ibn Guzman, un grand poète Andalous (1160aprés J.C A.D).*

Voici le début d'un poème populaire d'autre fois dont la langue parait presque classique comparée à celle d'aujourd'hui :

1- أصابني مرض الهوى ولم نجد لـــــــــه دوا

2- الافـــــــوادي قد كوى من حب الريم المغنجي

3- بهاوها حســــن جميل ولا نـــــرى لها مثيل

4- في ذا الزمان إلا قليل في جيلنـــــا وما يجي

1- J'ai était saisi par le mal d'amour – auquel je ne trouve point le remède.

2- Sauf que mon cœur a était brûlé à cause de ma passion pour cette gazelle coquette.

3- Sa grâce est faite de la splendeur de la beauté, et je ne lui trouve pas de rivale.

4- Suivons quelques rares modèles en ce temps, ci et ceci est valable pour la période présente et future (Sonnek, 1902-1904 : 54).

Suite à cet exemple et pour répondre aux problématiques posées avant, on peut affirmer que le traducteur rencontre de nombreuses difficultés en traduction d'abord parce qu'en poésie la fidélité au texte arabe ne doit pas obscurcir le texte français. Ensuite, parce qu'en dépit de la richesse de la langue française bien des expressions du texte original ne trouvaient pas

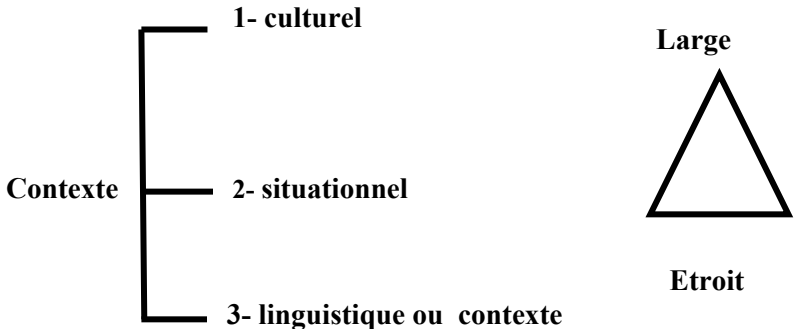

Figure 2 : traduire, c'est donc transposer un texte et son contexte d'une langue culture-1- à une langue culture-En d'autres termes, quand on traduit, on ne devrait pas seulement « traduire » des textes, c'est-à-dire des mots dans des phrases mais le contexte par lesquels ils sont portés, de plus étroit ou plus large.

a) - il a la fonction de lecteur décodeur.

b) – il a aussi celle de traducteur- interprète « encodeur » et « transcodeur ».

- *La poésie populaire : traducteur en séjour :*

Parlons un peut de la poésie dialectale que possède le grand Maghreb et l'orientale, qui représente un patrimoine culturel de masse face aux grands chefs d'œuvres littéraire rédigé en arabe classique. Pour cette approche, chaque langue et chaque dialecte et donc sa culture correspondante possède une richesse extraordinaire, représente un patrimoine unique qui peut enrichir et influencer d'avantage les autres langues et les autres cultures. « Le langage est l'instrument essentiel par lequel nous assimilions la culture de notre groupe » (Strauss, 1973 :208).

Malgré des siècles de désorganisation sociale et d'anarchie politique que reçu le Maghreb, le goût de l'arabe bédouin pour la poésie et sont attachement a sa langue maternelle adoptées par les arabes- berbères, sont demeurées intactes lorsque vint la décadence et que la langue classique tomba dans l'oubli, ces aptitudes et ces dispositions, sources intarissables de poésie n'ont pas cessé de se manifester et d'évoluer selon les milieux et les circonstances. Ont peut distinguer deux aspects dans cette

rafraîchi par cette nouvelle. On remarque ici l'influence culturelle et même géographique et climatique.

On admet aujourd'hui qu'il y a des cultures (ou des civilisations) profondément différentes qui constituent non pas autant des visions du monde différentes. Et la question est de savoir si ces mondes profondément hétérogènes se comprennent ou peuvent se comprendre, se traduire, de savoir si, en profondeur, chaque civilisation est impénétrable pour les autres (Mounin, 1963 :59).

Il devait ressortir de ce qui précède que toute traduction est par force adaptation. Il a été question plus haut à ce propos de passage d'une « langue-culture » à une autre. En cela consiste essentiellement l'adaptation. La manière la plus économique de définir ce qu'est une langue-culture c'est de recourir à la distinction entre « référent mental » et « référent expérientiel » distinction définit dans Joly et O'Kelly 1990, le langage est fait produire le monde- l'univers d'expérience- d'en permettre une présentation permanente. Le traducteur a donc une fonction double. On pourrait dire que c'est un actant « a double effet ».

En effet le traducteur est un interprète, ou, plus précisément le dit Jules Supervielle, un « passeur » au sens propre et premier du terme latin (traducere, « faire passer ») c'est pour son lecteur, sur l'autre rive, qu'œuvre le traducteur passeur. Tel lecteur partage la même culture et parlent le même langage, ils ont en commun ce qu'on a pu appeler une « langue-culture » ; qui n'est pas celle du traducteur du texte de départ. Le passeur fait donc passer l' « âme morte » d'un texte qu'il fait revivre dans une autre langue. Ame morte en effet pour le lecteur qui ne connaît pas la langue départ c'est donc au lecteur, sur l'autre rive, que le traducteur doit en dernier ressort ces services et son aspect au lecteur qui, pour le passage du texte, a littéralement payé son omble.

L'existence de ces obstacles à la traduction, qui proviennent de la différence des mondes réels exprimés par des langues différentes, n'a jamais été démontrée spécifiquement. La plupart des travaux qui traitent cette question confondent les obstacles qui proviennent des façons différentes de concevoir le même monde et les obstacles qui proviennent de façon de nommer des mondes entièrement étrangers les uns aux autres.

Dans ces recherches Nida remarque que, dans le cadre d'une même grande civilisation, existent des mondes de l'expérience sociale si différents que la traduction d'une nation de l'un à l'autre, apparaît difficile et quelques fois, sans doute impossible (Nida, 1964 : 214). A ce propos, il classe les problèmes posées par la recherche des équivalences lors du passage d'un monde culturel à un autre au cours d'une traduction selon cinq domaines :

L'écologie, la culture matérielle (toutes les technologies au sens large) la culture sociale, la culture religieuse et la culture linguistique (Nida, 1964 : 208).

Comme l'arabe et le français sont des langues appartenant a des groupes de langues différentes, et donc a des cultures différentes. Les unités empruntées par ces langues l'une à l'autre se transforme en des unités exotiques. Les exotismes et les ethno graphismes se présentent, premièrement, comme des symboles de la France dans la culture arabe et vice versa, dans laquelle ils fonctionnent comme des emprunts et puis comme des unités qui transposent la culture française et arabe.

Si deux ou plusieurs cultures sont très proches, les fonds lexicaux des langues qui transposent ces cultures, enregistrent des équivalents partiels. Ainsi, en arabe, le mot bazar ou (suq) signifie marché public ; en français ce mot signifie marché arabe public, magasin universel, ou maison en désordre lorsqu'on utilise l'expression suivante : c'est quoi se souk ?

L'expression arabe [atlagta sadri] (أثلجت صدرى) fut traduite en français comme suit: tu ma réchauffé le cœur or que le verbe [atlaga] est le contraire du verbe réchauffer qui veut dire: tu m'as

Les différences entre des dialectes plus éloignés, comme le parler algérien, le tunisien et le marocain, sont moins grandes mais représentent quand même un handicap important pour la communication, comme entre le français du Québec et le français d'Europe.

Les langues et les dialectes (Peeters, 199 : 183) constituent en même temps, des traditions autonomes, mais, aussi, elles se trouvent dans un réseau complexe de faits et de traditions de nature extralinguistique. Les langues se développent comme systèmes dans des relations avec d'autres phénomènes d'ordre spirituel et social : la langue étant liée directement à la vie sociale, à la civilisation, à l'art, au développement de la pensée de la politique à la vie entière de l'homme. Ainsi le problème de la langue et de la culture est un problème aspectuel. La culture est un produit social et pas une activité biologique de l'homme tandis que la langue apparaît comme une évolution de la culture et de la nature à la fois. La culture détermine le plan du contenu du système des signes de la langue. Le caractère et la forme de l'influence de la culture sur la langue s'observent par le lexique et les phrasiologismes, parce que les moyens nominatifs de la langue sont dans une relation étroite avec la réalité environnante. Chaque langue chaque dialecte à des mots qui n'ont pas de traduction uniques dans d'autres langues. C'est surtout le lexique sans équivalents ou le lexique exotique. Les exotismes et les ethno graphismes symbolisent une culture étrangère à la langue qui les emprunte.

Au terme de cet aperçu, on pourrait se poser les questions suivantes :

Qu'est ce qui rend la traduction du dialecte problématique ? Comment le traducteur peut il évaluer la qualité de sa traduction lorsqu'il est face à une expression dialectale?

En d'autres termes, comment la traductologie, la linguistique et la sociolinguistique peuvent elles contribuer à élaborer une méthode viable et fiable pour traduire un dialecte dans un texte particulier ? Le dialecte représente il un obstacle dans l'acte traduisant ?

La traduction face aux mécanismes sociaux et sociolinguistiques

-La traduction dans le domaine arabe : traduire une langue ou un dialecte ?

« Adressez vous aux gens dont l'idiome qu'ils comprennent », « celui qui apprend la langue d'un autre peuple se prémunit de sa fourberie », tel sont l'un des plus célèbres dit du prophète Mohammed (Q.S.S.L), devenue formule courante. La tradition précise qu'il s'adressait aux délégations des tribus arabes venues puiser à la source le nouveau message divin dans leur langue ou dialecte, et qu'il justifiais la diversité des lectures coraniques par le fait que le coran lui a été révélé dans sept idiomes(*le texte coranique contient plusieurs dialectes. Comme le dialecte, est un élément nécessaire pour la saisie des structures des autres cultures, il est capitale de dire que les diverses traductions du texte coranique ou des sens n'ont pas pris en compte de détaille Soufian Al- Karjously, les « sept » dialectes et le texte coranique, acte du colloque international « typologie des parlers arabes modernes » 14-15 mai 2007 Montpellier).*

L'arabe et ces dialectes constituent un terrain de choix pour les études de linguistique comparative, car il s'agit d'un continuum linguistique qui couvre un très vaste territoire (de la Mauritanie jusqu'au confins du monde perse, avec quelques projections en Europe à Malte et à Chypre) dans le domaine arabe, les études de dialectologies occupent une place encore marginale, comparée aux études de géographie dialectale menées sur le français et l'anglais d'un coté et a la linguistique arabe de l'autre. Les études arabes ont été divisées en deux grands domaines qui se recoupait très peut :

a) l'étude la langue arabe classique

b) études dialectales

La langue arabe et ses dialectes ont crée une polémique dans l'ensemble du monde arabe car chaque dialecte ou parler reflète une culture particulière pour chaque pays arabe ex : pour un égyptien, l'arabe algérien sera aussi différent que l'espagnol pour un français.

culture devient ainsi le contour particulier, spirituel du peuple qui se manifeste premièrement à l'aide de la langue. La culture est une somme de traditions, de coutumes d'un peuple, de la science développée par celui-ci, de sa religion, de la littérature et de l'art crée par le peuple, la culture devient ainsi un produit social.

Ces termes, langue et société, et leurs rapports, sont pourtant toujours à redéfinir dans le cadre de chaque domaine. L'étude du langage dans sont contexte social consiste à rechercher des corrélations entre certaines variations linguistiques et la position sociale des locuteurs ou la situation de communication, elle s'intéresse a tout ce qui varie dans la langue et étudie la structuration sociale de cette variation. Elle s'appuie sur une première hypothèse de travail qui est l'hétérogénéité du système linguistique et la diversité des usages. « si la langue est un fait (ou un produit) social, alors la linguistique ne peut être définit que comme l'étude de la communauté sociale sous sont aspect linguistique et la sociolinguistique ne peut a sont tour se définir que comme la linguistique » (Calvet, 1993 :124). La langue est alors conçue comme un lieu social ; sont usage dans les conduites de la vie sociale en fait un instrument de celle-là.

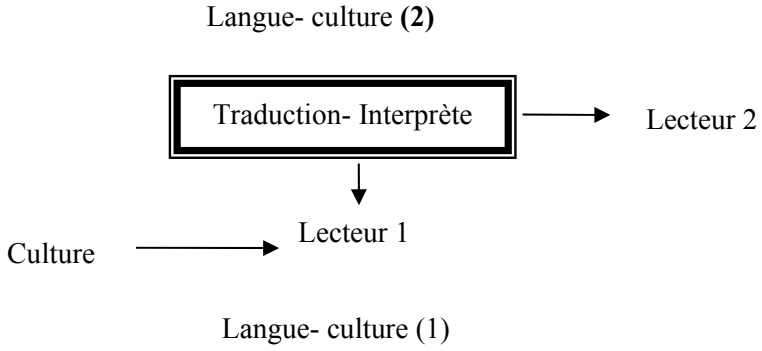

Figure1 : L'écrivain produit le TD et le traducteur produit le TA ceci mène à rappeler que la traduction au sens générique est d'abord un lecteur, le lecteur d'un TD avant devenir le traducteur (au sens spécifique).

La visé même de la traduction- ouvrir un nouveau de l'écrit un certain rapport à l'autre, féconder le propre par la médiation de l'Etranger- heurte de font la structure ethnocentrique de toute culture, on cette espèce de narcissisme qui fait que toute société voudrait être un Tout et non mélangé (Berman, 1984 :16)

La traduction suppose l'interaction. Les cultures n'entrent pas directement en contact sur toute leur surface mais sur certains points ou certaines régions seulement.

« Traduire c'est établir un contact avec un ensemble d'autres contacts, connus ou inconnus par le traducteur, traduire c'est aussi travaillé sur la base des échanges culturels » (Cordonnier, 1995 :11) Dans l'opération traduisante la culture de l'étranger se manifeste comme un lieu de résistance très solide à la traduction, car elle ouvre la possibilité de l'étrangeté qui vient se heurter à la culture de la langue cible. La traduction bute contre le fait culturel étranger, en finissant par l'évacuer souvent c'est là l'espace de l'intraduisibilité.

Celle-ci est historique est culturelle, proportionnelle à la quantité et à la qualité des contacts établis avec l'autre langue. L'intraduisibilité ressortit à l'interaction entre les cultures. C'est ainsi qu'elle doit être envisagée. Le fait qu'il y ait une hiérarchisation et une inégalité entre les cultures n'est pas de peu d'importance pour la traduction, les deux termes : traduction et culture s'influences réciproquement.

« La traduction est dans la culture, elle est culture » (Cordonnier, 1995 :12-13)**.** D'une autre part, la culture biologique de l'individu se reflète dans sa langue, c'est pourquoi le contenu matériel de la langue est déterminé, dans une grande mesure, par l'aspect physiologique, et de plus, par celui psychophysiologique du processus de la communication processus qui met en action la langue (Dragan, 2007 :222).

La langue et la société sont deux concepts qui ne se conçoivent pas l'un sans l'autre. C'est dans la société qu'ont apprend les compétences linguistiques qui seront perfectionnés dans la même communauté sociale, chaque société s'identifie à l'aide d'un appareil spécifique des symboles qui englobe la diversité des langues, des cultures et des visions du monde. La

Introduction

Conçue comme un phénomène social, grâce à son essence et sa fonction, la langue est définie comme une manifestation de la culture d'un peuple.

« La culture, à son tour, de la façon dont elle est définit par la plupart des chercheurs comme la somme des traditions, des coutumes d'un peuple, la religion, la littérature et l'art, s'oppose à la nature, comme toute réalité crée et travaillée s'oppose à la réalité non travaillée » (Sonesson, 2002 : 141).

Par la langue, l'homme assimile la culture, la perpétue ou la transforme. Or, comme chaque langue, chaque culture met en œuvre un appareil spécifique de symboles dans lequel s'identifie chaque société. Ainsi la diversité des langues et des cultures dans leur fonctionnement a pour base le symbolique qui les articule.

Comme la culture englobe des éléments internationaux et nationaux de même le contour sémantique d'une langue englobe des éléments de la culture universelle et des éléments de la culture nationale. Ainsi, on conçoit que la culture est un produit social, non subordonné à l'activité biologique des individus mais la langue c'est la forme de la matérialisation et du stockage des valeurs de civilisation.

Du point de vue historique, le concept de culture est plutôt jeune: environ trois siècles. C'est au XVII siècle que Samuel Pufendorf en a donné la première formulation moderne. La traduction se trouve entièrement dans ce cadre, car elle indique les manières de traduire une culture dans son ensemble, ou encore elle montre les modes de traduire d'un sujet particulier.

Relation entre, langue, culture et traduction

Depuis les temps les plus anciens, la traduction est un des moyens essentiels de la communication interculturelle, et l'un des modes majeurs du croisement des cultures. Il n'en reste pas moins vrais que le fait culturel, dans son essence, résiste fortement à l'opération de traduction, d'abord en raison de son irréductible singularité, de son ancrage dans une culture réceptrice, ensuite pour une autre raison, fondamentale qu'a exposé Antoine dans une remarque clé (Bensimon, 1998 : 10):

L'INFLUENCE CULTURELLE SUR LA TRADUCTION DE LA POESIE POPULAIRE: TRADUIRE UNE LANGUE OU UN DIALECTE?

Moussaoui Yamina Leila
Université Tlemcen

« L'histoire de la traduction chez un peuple est l'histoire même de son goût. L'art de traduire et l'art d'écrire traversent les mêmes phrases et subissent les mêmes influences » A.H Becker, 1896.

***Résumé**: La traduction occupe une place de choix dans la pensée et la culture arabe. Cela se vérifie à travers les politiques menées dans ce domaine pendant des siècles. Cette activité a permet de mieux faciliter les contacts et la communication entre les peuples et les états grâce aux efforts et le rôle joué par les traducteurs dans le transfert des connaissances d'une culture à une autre. L'étude de la langue arabe classique et les études dialectales (dialectologie arabe) ces derniers étaient l'objet de multiples débats. Les variations régionales, mêmes grandes sont aussi le fait de toutes les langues. Les niveaux d'expressions quotidiennes, de la rue ou littéraires aussi l'essentiel de la transmission de cette culture populaire dans cette langue s'est faite oralement. En Algérie, la richesse de la situation linguistique ou plurilinguisme (l'arabe classique moderne ou standard (FUSHA), l'arabe Algérien (DARIJA), le Tamazight et le Français) ont donné naissance à une littérature riche et savoureuse bercé entre la prose d'un côté et la poésie de l'autre, ce chant qui raconte une histoire d'un peuple d'autrefois ; d'une littérature vécu et non écrite.*

A la lumière de cette observation, il devient difficile de savoir ou s'arrête et ou commence le rôle du traducteur dans cette culture de masse. En effet la question de la traduction de dialecte était toujours problématique notamment dans ce domaine culturel populaire ou bien folklorique que possède le grand Maghreb qui est à la fois mixte et complexe. On peut estimer que grâce à l'activité traduisant de plusieurs traducteurs étrangers (les orientalistes) et même arabes ce trésor menacé et déjà fugace fut sauvé de l'oublie et de la disparition. Pourrons-nous la considéré comme une transcription ou bien une traduction des voix des nôtres ?

***Mots clés :** Traduction, culture, linguistique, sociolinguistique dialecte.*